المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

الجغرافيا السياسية فى مائة عام

(التطور الجيوبوليتيكى العالمى)

الجزء الثانى

تحرير

كلاوس دودز ديفيد أتكنسون

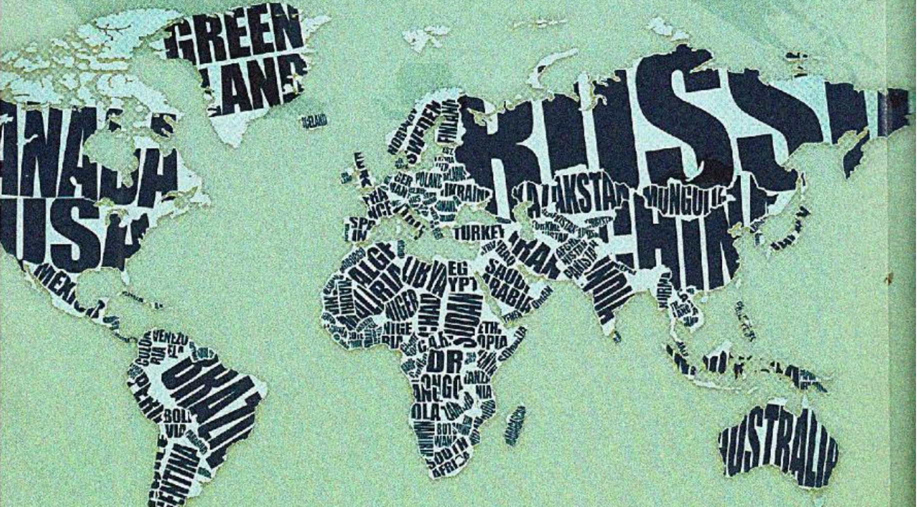

ترجمة

عاطف معتمد عزت زيان

1593

الجغرافيا السياسية فى مائة عام
(التطور الچيوبوليتكى العالمى)

المركز القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : 1593
- الجغرافيا السياسية فى مائة عام : التطور الجيوبولتيكى العالمى (ج ٢)
- كلاوس دودز، وديفيد أتكنسون
- عاطف معتمد، وعزت زيان
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب :

Geopolitical Traditions: Critical Histories of a Century of Geopolitical Thought

Edited by David Atkinson and Klaus Dodds

Copyright © 2000 Edited by Klaus Dodds and David Atkinson

"Authorised translation from the English language edition published by

Routledge, a member of the Taylor & Francis

"All Rights Reserved"

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة .

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

E.mail:egyptcouncil@yahoo.com **Tel.:** 27354524 - 27354526 **Fax:** 27354554

الجغرافيا السياسية فى مائة عام

(التطور الچيوبوليتكى العالمى)

(الجزء الثانى)

تحرير

كلاوس دودز   ديفيد أتكنسون

ترجمة

عاطف معتمد   عزت زيان

2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الجغرافيا السياسية فى مائة عام (التطور الجيوبوليتكى العالمى) جـ ٢ / تحرير كلاوش دودز، ديفيد أتكنسون، ترجمة : عاطف معتمد، عزت زيان،
ط ١- القاهرة: المركز القومى للترجمة ٢٠١٠
٣١٢ص ؛ ٢٤ سم .
١ - الجغرافيا السياسية.
(أ) دودز، كلاوس (محرر).
(ب) أتكنسون، ديفيد (محرر مشارك).
(جـ) معتمد، عاطف (مترجم).
(د) زيان، عزت (مترجم مشارك).
(هـ) العنوان ٩١٠,١٣٢

رقم الإيداع ٧٢٥٤ / ٢٠١٠
الترقيم الدولى I.S.BN. 978 - 477 - 704 - 008 - 2
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولاتعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

الفصل الثامن: الجيوبوليتيكا الروحية 7
الفصل التاسع: تمثيل الهند فى مرحلة ما بعد الاستعمار 45
الجزء الثالث: إعادة إصلاح واستعادة الجيوليتيكا
الفصل الحادى عشر: جيوبوليتيكا اليسار 87
الفصل العاشر: هيردوت واليسار الفرنسى 129
الفصل الثانى عشر: المواطنة، الهوية، والموقع 179
الفصل الثالث عشر: إعادة صياغة الجيوبوليتيكا 223
الفصل الرابع عشر: نحو جيوبوليتيكا خضراء 253
الفصل الخامس عشر: الجيوبوليتيكا والجغرافيا السياسية والعلم الاجتماعى... 281
الفصل السادس عشر: أهمية الأشياء الصغيرة 292
المساهمون فى الكتاب 305

قائمة الأشكال

شكل (١٧) "ليس واحدا منا" 76

شكل (١٨) رسم وياز لهيرودوت المستخدم عل غلاف هيرودوت منذ السبعينات 141

شكل (١٩) شكل لاكوست الذى يوضح كيف يربط "التفسير الجغرافى" متلف مقاييس ومستويات التحليل المكانى 147

الجداول

جدول (١) مقالات ريدرز دايجست المتعلقة بموضوعات الخطر والهوية الأمريكية ١٩٨٦-١٩٩٤ 234

الفصل الثامن:

الجيوبوليتيكا الروحية

الأب إدموند والش والجزويت المناهض للشيوعية

جيرويد أوتواتيل (جيرارد تول)

مقدمة

فى حالات قليلة للغاية ربطت الاعتبارات المعنية بتواريخ وتراث الجيوبوليتيك بين التراث الجيوبوليتيكى والمشكلات ذات الصلة بالدين. ويبدو أن الأسباب التى وقفت خلف ذلك الإهمال تنبع من أن الجيوبوليتيك نسق قوى حديث وعلمانى من الممارسات المترابطة معا. وباعتبار الجيوبوليتيك تصورا مكانيا لدولة مركزية، فيبدو أنها حققت انتصارا على حساب التصور الكونى للدين خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، وذلك مع تبنى صيغة "الناس على دين ملوكهم" التى تبلورت من مقولة "من يحكم المكان، يفرض الديانة Cuius regio، eius religi " خلال اتفاق سلام أوجيسبيرج فى ١٥٥٥، ثم ترسخ ذلك الاتفاق بعد حرب الثلاثين عاما، خلال معاهدة ويستفاليا فى ١٦٤٨ .

وقد اعتبرت معاهدة ويستفاليا لفترة طويلة نقطة فارقة فى العلاقات الدولية التقليدية، ولحظة تاريخية فى قيام النظم الدولية الحديثة. وينظر إلى هذه المعاهدة كعلامة بارزة تميز ذلك الوقت الذى شهد إزاحة حاسمة للتصورات الجغرافية الموروثة من العصور الوسطى، والتى شكلت الفضاء المكانى كبناء هرمى رأسى يقف أمام الرب المسيحى، وأحلت محله تصورا جيوبوليتيكا حديثا ينظم الفضاء المكانى، هذه المرة كنسق أفقى من النظم الإقليمية المتنافسة معاً (Huxley 1944; Shapiro 1992: 109; Agnew and Corbbridge 1995:18)

وقد تدعمت تلك الإزاحة من خلال تحولات ثقافية وعلمية أعادت التفكير فى فكرة المكان داخل أوربا، وذلك مع إخضاع نيقولا كوبرنيكوس وجيوردانو برونو وغيرهم فكرة الفضاء المكانى للنقد وإعادة تقييم ما هو مطروح من أن هذا الفضاء لا نهائى

ومـتـجـانس وقـابل للقـيـاس (A. Crosby 1997: 95-108) وهكذا بدت التـصـورات الجيوبوليتيكة الحديثة قد استهلت وجودها حين سقطت التصورات الجيو-دينية الموروثة من العصور الوسطى.

ومع ذلك، تبدو فكرة الفصل القاطع بين المكان الدينى فى العصور الوسطى والمكان الجيوبوليتيكى الحديث فى ويستفاليا موضع تساؤل. ولكن بدلاً من الحديث عن الانفصال الواضح والصريح، يمكن القول إن العلاقات التى كانت موجودة بين الدنيوى والدينى، وبين الأرضى والسماوى، قد أعيد تنظيمها وتحديد مفاهيمها فى أوجسبورج، ويستفاليا، والعديد من المواقف التاريخية الأخرى منذ ذلك الوقت. حيث تحولت الأفكار والتصورات الدينية فى العصور الوسطى إلى الأساطير الجديدة لتنوع الدول الأوروبية، التى ترى كل منها تغيرات مختلفة بناءً على إلهام سماوى، أو مباركة إلهية وراء قيادة ربانية. وبدلاً من اعتبار التقاليد الجيوبوليتكية والتقاليد الدينية فى حالة تعارض، يمكن اعتبارها فى حالة تشابك عميقة وتكوين متبادل. حيث بررت الترتيبات العمودية الروحية والمعيارية للأراضى المقدسة الترتيب الأفقى العالمى والاستعمارى لمكانة ما هو جيوبوليتكى. فقد شهد التطور التاريخى لنظام الدولة الحديثة فى أوروبا وفرضه بعنف على العالم تدخلات متعددة ومعقدة للخطابات الجيوبوليتكية والدينية)(Cosgrove1999) فكان التوسع الخارجى للإمبراطوريات الأوروبية فى الأمريكتين وآسيا وفى إفريقيا لاحقا مدفوعا فى جزء كبير منه بدوافع دينية وبمباركة الكنيسة. وفى حالات عديدة كان رواد الغزوات والمواجهات الاستعمارية رجالا ينتمون إلى أنشطة دينية مثل الجزويت. حيث ساعد البكاؤون المتطهرون وساندت الحماسة الدينية فى ترسيخ مفهوم ومغزى العالم الأمريكى الجديد (Campbell 1992) وكانت أفكار الإرادة الإلهية والمصير الربانى بمثابة عوامل جوهرية فى غزو الغرب الأمريكى فى القرن التاسع عشر (Stephansan1995)

وكذالك يتصف ظهور "الجيوبوليتكية" الواعية كتقليد لتنظيم العلاقات الجغرافية وإقليم الدولة والقوة العالمية فى الولايات المتحدة فى النصف الأول من القرن العشرين

بدمج الجيوبوليتيكى والدينى. وكان القس الجزويتى الأب إدموند والش(١٨٨٥-١٩٥٦) مؤسس "مدرسة جورجتاون للخدمة الأجنبية" فى ١٩١٩، أحد الشخصيات الرائدة فى نشر "الجيوبوليتيكيا" كمجال للمعرفة فى الولايات المتحدة. واليوم يتم تعيين أعضاء من جامعة جورجتاون التى أسسها الجزويت فى ١٧٨٩ بصورة منتظمة فى مناصب قيادية فى السياسة الخارجية الأمريكية، بينما تخرج من مدرسة الخدمة الأجنبية طوال العصور طلاب شغلوا وأداروا تلك المناصب. حيث قام الأب وشن- الوصى الأول على المدرسة - بتدريس مناهج من الجيوبوليتكيا الدبلوماسية والقيادية العسكرية المستقبلية، وكان يعمل أيضا كخبير فى الجيوبوليتكيا الأوروبية للمؤسسات الحكومية وللجمهور الأمريكى فى كتاباته وخطاباته العامة. وكانت حياة والش حافلة غطت الاضطرابات الكبرى فى النصف الأول من القرن العشرين، بل إن اهتمامه الواضح بالجيوبوليتكا، خاصة الجيوبوليتيكا الألمانية والسوفيتية، وموقفه السياسى النشط، جعله شخصية هامة جداً فى تاريخ الجيوبوليتكيا الأمريكية. ويوضح هذا الفصل مقدمة عن الفلسفة الجيوبوليتيكية عند والش التى تظهر فى كتبه وأحاديثه الكبرى. ولكنى لن أتناول بالتفصيل أنشطته السياسية، ولا جهوده الدبلوماسية،ولا خدمته العسكرية (التى قادته إلى أداء دور هام فى محاكمة الجيش الأمريكى لكارل هوسهوفر بعد الحرب العالمية الثانية مثلاً). ويمكن تقسيم مسار والش المهنى إلى خمس مراحل مختلفة:

أولاً، ولد لأسرة أمريكية أيرلندية فى بوسطن، وتم ترسيمه قسًا جزويتيًا فى ١٩١٦، وعين عميداً لكلية الآداب والعلوم بجامعة جورجتاون فى ١٩١٨، وعين فى نفس السنة عضواً فى "اللجنة الخاصة لوزارة الحرب"، وذلك لإدارة "فيلق تدريب جيش الطلاب" وبعد تسريح الجيش فى السنة التالية، ساعد على تأسيس " مدرسة الخدمة الأجنبية " كقسم فى جامعة جورجتاون، وأصبح أول وصى عليها.

ثانيًا، عينه البابا بيوس الحادى عشر فى ١٩٢٢ مديرا عاما لبعثة الإغاثة البابوية إلى روسيا السوفيتية، وممثلاً للفاتيكان لشئون الكنيسة فى الاتحاد السوفيتى. وعمل

فى روسيا لمدة سنة ونصف، تولدت فيها لديه كراهية عميقة للبلشفية. وبينما كان فى روسيا، نجح والش إلى حد ما فى الدفاع عن بعض مسئولى الكنيسة ضد اضطهاد البلاشفة، خاصة بعد مقتل أسقف إحدى الكنائس.

ثالثًا، من١٩٢٣ إلى ١٩٤٥ كان والش داعيًا بارزًا ضد الشيوعية فى الولايات المتحدة. وفى ١٩٢٣ نشر كتاب "سقوط الإمبراطورية الروسية"، وهو تاريخ قصصى لسقوط أسرة رومانوف والثورة البلشفية، ممزوج بتجاربه الشخصية فى روسيا. وكان معارضًا شديدا لاعتراف الولايات المتحدة بالحكومة البلشفية، وكان يلقى محاضرات عامة بصورة منتظمة فى قاعة الدستور فى واشنطن، وكان يطلق رسائل مناهضة للشيوعية إلى ضباط الجيش الأمريكى وعملاء مكتب التحقيقات الفدرالى. وعندما قرر الرئيس روزفلت الاعتراف بالاتحاد السوفيتى فى ١٩٣٣، استدعى والش إلى المكتب البيضاوى ليشرح له قراره شخصيًا ليضمن تأييده. ومع ذلك، لم يؤيده والش، ونظم القادة الكاثوليك مظاهرات عامة، واجتماعات جماهيريه ومسيرات للاحتجاج على هذا القرار (Crosby 1978:6) وبعد اندلاع الحرب بين روسيا وفنلندا فى ١٩٣٩ نظم والش وأدار صندوق الإغاثة الفنلندى فى واشنطن.

رابعًا، نتيجة لدراساته ومحاضراته فى الجيوبوليتكيا الألمانية، طلب من والش أن يعمل مستشارًا للقاضى روبرت هـ. جاكسون فى المحكمة العسكرية الدولية فى نورمبرج. حيث ساعد والش فى استجواب كارل هوسهوفر فى أكتوبر ١٩٤٥، وقدم اختبارًا معنويًا وأخلاقيًا لرودولف هيس وغيره. وفى ١٩٤٦ عين والش عضوًا فى اللجنة الاستشارية للرئيس الأمريكى المعنية بالتدريب العسكرى العام. وسافر والش إلى اليابان فى ١٩٤٧ لدراسة مسائل تعليمية ودينية للجزويت، حيث زار هيروشيما وقابل الجنرال دوجلاس ماك آرثر.

وأخيرا، استأنف والش منذ ١٩٤٨ أنشطته المناهضة للشيوعية فى واشنطن. ويقال إنه أثر على فكر السيناتور جوزيف ماكارثى ذى التعليم الجيزويتى، على عشاء

غير رسمى فى جورجتاون، حيث شجعه على شن حرب ضد "الشيوعيين المعروفين" فى الحكومة الأمريكية (Helberstam 1972:146-7) وإن كانت هذه العلاقة موضع خلاف (grosby 17978:47-50) ونشر والش " السلطة الكاملة : ملاحظات للتاريخ " فى ١٩٤٨عن الجيوبوليتكيا الألمانية والتهديد الجديد من الجيوبوليتكيا السوفيتية. وفى ١٩٥١ نشر والش " الإمبراطورية الكاملة: جذور وتقدم الشيوعية العالمية "، والذى خصصه لدراسة الجيوبوليتكيا السوفيتية وتهديدها للحضارة الغربية. وفى ١٩٥٢ احتفل بمناسبة مرور خمسين سنة على عضويته فى "جمعية اليسوع"، عانى بعدها من سكتة دماغية. ثم مات فى ١٩٥٦ .

لم تكن المسيرة الحياتية لوالش نمطية بالنسبة لجزويتى أمريكى. فأولاً،كان اهتمام والش بالجيوبوليتيكا أمراً غير عادى بالنسبة إلى قس كاثوليكى. حيث يتذكر والتر جليس – سكرتيره الشخصى من ١٩٤٤ إلى ١٩٥٠ – أن " نمط حياته المهنية وتفوقه كمعلق سياسى جعلاه جزويتيًا غير تقليدى فى عصره، حيث لم يسمع أحد عن عضو من رجال الدين الكاثوليك كان ناشطا سياسيا فى المجال العام " (Giles in Watkins 1990 : 6) وذلك باستثناء الأب تشارلز كوجلين الذى كانت رسائله الشهيرة عبر الإذاعة، خلال الفترة الممتدة من الكساد العظيم والحرب العالمية الثانية، مؤثرة جدا (kovel 1997) ولكن والش – على عكس كوجلين– لم يكن شعبيا ولا انعزاليا، ولكن كان دوليا نشأ فى دوائر نخبة واشنطن. ويتذكر جليس أن بعض الجزويت انتقدوا والش بسبب اهتماماته التى كانت دنيوية جدا (وهذه كانت تهمه توجه للجزويت فى الماضى). وكان هناك اعتقاد بأنه "يفتقر إلى نوع الروحانية والالتزام بالاهتمامات والأنشطة الدينية الصارمة التى كانت تعتبر مناسبة لقس كاثوليكى" (Watkins 1990: 6 ومقابلة شخصية فى١٩٩٩).

ثانيا، تجنب والش إلى حد بعيد الرسالة الاجتماعية السائدة للجزويت الأمريكيين فى النصف الأول من القرن العشرين، من أجل الرسالة الجيوبوليتيكية العالمية.

ومن المؤكد أن والش كان نتاج تلك الرسالة الاجتماعية التى أطلقها فى أواخر القرن التاسع عشر البابا ليو الثالث عشر من خلال توجيهاته المتعلقة بأخطار الرأسمالية والجاذبية الخطرة للاشتراكية بالنسبة لفقراء الحضر والطبقة العاملة، فأدى القساوسة الجزويت رسائل اجتماعية فى الأحياء التى تسكنها الطبقة العاملة المهاجرة فى الولايات المتحدة، وفى المجاورات المزدحمة فى بوسطن، وشيكاجو، ونيويورك (McDonough 1992) وبالمشاركة مع الكاثوليك الأيرلنديين والألمان والإيطاليين الفقراء، أقام الجزويت مدارس ثانوية، وبرامج خدمة اجتماعية، وجامعات، لتسهيل الحراك لأعلى مع ترسيخ العقيدة، ومواجهة نمو المشاعر الاشتراكية وتوجيه الأولاد الموهوبين إلى سلك رجال الدين. ولا شك فى أن هذه الرسالة الاجتماعية لم تكن منفصلة تماما عن الرسالة الجيوبوليتيكية الأكبر للكنيسة الكاثوليكية. ولكن تفصيلها اللاحق فى عهد البابا بيوس الحادى عشر (١٩٣١) قابله والش بحذر، حيث أظهر وعيه بعدم ملاءمة لغتها السلطوية – التى صاغها الإعجاب بايطاليا موسولينى – للسياق الأمريكى (McDonough 1992 : 65-75) فقد كانت " الرسالة الاجتماعية " لدى والش تتمثل فى المساعدة على تعليم الكادر المستقبلى من الدبلوماسيين الأمريكيين، وتقديم المشورة والمعلومات بشأن التهديد الذى تفرضه الشيوعية للنخبة الحاكمة الأمريكية، والتى تشكل "مجتمع جورجتاون ". وفى هذا المجال يستطيع إدعاء أنه يتبع "دى لويولا" - مؤسس جمعية اليسوع - فى مهمة محاباة القوى.

ثالثا، كانت "مدرسة الخدمة الأجنبية " فى "جامعة جورجتاون " منفصلة عن المؤسسات والممارسات التعليمية الجزويتية التقليدية. إذ كانت مدرسة مهنية منظمة كمؤسسة قومية غير طائفية للتعليم العالى. ومبدئيا، كانت تقع فى مبنى مدرسة القانون فى قلب واشنطن.

وكانت منفصلة مكانيا عن حرم جامعة جورجتاون. إلا أنه فى ١٩٣٢ انتقلت "المدرسة" إلى حرم "مرتفعات جورجتاون" (Tillman 1994 : vii) ويقول جليس إن بعض

الجزويت المؤثرين فى الجامعة خلال وجود والش تحملوا، ولكنهم لم يتقبلوا أبداً، "مدرسة الخدمة الأجنبية" بسبب اهتمامها الدنيوى وطبيعتها غير الدينية (Watkins 1990:7) وقد تعمد والش إرساء صورتها المهنية والعلمية لزيادة فعاليتها والانتظام فيها. وهنا كانت مواجهة شكوك الجزويت والطائفة الكاثوليكية بصفة عامة أحد مجالات الاهتمام، وذهب هذا القلق بالاسكتلندى رايت ماسونز فى ١٩٢٨ إلى تمويل "مدرسة الحكومة بجامعة جورج واشنطن" كمدرسة منافسة غير طائفية النهج، وقد أصبحت تعرف باسم مدرسة إيليوت للشئون الخارجية (Tillman 1994:17) ومع ذلك كان معظم الطلاب من الكاثوليك،وكان لزاما عليهم دراسة مادة دينية، واعتبرت تلك المادة تخصصا متجانسا خاصة عندما كانت المناقشات تدور حول البيسبول (مقابلة مع جليس فى ١٩٩٩). وكان الالتحاق قاصراً على الذكور فقط فى الأربعينيات، ثم سمح بالتحاق عدد قليل من الطالبات، فى ظل استنكار ورفض (Tillma 1994:5)

وبالرغم من أن موقف والش وصورته كانا غير عاديين نوعًا ما، إلا أن أنشطته وكتاباته كانت تتناسب تمامًا مع تاريخ وتقليد النظام الجزويتى. فهذا التاريخ والتقليد متنوع وانتقائى. وهو ليس تاريخا كليا لنفوذ سرى ومناورات خبيثة واعترافات خادعة. فهذه "الصورة السوداء" كانت أساسًا من اختراع العديد من الأعداء الذين واجهوا "جمعية اليسوع" منذ تأسيسها بقيادة ايجناتيوس دى لويولا فى-348 :Lacoure 1995) 1975) ونظراً لأنهم كانوا نظامًا عالميًا يدعو للطاعة المطلقة للبابوية، كان الجيزويت يتألفون من رجال من مختلف الثقافات والخلفيات، وكان تنظيمهم هرميًا وعسكريًا، إذ كان لويولا جنديًا قبل رحلته الشهيرة إلى الكنيسة وروما Lacauture1995; Mitchell) 1980) واستخدم عمداً استعارات عسكرية لوصف "جمعية اليسوع" – والاسم نفسه تقرير جرئ – والتى كانت مجتمعا نخبويا يرأسها جنرال، وكان أعضاؤها يعتبرون أنفسهم جنود اليسوع وحراس العقيدة الكاثوليكية الرومانية الحقة.

وبالرغم من تباين وتنوع تاريخ وتقاليد الجيزويت، إلا أن ذلك التاريخ وتلك التقاليد حصلتا على تماسك واندماج من قبل عدة مصالح وانشغالات بالغة التميز. فقد أصبح

الجيزويت بمثابة قوات الصدمة للثورة المضادة. ومثلوا جيش الكنيسة الكاثوليكية ونظموا قوة هجومية مضادة لمواجهة البروتستانتية والهرطقة. وكانت بيئتهم العملية محددة بسبب وجود عدو واضح يحتاج إلى المراقبة ثم المواجهة والقضاء عليه. وكان هدفهم يتمثل فى الدفاع عن العقيدة الصحيحة للمسيحية والدعوة لها، وتوسيع وتوحيد "مملكة الرب" على الأرض. وهكذا كانوا دعاة بالمعنى الأصلى للكلمة، ولتحقيق هذا الغرض، استخدموا مجموعة كبيرة من الأساليب التكتيكية للهداية، وكان أكثرها نجاحا إنشاء مؤسسات تعليم وتعلم حول العالم، وتوفير معلمين جيزويت مدربين جيدا لهذه المؤسسات. وكان الجيزويت مبتكرين فى أساليب الاتصال واستراتيجيات التربية. وكان لويولا يشجعهم على التفوق فى بعض المجالات. حيث ركزوا على النظام، والممارسات الروحية المنتظمة، والاستعداد الدقيق. وحاولوا تثبيت الأقوياء، ودعوة الحكام الأجانب، والتأثير عليهم من خلال العلم والتعلم. وكان هدفهم النهائى يتمثل فى تحرير العقل وتوجيه إرادة الأشخاص فى الاتجاه الصحيح روحيا.

وهكذا يمكن أن نضع الكتابات الجيوبوليتيكية للأب إدموند والش فى إطار هذا التقليد. وحتى نعرض نظرة والش للعالم، قمتُ بتصنيف كتاباته وأنشطته حول أربعة موضوعات أساسية تعتبر جوهرية بالنسبة لفلسفته الجيوبوليتيكية، وبالنسبة للتاريخ والتقليد الجيزويتى. ولكن لا مفر أن يكون التحليل موجزاً، وليس بوسع هذا التحليل أن ينصف السياق الفكرى والسياسى الواسع لأعمال والش. ومع ذلك، يقدم هذا التحليل مقدمة للجيوبوليتيكا الروحية عند والش، وآمل أن يقدم تفسيرا للأسباب التى ترفع من أهمية إشكالية العلاقة بين الجيوبوليتيكا والدين، والتى تستحق منا المزيد من البحث.

سقوط الإنسان فى العصر الحديث

عانت الكنيسة الكاثوليكية – مثل العديد من الأديان الأخرى – من علاقة صعبة ومتوترة مع الحداثة. حيث يرى ماك دونو (McDonough 1992 : xii) أن الجيزويت يركزون على التوتر بين الحداثة والتقليد، بصورة أكثر دقة من أية مجموعة كاثوليكية

أخرى. فمنذ أوائل القرن العشرين، كانت قيادة الكنيسة الكاثوليكية فى حرب مع العالم الحديث. حيث تقررت اللهجة السائدة فى الإعلانات البابوية التى أصدرها البابا بيوس العاشر الذى أدان " الأمريكانية " فى ١٨٩٩، واستنكر هرطقة الحداثة فى ١٩٠٧ . وكان الأب فلوديمير ليدوكوفسكى - الذى حكم الجمعية كمشرف عام من ١٩١٥ حتى وفاته فى ١٩٤٢- يتزعم العقيدة المناهضة للحداثة داخل الجيزويت. ونظرا لأنه كان ابن نبيل بولندى يعمل فى محكمة هابسبورج، فقد جسد المشاعر الرجعية لكاثوليكية النظام القديم (McDonough 1992 : 65 - 8) ولذلك كتب بعد انهيار إمبراطورية هابسبورج فى ١٩١٩ أن " كل شىء يتداعى فى المجتمع الحديث... فالمجتمع الحديث يشبه فى بؤسه شلل "بيتسايدا" البائس من حيث أنها لا تقوى على القيام من فراش مرضها (Ledochowski in Schmidt 1945 : 330) ولكن "الملحدين" - الذين يعصون الرب والدين - يعدون بأن العلم سيحل كل مشاكل الحياة، وسيصبح الموزع الكريم والحكيم للسعادة على أجيال البشرية المتعطشة للسعادة الكاملة. ومع ذلك ثبت أن العلم والدولة الإلهان مزيفان، حيث تعانى أرواح البشر بصورة متزايدة من الفراغ المرعب الناتج عن تآمر الحكومات لإبعاد الأجيال الحديثة عن المسيح وكنيسته" (Ledochowski in Schmidt 1945: 382)

وتتغلغل المشاعر المناهضة للحداثة لدى الأب إدموند والش فى كتاباته وممارساته. وذلك مثل الكثيرين من الجيوبوليتيكيين المشهورين فى النصف الأول من القرن العشرين - هالفورد ماكيندر، كارل هوسهوفر، وجورج كينان لاحقا (Stephanson 1989 -) حيث كان والش محافظا أصيلا يعتنق المثل الأعلى القائل " بسقوط الإنسان " (وهذه لغة أبوية طائشة، كما هو متوقع) فى المجتمع الحديث، بعد أن كان فى حالة الانسجام والوحدة العضوية السابقة (وهذا مفهوم مثالى نخبوى للماضى يتجاهل الاستغلال والعنف الهيكلى والكبت الطبقى الذى يغطى ما يسمى بالمجتمعات "المتجانسة "). وابتعادا عن جوانب عديدة لحداثة القرن العشرين، فسرت تلك الشخصيات الأحداث السياسية لعصرها بأنها انحطاط من عصر ذهبى سابق، عادة

ما يكوّن العصور الوسطى المثالية والعصور القديمة السابقة عليها. ولكن والش – على عكس الآخرين – منح هذه القصة لسقوط الإنسان مسحة دينية متميزة. حيث كان السقوط الأول للإنسان فى "جنة عدن". أما السقوط "الحديث" الثانى للإنسان فكان من القرن السادس عشر فصاعدا (Walsh 1947: 27) وكان مغزى قصة السقوط الحديث– الذى يعبر عنه بالتمرد والثورات– يتمثل فى قصة الإنسان الموحد المتوازن المتكامل خلال العصور الوسطى للمسيحية، ثم التردى فى حالة من التفكك والاختلال والانقسام، عندما فكر فى تجارب وإغراءات العصور الحديثة. فلم تكن المسيحية مجرد دين عند والش، ولكنها كانت حضارة عالمية ذات دستور معيارى للسلوك الأخلاقى ترجع أصوله إلى الإغريقية والرومانية (Walsh 1948: 190-5)

وكان تفسير والش يعتمد على علم الوجود الكاثوليكى المتميز. فحالة الإنسان عبارة عن صراع بين الطبيعة والحضارة، بين الطبيعة الحيوانية للإنسان وطبيعته الأفضل التى تقدمها المسيحية. ففى العقيدة الكاثوليكية ينعم الإنسان برحمة الرب، ولكنه مع ذلك يتمتع بحرية الإرادة، ويجب أن يكافح لإقامة حياة أخلاقية ويشق طريقه إلى الله. ويقول والش إن "الناس" :

"ولدوا أطفالا عاجزين يعتمدون على سلطة الكبار، ثم تقدموا إلى البلوغ ثم إلى القبور، فى ظل تفضيلات الإرادة الحرة، ويعملون بحسب اختلاف مستوى الذكاء والمواهب وضغط المصالح المتنوعة، ورؤية الجماعة، والتحامل السرى، والأوامر الأخلاقية، وكل ذلك يتطلب التنظيم حتى لا يتحول المجتمع إلى فوضى متعمدة" (Walsh 1948:78)

و يعتبر التنظيم والتوجيه الذى تقدمه الكنيسة ضروريا حتى يحقق الإنسان ذاته. فالإنسان مركب من مادة وروح وإرادة ، وجسد له غرائز، وعقل له فكر يتطلب التنظيم والتدريب المناسب. "و العناصر المادية فى طبيعتنا متكاملة تماما مع العناصر الروحية، بحيث يعتمد أداء كل منها على الآخر بصورة متبادلة، لدرجة أن الفصل المعملى بينهما

مستحيل نفسيا وخطير تجريبيا (Walsh 1948:177) وبالاعتراف بالاعتماد المتبادل الذى لا ينفصل بين المادة والروح، يمثل الجسد والعقل نقطة البداية لأية تربية إنسانية حقيقية. ويؤدى التركيز على أحد هذه العناصر وإهمال الباقى إلى وجود إنسان غير متوازن. وفى ذلك يقول والش:

إن العقل "يجب أن يوجه مسيرة الإنسان، وأن يحدد الفكر مسار كل التحركات، ولكن الحدس والاهتمام والحب والكراهية والإدراك الروحى والتسامح والإيمان والتقليد، كلها عناصر تخضع للريح والمد والجزر أى ان تتابعها واندفاعها يمكن أن يوتر من ينشد الكمال، ولكنه لا يفاجئ الواقعى ولا يصطدم بإنسانيتك الحقيقية. " وتكشف هذه الملاحظة عن تقليد موروث من علم الوجود الكاثوليكى، وفلسفة جزويتية متطورة فى التربية. ولا غرابة فى أن والش كان يعتقد أن التعليم الجيزويتى كان تعليما إنسانيا حقيقيا. فهو يعترف ويراعى الثنائية الفطرية للإنسان، ويزوده بالتفكير السليم والتوجيه الأخلاقى الواضح معا (Walsh 1948:178)

وهناك على الأقل أربع مراحل أو "مشاهد" مختلفة فى السقوط الحديث للإنسان عند والش. حيث يرتبط السقوط الأول "بالإصلاح" وانقسام المسيحية. إذ يدعى أن الثورة البروتستانتية التى بدأها لوثر "يجب أن تعتبر أسوأ مأساة داخلية فى أسرة الأمم المسيحية " (Walsh 1948:148) فانقسام المسيحية كان بمثابة بداية انقسام الإنسان. " فكما أن وحدة العالم المسيحى تحطمت فى تنظيمها الكنسى بسبب الانشقاقات الدينية فى القرن السادس عشر، كذلك تصدعت الوحدة الحقيقية للإنسان بسبب ما أسمته الأجيال اللاحقة خطأ بالعقلانية " (Walsh 1948:177) وكما هو متوقع، فإن كراهية والش الجيزويتى للوثر كانت قوية جدا. ومع ذلك، قادت هذه الكراهية والش إلى تقديم سلسلة واضحة من العلاقات والدعاوى، رأى فيها لوثر مدافعا عن الحكام الدنيويين والدولة. وقفز والش من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين وربط هتلر بلوثر. إذ يقول "إن آثار المنهج اللوثرى للسلطة الزمنية العليا لم تقتصر على الاستمرار

والتأثير على كل نسيج الحكومة فى شمال ألمانيا فقط، بل يمكن اكتشافها فى الحالة النفسية الخاصة للدكتاتوريات الألمانية بداية من الأمراء السفاحين فى "حرب الفلاحين" حتى فردريك العظيم وهتلر وهيملر. فهذا خط مستقيم " (Walsh 1948:196) وبعبارة أخرى، كان لوثر فى نظر والش شخصا قوض الجوانب الروحية فى ماقبل تدعيم الجوانب الدنيوية، حين عقد حلفا مع الدولة الزمنية التى أثبتت فى ألمانيا أنها حليف للشيطان وعدو للمسيح.

ويتمثل"المشهد" الثانى الواضح فى "التنوير" فى القرن الثامن عشر، ومادية القرن التاسع عشر، والطبيعية التى نتجت عنهما. ويقول إن " إضفاء الطابع الدنيوى على الثقافة الغربية، ونزع الطابع الروحى عن أشكالها المجتمعية، يمكن إرجاعه بدقة إلى تضافر الفكر التأملى والسياسى الذى انتشر فى نطاق واسع منذ ميكيافيللى وديكارت. (Walsh 1948:176) حيث كان ميكيافيللى يعتبر مؤشرا على نمو سياسة القوة فى القرن التاسع عشر، بينما قام ديكارت – بالرغم من أنه ظل مسيحيا – بنشر الوضعية والشك الخطير الذى وضع المبادئ والمعتقدات الموروثة موضع تساؤل. وعندما بدأ وضع المسيحية موضع التساؤل، بدأت الحضارة الغربية فى الانحراف. وكان والش يعتبر الثورة الفرنسية مثالا على التنوير غير المتوازن. حيث أظهر تكشفها التاريخى فساد الإنسانية، و تعجرف عقلانية التنوير، ومخاطر الفوضى الاجتماعية وحكم الغوغاء (Walsh 1948:175-6)

ويتمثل "المشهد" الثالث فى السقوط الحديث للإنسان فى الثورة الصناعية. ففى دراسته للتاريخ الأمريكى، يعترف والش بالمزايا والانجازات العظيمة التى تحققت فى الإنتاجية والتقدم المادى بسبب الآلات والطبيعة والميكانيكا والكيمياء الحديثة. ومع ذلك "استفاد جسد الإنسان أكثر مما استفادته روحة" (walsh1948:289) حيث أدت الثورة الصناعية مباشرة إلى رعب الحرب الشاملة فى القرن العشرين. فأصبحت التقنية والتقدم آلهة مزيفة. وفى ذلك يقول:

"ظهرت قيم زائفة فى العبادة العالمية للانجازات التقنية، وظهر ضعف فى النسيج

الأخلاقى نتيجة تحديث المسار الذى كانت الإنسانية تتقدم علية. فقد بشرت الثورة الصناعية بسيطرة الإنتاج، ولكنها قضت على انتاج الأعمال الفنية الإبداعية. صحيح أنها طورت انسجام كل أحاسيسنا لكنها قتلت إحساسنا بالانسجام"(Walsh1948:289)

لقد حل الإنتاج الآلى الكبير محل المهارة الحرفية الفردية، وضاع تقدير الإبداع الفردى لأساتذة العصور الوسطى مثل دانتى، ميلتون، مايكل أنجلو، شكسبير، الذين لم يؤلفوا باستخدام الضوء الكهربى، بل ألفوا فى ضوء شموع شحم الحيوان. إن الثورة الصناعية "زرعت روح الأشياء، ولكنها نزعت أشياء الروح". وقد أدى خيالها المادى غير الموجه وغير المستقر إلى "استبدادية هيجل، والوحشية الفكرية لنيتشه، وحقد كارل ماركس" وذلك على حساب "الإنسانية الملهمة للقديس فرانسيس الأسيسى، والتدابير الإلهية خلال موعظة الجبل" (Walsh 1948:290) وأنتجت طائرات "جورنج" التى استهلت نمط الحرب الشاملة التى دمرت روعة ومهارة الكاتدرائيات القوطية فى أوروبا.

وتمثلت الذروة الأخيرة للسقوط الحديث للإنسان فى عصر الحرب الشاملة والقوة الشاملة والإمبراطورية الشاملة " من المدهش أن والش لا يهتم كثيراً بمفهوم الشمولية الذى طوره كينان وغيره فى أواخر الأربعينيات، بالرغم من تشابه أفكاره.Pietz 1988 (Stephanson1989:57-63-4 وحسب تاريخ والش، فإن عصر الحرب الشاملة ظهر مفهومه لأول مرة عند الجنرال لودندورف فى مؤلفه المعروف باسم "الحرب الشاملة"، والذى تبناه هتلر، كما يفترض أنه تبنى الاستراتيجية العالمية عند هوسهوفر (Walsh 1947: 22) وتؤثر الحرب الآن على كل سكان الدول المختلفة، ولم تعد قادرة على التميز بين المحاربين وغير المحاربين. وأصبحت كل الموارد والتقنية فى الدولة توجه للتسلح والحرب. ومع ظهور القوات الجوية، فإن جبهة القتال:

"انتقلت إلى كل مدينة وضاحية وقرية... وهذه واحدة من أكبر النتائج الكارثية للانحطاط فى معنى القيم، والذى بدأ مع الثورة الصناعية وتصاعد مع المادية الشديدة للشيوعية والعلمانية المصلحية لفلسفة الدولة فى النازية" (walsh1951:246)

والسلطة الشاملة هى شكل الدولة الذى تحقق أولاً فى الاتحاد السوفيتى ثم على

يد هتلر والنازية. وتدير هذه السلطة دولة شمولية وتقنية حديثة، وأيدلوجية دنيوية تشبه الدين. ولابد أن يؤدى تراكم السلطة الشاملة لدى الدولة إلى توسع جيوبوليتيكى وثورة عالمية.

السلطة الشاملة والثورة العالمية

يتمثل النموذج الأعلى لذروة السقوط الحديث للإنسان عند والش فى الثورة البلشفية فى ١٩١٧ . حيث يرى أنها كانت حدثًا له أهمية تاريخية عالمية، فقد دفعته إلى تأليف كتابه الأول الذى وصفها فيه بأنها :

"ليست مجرد ثورة بالمعنى المقبول والمفهوم تاريخيًا – أى إعادة توزيع السلطة– ولكنها ثورة فى مجال الاقتصاد والدين والفن والأدب والعلم والتعليم، وكل الأنشطة الإنسانية الأخرى. فقد حاولت خلق نمط جديد من الإنسانية... وكانت أسلحتها مادية فلسفية، وأشد مدرسة فكرية راديكالية ظهرت على مسرح الإنسانية" **(Walsh1929: 6)**

وقد بالغ والش فى أهميتها إلى مستويات عليا بادعائه أنها كانت أهم حدث على مدار ألف سنة، وأنها ذات أهميه أكبر من "الإصلاح". وأعلن مرارا وتكرارا أنها " كانت أهم حدث منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية "، وكانت مقدمة لعصر جديد من ديانات الدولة العلمانية.وفى ذلك يقول:

"توحدت الانعكاسات الدولية للأيدلوجية الجديدة، والتحدى المنظم، والاضطرابات الاجتماعية المترتبة على الانقلاب البلشفى، لتساوى ظهور الدولة الشيوعية بسقوط الإمبراطورية الرومانية فى دليل الأحداث العالمية الهامة **(Walsh 1948: 258)**

لقد جاءت الثورة البلشفية تداعيا لظروف تاريخية سيئة وعرضية فى روسيا، ولكنها كانت أيضا عرضا من أعراض أزمة أكثر عمقا فى الحضارة والثقافة الغربية. وكانت البلشفية تطورا إجرائيا فى "أزمة ثقافية أعمق كانت تعذب المجتمع الغربى منذ الثورة الصناعية. فالبلشفية ليست الخطيئة الأصلية فى السقوط الحديث للإنسان "

(Walsh 1948 : 256) بل كانت نتيجة للتطور غير المتوازن للإنسان، وظهور"الإنسانية غير الروحية" التى كانت ناتجة عن شك ومادية " التنوير" (Walsh 1948:259) وكانت الشيوعية راديكالية لأنها أزالت الشرعية عن المسيحية وتحدت مفهومها عن الإنسان. وهكذا فإنها كانت دائما أكبر من مجرد تهديد جيوبوليتيكى لدى والش. لقد كانت تهديدا وجوديا.

ومن المثير للسخرية أن الطريقة التى اتبعها والش والجيزويت لفهم فحوى الشيوعية الملحدة أدت إلى صياغة مفهومها كدين جديد. فقد كانت عقيدة جديدة تخاطب قلوب وعقول الناس. وجعل والش هذا التشابه واضحا فى "سقوط الإمبراطورية الروسية"، حيث ذهب إلى القول:

"لقد جعل لينين الشيوعية دينا. وكان كارل ماركس بمثابة الإله بالنسبة لها، وكان "رأس المال" و"البيان الشيوعى"بمثابة الكتابات المنزلة - إنجيلها - وكان لينين رسولها المبشر..... وأدى هذا الثالوث البشرى إلى ظهور وانتشار عقيدة أدت انعكاساتها النفسية إلى طرح بديل دنيوى لتلك الغريزة وحاجة البشر الطبيعية لوحى إلهى. وبداية بعقيدة جوهرية واحدة- زائفة كما يعتقد معظم الناس- وضع رسل الشيوعية مجموعة من المبادئ التى تزودهم بأسلحة الدعاية اليومية"(Walsh 1929 :22)

أما بالنسبة إلى "جمعية اليسوع"، فقد كان التشابه بين الكفاح ضد البروتستانتية الإصلاحية والكفاح ضد الشيوعية واضحا. وفى خطاب "فى مكافحة الشيوعية" ربط القائد الأعلى للجيزويت فلاديمير ليدوكوفسكى بين الاثنين. فقد ظهرت "جمعية اليسوع" إلى الوجود فى وقت حرج بالنسبة للكنيسة. حيث كانت رسالتها الإلهية تتمثل فى وقف مد التمرد ضد الكنيسة. ولذلك كان يتساءل ببلاغة:

"ألا يبدو الأمر كما لو كان الخطر الحالى يتطلب دعوة جديدة لغيرتنا وكرامتنا كجنود للمسيح وكنيسته، أى دعوة لحمل السلاح ضد الهرطقة الكبرى فى عصرنا، والتى تعتبر أكثر خطورة من أية هرطقة فى الماضى؟ لأن الشيوعية ليست مجرد نظام فلسفى، أو نظرية مجردة تعتنقها مجموعات متناثرة من الناس، بل إنها قوة عالمية

منظمة بشدة، وهى تطبق بفاعلية الآن فى دول مختلفة وتؤدى إلى أضرار لا تحصى للدين والبشر" (Ledochowski in Schmidt1945: 907-8)

ويوجه خطاب ليدوكوفسكى الدعوة إلى كل أبرشية جيزويتية إلى تعيين مدير ولجنة لتنظيم أنشطة مكافحة الشيوعية فى المنطقة. ويقول إن المعلومات والوثائق المتعلقة بالشيوعية والشيوعيين يمكن الحصول عليها " من الأب والش بجامعة جورجتاون، فهو يملك مجموعة قيمة من الوثائق والكتب والمواد الأخرى المتعلقة بالشيوعية من حيث النظرية والتطبيق ". وكذلك كان المديرون المناهضون للشيوعية يستشيرون والش فى الخطوات العملية الواجب اتخاذها لضمان وحدة الإستراتجية. وقد كتب هذه الرسالة فى ١٩٣٤، أى بعد أن استولى النازيون (وليس الشيوعيون) على ألمانيا بسنة واحدة.

لقد كانت علاقة الكنيسة الكاثوليكية بالنازية موضع جدل تاريخى كبير، إذ كان البابا بيوس الثانى عشر صريحًا فى مدحه لفرانكو (الذى رحب بالجيزويت ومنحهم الامتيازات بعد انتصاره فى الحرب الأهلية) وسكت عن النازية والهولوكوست. وكان يقال إن الحكومة "الاشتراكية القومية"، مع هتلر وهيملر وجوبلز الذين تربوا على الايمان، كانت أشد الحكومات كاثوليكية فى المانيا (Mishell 1982:265) إذ درس هيملر تنظيم الجيزويت باستفاضة واعتبر القديسين (كنخبة دينية) المقابل النازى "لجمعية اليسوع". ومن الواضح أن هتلر كان يتندر بهوس هيملر الدينى، حيث وصفه بأنه " اجناتيوس لويولا الخاص بنا ". وكان يقال أيضًا إن ليدوكوفسكى كان مستعدًا لتنظيم التعاون بين مدارس الأحد والجيزويت ضد الشيوعية (Mitchell 1982:264)

ومن ناحية أخرى، لقى بعض الجيزويت حتفهم على أيدى النازيين. ويمكن القول إن والش لم يعترف أبدًا بالتناقص فى علاقة الكنيسة الكاثوليكية بالفاشية والنازية. إذ كان يرى أن النازية انتصارًا للطبيعة الملحدة، وتعبير عن العقلية الألمانية ("التى لم تتحول للمسيحية تمامًا") على التقليد المسيحى الألمانى (Walsh 1948:73) أما سعى هتلر إلى السلطة الشاملة :

فقد أصبح نتيجة منطقية فى ضوء ترسانة دعاوى القوة الشاملة التى نادى بها

طابور طويل من الفلاسفة الألمان المتزينين برداء أكاديمى، والكثير من الحالمين الباحثين عن تحقيق الخيالات البطولية فى "مذبح الشهداء". وفى الأساس كانت القضية عبارة عن وضع أودين (الإله الوثنى الجرمانى) ضد المسيح (Walsh 1948:73)

ويعتبر والش زعماء الكنيسة الكاثوليكية الألمانية أبطالا. "فلا توجد جماعة فى أوروبا أكثر شجاعة فى شجب الخطر الشديد للعنصرية من الكهنة الكاثوليك الألمان" وأضاف بطريقة بها تعجل وتجاوز "إنهم أكثر زعماء العقيدة البروتستانتية شجاعة فى ألمانيا " (Walsh1947:33) وبالرغم من أن القادة الكاثوليك الأفراد تكلموا ضد النازيين. إلا أن هذا الحكم – الذى يتجاهل تماما دور الشيوعيين فى تحدى النازية – يعتبر عاطفيا وليس تاريخيا.

و يتمثل الشىء الهام فى تفسير والش للنازية فى المساواة التى رسمها بينها وبين الشيوعية. فكلاهما عبارة عن فلسفتين للقوة الشاملة والثورة العالمية. إذ يقول (١٩٤٧:٣٦) "إن هذين المفهومين – الشيوعية والنازية– يشملان هدفا واحدا، هو "الثورة العالمية"...حيث يقبل كلاهما – كل بطريقته الخاصة– اعتقاد هتلر الذى صاغه فى كتابه "كفاحى" (الفصل الخامس، ص٤٤٠) بأن "الأحزاب السياسية تميل إلى التوافق، أما المفاهيم العالمية فلا. والأحزاب السياسية تعتد بالخصوم، أما المفاهيم العالمية فتعلن عصمتها." ومن الطريف أن والش لم يستخدم أبدا مفهوم "الفاشية الحمراء"، وهو الأداة التحليلية التى استخدمت فى أمريكا فى أوائل الحرب الباردة لتصوير شرور الفاشية على الاتحاد السوفيتى. إذ كان ستالين يعتبر بمثابة هتلر آخر، حسب هذا التصور. ويتمثل أحد الأسباب المنطقية لغياب هذا المفهوم عن كتابات والش فى أن الاتحاد السوفيتى كان يمثل دائما الخطر الأساس الطاغى عند والش. وبدلا من أن يكون الاتحاد السوفيتى نسخة من ألمانيا النازية، كانت ألمانيا النازية نسخة من الاتحاد السوفيتى عند والش. وكان هتلر عبارة عن ستالين آخر، وكانت ألمانيا "شيوعية خادعة" (أى أن الفاشية كانت حقيقة إحدى صور الشيوعية، وهذه عبارتى وليست

عبارة والش). ويؤيد هذا التفسير فقرات من عمل والش، حيث كان يعتبر النازية تهديدا عابرا للديمقراطية، بينما كان التهديد الحقيقى المستمر يأتى من الاتحاد السوفيتى. وفى خطاب وجهه فى ١٩٤٧إلى خريجى أكاديمية مكتب التحقيقات الفيدرالى فى واشنطن، ذكر والش أن:

"هتلر انتزع صولجان الثورة العالمية من الكرملين وارتدى رداءً مستعارا لحاكم مستبد شمولى. واختال بنفسه فترة قصيرة ثم مضى، فقد كان هو، كما كانت هى، مجرد جملة اعتراضية فى نص التاريخ. وقد انهارت امبراطوريته وعاد الصولجان ثانية إلى موسكو (Walsh 1947 in Watkins 1990 : 64) ومع أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات كان والش يركز على مدى توسع الإمبراطورية السوفيتية. ففى إحدى خطاباته العامة الأخيرة، أشار إلى الخريطة بطريقة رمزية، وبالأسلوب الشائع فى الجيوبوليتيكا غير النقدية، أخفى سياسته التفسيرية بإثارة النوعية الشفافة الواضحة "للحقائق على الخريطة" (ó Tuathail 1996) وفى ذلك يقول:

" دعونا ننظر إلى الحقائق إذا. فقد أدت سبع سنوات من الدراسة والغزو المخطط من السوفيت منذ١٩٤٥ إلى قيام إمبراطورية شيوعية جديدة. تعتبر الأكبر فى التاريخ المسجل. فحوالى٨٠٠ مليون إنسان يخضعون الآن- بصورة مباشرة أو غير مباشرة- لسيطرة الكرملين، ومع ذلك لا تبدو النهاية قريبة. وقد رأيت بعض هذه البانوراما يتكشف أمام عينى فى ١٩٤٥فى ألمانيا ثم فى الشرق الأقصى بعد ذلك، فقد تطورت مع بعد الرؤية وعمق التفكير والحكمة الجيوبوليتيكية (Walsh 1952 in Watkins 1990 : 134)

لقد عرف والش إمبراطورية شاملة من خلال المعايشة. وعلق قائلا: إن سبب إصراره غالبا على هذه الصفة الأخيرة - أن الإمبراطورية كانت كائنا واعيا ومخططا - يرجع إلى" أنه عمل فى مجال الجيوبوليتيكا لعدد من السنوات" (المرجع السابق:١٣٤). فكانت الجيوبوليتيكا المجال الذى تفوق فيه والش. وكانت مهمته مواجهة خططها الثورية العالمية.

الدعاية والتعليم

كانت الرسالة التأسيسية الجوهرية لجمعية اليسوع تتمثل فى"الدعوة إلى الإيمان بسلطة "الكلمة"، وبالممارسات الروحية، وأعمال الخير." وكان هناك تركيز شديد على" تعليم المسيحية للأطفال وغير المتعلمين" (Flton 1963 : 200-1) فمنذ البداية جمع الجيزويت بين الدعاية والتعليم فى رسالة واحدة. وهما مرتبطان بصورة طبيعية، إذ يتضمن كل منهما غزو مناطق جديدة - أراضى وثنيين وعقول غير متعلمة- من أجل عقيدة واحدة حقيقية. ومن خلال تكوين شبكة واسعة من المدارس والجامعات عبر العالم، كون الجيزويت نظاما للمؤسسات التعليمية يسهل التقدم والحراك الاجتماعى، بدون أن يكون له منافس فى القرن العشرين.

وكانت العقول الصغيرة مفتونة بالتعليم وكان يتم توجيهها للرب. وكان العلم والروحانية، والأدب والطقوس الدينية، بمثابة عناصر متلاحمة فى منهج موحد"متوازن". فكان التعليم يدرب العقل والروح، والفكر والوجدان. وكان يقال إن التعليم الجيزويتى يخرج رجالا لهم قدرات فكرية وصفات أخلاقية.

وكان مسار الأب إدموند والش جزء من إظهار هذه الرسالة الجيزويتية المزدوجة فى النصف الأول من القرن العشرين. ونتيجة لتورط أمريكا فى الحرب العلمية الأولى، كانت هناك حاجة مدركة ملحة فى الولايات المتحدة للتعليم فى مجال العلاقات الدولية والشئون العلمية. ويبدو أن فكرة تأسيس "مدرسة الخدمة الأجنبية" بجامعة جورجتاون نشأت مع الأب جون كريدان الجيزويتى، الذى كان فى ذلك الوقت رئيس الجامعة. ولكن كريدان فوض المسئولية عن المشروع إلى والش الذى نظم منهج الدراسات وفتح المدرسة فى ١٩١٩ أمام ٦٢ طالبا جديدا. وفى خطاب الافتتاح، أكد والش أن هذه التجربة التعليمية ستقدم تدريبا فنيا يعتمد على تعليم واسع ومتفتح، يجمع بين أفضل عناصر التقاليد الثقافية العريقة مع مناخ الفردية المنشط، الذى يميز مؤسستنا التعليمية فى الولايات المتحدة، وكانت الأفكار الجيزويتية التقليدية عن الرسالة

والمسئولية والخدمة تأخذ تعبيرا دنيوياً اسمياً. حيث كانت "الرسالة العليا" للمدرسة تتمثل فى جعل الناس يدركون المسئوليات التى يتحملونها فى الحياة فى الخدمة الأجنبية (Walsh 1919 in Gallagher 1962:202) ومع ذلك كان الغرض الدنيوى المزعوم للمدرسة - تدريب الدبلوماسيين ومسئولى التجارة الدولية المستقبليين - موضوعاً فى إطار متطلبات أخلاقية معينة من الطلاب. فكان الالتزام " بمبادئ القانون الأخلاقى متوقعًا ومطلوباً من كل طالب. وكان " الفشل فى هذا المجال مبرراً لرفض منح الشهادة، أو الدرجة، أو التعليق، أو حتى الطرد. أى أن الكفاءة فى الدراسات بدون التمتع بالخصائص والسلوك الأخلاقيين لن تجعل من حق الطالب الحصول على شهادة أو درجة "(Walsh 1919 in Gallagher 1962:202)

ومثل ماكنيدر الذى أراد تشجيع الطلاب الانجليز على التفكير الامبريالى، ومثل هوسهوفر الذى أراد تشجيع الطلاب الألمان على " التفكير فى القارات"، كان لدى والش أجندته التعليمية الخاصة التى ترتبط بشدة بأجندته السياسة وبأجندته الدينية فى هذه الحالة المحددة (ó Tuathail، Dalby and Routledge 1998). وكانت الممارسة الجيزويتية لسداد الرأى وحسن التمييز جوهرية فى منهجه التربوى. فالمرء يتعلم بمعرفة ثقافة أعدائه وحسن تمييز فلسفتهم وأساليبهم. ثم يطور المرء إستراتيجية مضادة لإلغاء عقيدتهم. وكما واجه الجيزويت الأوائل مارتن لوثر والبروتستانتية بدراسة إدعاءاتهم أولا، ثم إعداد ردود عقائدية دقيقة على هذه الإدعاءات، كذلك كان طلاب الخدمة الأجنبية يحتاجون إلى مواجهة الأيديولوجيات والأحقاد المهددة فى ذلك الوقت، ودراسة تعبيراتها، والتدقيق فى تطبيقاتها، ثم توحيد الصفوف ضدها. وقد دفع هذا الأسلوب والش إلى البحث عما كان يعتبره الوثائق الأساسية والتعبيرات الفلسفية العملية للعقائد المهددة. فحاول تحديد "الآباء الروحيين" لهذه العقائد ونصوصها "الإنجيلية". وكان منجذباً بشدة إلى الوثائق ذات القيمة التنبؤية بالنسبة للإستراتيجية الكبرى. ثم حاول والش أن يمعن النظر فى الهدف الرئيسى من العقيدة، وتنظيم حملات للدعاية المضادة.

وكما هو متوقع، كان الاهتمام الرئيس لدى والش يتمثل فى البلشفية والفلسفة الماركسية- اللينينية. حيث يصف والش فى"تصدير" كتابه "سقوط الإمبراطورية الروسية" هدفه بأنه "تقديم التطور والفهم اللازمين إذا أردنا تجنب الأخطاء الشائعة التى تروجها الدعاية- المدفوعة أو غير المدفوعة- وتصحيح زيف التفكير المنحرف، والحديث الأكثر انحرافا الذى يتورط فيه كتاب المذكرات." (Walsh 1929:vii) حيث تعرض لينين وزملاؤه من زعماء الشيوعية للفحص النفسى على النمط الجيزويتى فى هذا الكتاب. فكان لينين رجلا لديه "مخزون ضخم من الكراهية"، وأصبح عقله كتابا مغلقا لا يوجد به سوى ثلاث أفكار: روسيا، الثورة، والعالم على نار-219 :Walsh 1929) (20وقام والش فى عمله الأخير بتحليل الخطة السوفيتية الخمسية الأخيرة فى أواخر عشرينات القرن العشرين على أمل أن تكون "الوقفة الأخيرة" (من وجهة نظره) Walsh) (1931 وناقش فى محاضراته فى جورجتاون، وخطبه العامة، وأعماله المنشورة، فلسفة المادية الجدلية والماركسية. واحتوى كتاب الإمبراطورية الشاملة(١٩٥١) على ملحق للاقتباسات والتعاليم الشيوعية التى أشار إليها بأنها "مخطوطات شيوعية"Walsh) (1951:268 وناقش تطبيق الفلسفات الميكيافيللية والمادية فى ممارسات الاتحاد السوفيتى والأحزاب الشيوعية باستفاضة. وأطال والش فى تحذير قادته من أساليب التغلغل والدعاية التى يستخدمها الشيوعيون، وأساليب السياسة الخارجية المتنوعة التى يمارسها الاتحاد السوفيتى لتحقيق أغراضه .(Walsh 1948:247-79;1951:85-165)

وبدأ والش فى نهاية الثلاثينات متابعة كتابات كارل هوسهوفر والمدرسة الألمانية فى الجيوبوليتيكا، وذلك بتأثير الجغرافى البرتغالى د. كوتينو الذى عينه والش فى التدريس فى مدرسة الخدمة الأجنبية. حيث كان كوتينو صديقا لهوسهوفر، وكان- هو وليس والش- الذى بدأ بتدريس مناهج فى"الجغرافيا السياسية" و"الجيوبوليتيكا" فى جورجتاون. ومع ذلك، أصبح والش أكثر اهتماما بهذا الموضوع الجديد "الجيوبوليتيكا"، وقدم عددا من المحاضرات عن الجيوبوليتيكا الألمانية فى ١٩٤١(المصدر: مقابلة مع جليس فى١٩٩٩). ويصف والش نفسه فى كتاب "القوة الشاملة" (٩:١٩٤٨) بأنه كرس

عشرين سنة من"الدراسة المتعمقة" لأنشطة هوسهوفر. إذ كان والش- مثل آخرين كثيرين قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية- يعتقد أن أفكار هوسهوفر كانت تمثل أفكار هتلر والسياسة الخارجية النازية. فكان هوسهوفر يعتبر"العقل المدبر" لهتلر (óTuathail 1996:111-40 ; Takeuchi، (Walsh 1947:21-6). وحتى فى ١٩٤٨ بعد أن قابل هوسهوفر، وبعد أن قرر الجيش الأمريكى أنه لم يكن هاما بصفة خاصة للدولة النازية، ولا قريبا من هتلر، كان والش يميل إلى المبالغة فى تأثير هوسهوفر وفى آرائه فيه. فلم تكن العلاقة بين "بيانات هوسهوفر الأكاديمية والبرنامج النازى لتحقيق القوة الشاملة فى أوروبا واضحة للعالم". ولكن والش كان قد استنبط هذه العلاقة قبل ذلك بعقد من الزمان. وبعد ١٩٣٩، كان لا يمكن مواصلة إخفاء العلاقة بين السبب والأثر، حيث حدث غزو تلو الآخر حسب النمط الواسع الذى كان واضحا وصريحا فى كتابات وتعاليم الجيوبوليتيكى العظيم" (Walsh 1948:10)

و مع ذلك، كانت المشكلة تتمثل فى أنه لم تكن هناك علاقة قوية ولا نمط واسع. إذ إن تأثير هوسهوفر فيما كان يوصف "بالدكتاتورية الضعيفة" لهتلر كان هامشيا قبل الحرب ومعدوما تماما أثناءها. واعترض والش على الحكم بعدم إعدام هوسهوفر لأنه "لم يأخذ فى الحسبان الدور المباشر والمؤثر الذى لعبه هوسهوفر شخصيا لعدة سنوات فى الدوائر الداخلية للحزب"، ولأنه لم "يصور تحفيزه القوى وأنشطته الخاصة فى تبرير اعتداءات هتلر السياسية والعسكرية" (Walsh 1948:12) ومع ذلك يمثل هذا الوصف مجرد صيغة باهتة- كما يعترض والش نفسه- للحجج التى قدمها هو بنفسه وأحد زملائه قبل الذهاب إلى ألمانيا لاستجواب هوسهوفر، واستكشاف تأثيره. بل إن هذه التهم بالغت فى أهمية دور هوسهوفر.

أما الطريف فى كل هذا فهو ما يكشفه عن طبيعة ودقة أسلوب والش فى التمحيص. فكان والش يميل إلى العثور على أنبياء وقادة، وعلى مؤامرات فى التاريخ، وعلى أنبياء أصحاب تصور لخطط لثورات عالمية وحركات راديكالية باستراتيجيات

واضحة لتحقيق تلك الخطط. وكانت النازية والشيوعية من بين تلك العقائد والمشروعات الثورية. وكانت المسيحية تعارض كل هذا. وكان والش يجد صعوبة فى الاعتراف بالصدفة وعدم الحتمية فى التاريخ. إذ كان يرى أن التاريخ له معنى عميق دائما، أى كشف الصراع بين المتناقضات المجردة.

وعبر التاريخ خاضت المسيحية معارك ضد الإلحاد، وخاضت الرومانية معارك ضد المادية الجامدة، وخاضت الديمقراطية معارك ضد الشمولية، وخاضت الحرية معارك ضد الإمبراطورية (Walsh 1948:102)

ولا شك أن هذه هى المصطلحات التى كان يجب استخدامها لوصف الصراع الجيوبوليتيكى للولايات المتحدة ضد الاتحاد السوفيتي. فمثل الكثيرين من جيوبوليتيكيى الحرب الباردة الأمريكيين، كان والش يعتبر الاتحاد السوفيتى وريثا لاندفاع الروسى الشديد نحو التوسع (Walsh 1948:268) فهناك وثيقة يقال إنها الشهادة والوصية الأخيرة لبطرس الأكبر فى ١٧٥٧، اعتبرها والش نصا مقدسا للجيوبوليتيكا الروسية والسوفيتية. ويدعى والش فى كتاب "القوة الشاملة" أنه "مهما كانت الشكوك التى قد تدور حول مصداقية هذه الوثيقة... فلا يمكن أن يكون هناك شك فى قيمتها التنبؤية. ولكن الحكومة الروسية (هكذا) منذ ١٩٣٩- كحقيقة مسجلة- كانت تتبع نمط بطرس بإخلاص شديد" (Walsh 1948:270) وقد أرغم والش هذه الحقيقة على أن تقول أكثر مما تحتمل. فبعد بضع سنوات، أكد والش فى كتاب "الإمبراطورية الشاملة" تمسكه بهذه الوثيقة، حيث وضعها كملحق لكتابه، وبينما صرح بأنها يمكن ألا تكون حقيقية إلا أنها "تتمتع بقيمة ذاتية عظيمة، لأنها تجسد مبادئ العمل التى اتبعتها روسيا بصورة سيئة خلال السنوات المائة الأخيرة، مع بعض التعديلات فى التوقيت والظروف، وتغيرات التوازنات الأوروبية، التى كانت ضرورية (Walsh 1951: 261)

وتعكس حجج والش "منهج ترومان" وتفصيل جورج كينان لسياسة الاحتواء. "فالخطوط مرسومة لصراع أعمق بين الشمولية وحرية الروح، بين فلسفتين متناقضتين

للحياة لم يعد إخفاؤهما ممكنا.....و[روسيا [لا يمكن أن تظل ساكنة لأنها مبشرة العالم الشيوعى" (Walsh1948:318) ويجب مقاومة جهودها فى نشر الثورة " بسياسة مضادة مناسبة فى كل موقع يتضح فيه التآمر " (Walsh 1948:329) ويستحيل فصل التفسير الجيوبوليتيكى عن التفسير الدينى عند والش، لأن الحرب الباردة- كما أشار فى خطابه الأخير بنادى جورجتاون، بمناسبة الذكرى الخمسين لانضمامه إلى "جمعية اليسوع" - "عبارة عن صراع بين نقيضين أخلاقيين كبيرين"(Walsh 1952 in Gallagh-er 1962 :142) والصراع بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ليس مجرد صراع الغرب ضد الشرق، ولكنه صراع بين المسيح وكارل ماركس، وبين العهد الجديد والبيان الشيوعى. فالجيوبوليتيكا ليست سياسة القوة الجغرافية، بل إنها صراع روحى دائم.

الجندى ورجل الدين

يقع توصيف النظام النوعى الذى يلتزم به الجيزويت خارج نطاق مهمة هذا الفصل. ومع ذلك، يتطلب أى توصيف لهذه الإشكالية دراسة وتحليل شخصية جندى الرب البطولى. فكما ذكرنا سلفا، تأسست جمعية اليسوع على يد جندى سابق نقل تدريبه العسكرى إلى الحياة الدينية. وكان الجيزويت منظمين كنخبة دينية تلتزم بالطاعة المطلقة لقائدها الأعلى والبابا. وبالنسبة للمراهقين من شباب الكاثوليك المنضم إلى الجزويت، والذى كان عليهم أن يقبلوا نظاما ثقافيا جيزويتيا يكبت النشاط الجنسى، فلا شك فى أن هذا "النظام" قدم مسارا واضحا وبطوليا للعزوبية طوال الحياة. إذ أدرك الجزويت- مثل الجنود- صورتهم الذاتية بعيدا عن عالم النساء، فكانوا يجاهدون فى قاعات الدرس، وفى المجال العام، وعلى الحدود البعيدة للنظام البطريركى للكنيسة. وتبنى الجيزويت نمط ذكورة استطاع أن يثبت بطولته كما أثبت أمانه فى نفس الوقت، وأن يكون صورة ذاتية ذكورية قوية، بينما استطاع فى نفس الوقت تجنب الحرج الناتج عن مناقشة عالم النساء. فالنساء مصدر خطر، لدرجة أن ليدوكوفسكى كتب خطابين للتعليمات فى موضوع" فى تجنب الحوارات الطويلة مع النساء" (١٩١٨) و"فى التحفظ فى التعامل مع النساء" (١٩٢٠) (Schmidt 1945)

وبينما يمكن المبالغة فى موضوع الثقافة العسكرية لجمعية اليسوع، كانت هناك صلة تاريخية عميقة بين الجيزويت ومؤسسات الدولة العسكرية. إذ كان الجيزويت عسكريين متدينين، مما دفعهم إلى مساندة العسكريين والمؤسسة العسكرية للدولة بفاعلية كوسيلة لتحقيق هدفهم. ويمكن أن نرى هذا التداخل بين المجال الروحى والمؤسسة العسكرية للدولة فى مسار الأب والش. والشيء الواضح أيضا- وإن كان ذلك يحتاج لمزيد من البحث- هو تطبيق نمط جيزويتى معين من الذكورية العسكرية التى تؤدى إلى كراهية التوفيق الدبلوماسى عند والش، والانجذاب الخطير إلى الأشكال الأكثر غموضا من عسكرية الحرب الباردة.

وقد كان للأب والش طوال حياته علاقات اجتماعية ومؤسسيه عديدة مع المؤسسة العسكرية الأمريكية. فعقب حصوله على ماجستير فى الفنون من كلية وودستوك، ميريلاند، أصبح عضوا فى لجنة خاصة فى وزارة الحربية لإدارة " فيلق تدريب جيش الطلاب" (SATC) وكان هذا بداية ارتباط طويل بين والش والجيش الأمريكي وبرامجه التدريبية. وباعتباره "خبيرا" فى الجيوبوليتيكا، كان يحاضر بانتظام فى فروع مختلفة من الجيش الأمريكى فى واشنطن، وفورت ليفنوورث بولاية كانساس، عن المخاطر الأمنية والجوانب الروحية والجيوبوليتيكا. ونظرا لكونه شخصية بارزة على الساحة الاجتماعية فى واشنطن، كانت له علاقات طيبة مع قيادة البنتاجون، خاصة مع الجنرال دوجلاس ماك آرثر، كما يبدو. وفى ١٩٤٥ خلع والش زى القس وارتدى زى ضابط جيش أمريكى للخدمة فى نورمبرج، ويبدو أنه كان يطمح كثيرا للحصول على هذا المنصب (المصدر: مقابلة مع جيلس فى ١٩٩٩). وعندما كان يحاضر فى الكلية الحربية الصناعية التابعة للقوات المسلحة فى أغسطس١٩٥٨، تذكر محاضراته فى نفس المكان قبل عقود، خاصة لنقيب صغير اسمه أيزنهاور (Watkins 1990: 130) وبعد وفاة والش، تذكر أيزنهاور " الميزة النادرة" التى حققها مرة من استماعه لـ "المحاضرة العظيمة" التى ألقاها والش عن "التهديد المتزايد للشيوعية" (أيزنهاور، مقتبس فى Gallagher 1962:247).

وفى عشاء احتفاله الذهبى فى ١٩٥٢ - الذى حضره مع آخرين الجنرال لاوتون كولينز، رئس أركان الجيش الأمريكى - عرض والش رؤية نادرة لكيفية تأثير تدريبه وخلفيته الجيزويتية على موقفه من الحياة :

"إننى أشكر التكوين المنظم والصبور "لنظامى" الذى أسسه جندى منذ أكثر من أربعة قرون، والذى علمنى وضع الأشياء المهمة أولاً، خاصةً فيما يتعلق بعدم اعتبار أى إنسان ملائمًا للقيادة ما لم يتعلم الطاعة أولاً. فهو يفرض على كل أعضائه الالتزام بتقدير كل تحدى فى الحياة وكل مخاطرة بالموت على مقاييس الخلود، وإجراء اختبار حاسم بين البدائل، ثم الدفاع عن القضية بكل الوسائل تحت قيادة موحدة"(Walsh 1952 in Gallagher 1962:243)

وقد كانت حياة الجيزويت بالنسبة لوالش حياة حرب روحية. وقد يبدو الاتجاه العسكرى الحازم فى الحياة متعارضًا مع وضع والش كوصى على " مدرسة الخدمة الأجنبية " ، فهى مؤسسة تدرب مجتمعًا من الدبلوماسيين وليس الجنود. ولا شك فى أن الدبلوماسية تحتاج إلى النظام والطاعة، ولكنها تتطلب أيضًا القدرة على الحوار والانفتاح على الآخرين. أما فى عالم والش، فكان وزن الأحكام الأبدية يسحق حوار الدبلوماسية. إذ كان الاتحاد السوفيتى عدوًا أخلاقيًا دائمًا للولايات المتحدة، وبالتالى كان والش فى حالة حرب دائمة معه. وكان والش يعتبر الدبلوماسية بمثابة شن حرب بوسائل أخرى. وربما يفسر هذا الاتجاه عدم نجاحه كدبلوماسى بابوى فى الاتحاد السوفيتى بين عامى ١٩٢٢ و١٩٢٣ . ومن الواضح أن البلاشفة وجدوه "موضع اعتراض، ومتغطرسا ويميل إلى صنع فضيحة كبرى من كل قضية صغيرة" (Fisher1930:522) وفى النهاية خرج والش من موقعه وتوقفت جهود الإغاثة الأمريكية. (واعترض والش على وصف فيشر له، ووصفه هو بأنه "داعية" موالى للروس، انظر (Walsh193) فمن المثير للسخرية أن نجد الوصى على مدرسة الخدمة الأجنبية دبلوماسيًا ضعيفًا ومعارضًا فلسفيًا للدبلوماسية. ولكن رفض والش لمنح الاتحاد

السوفيتى الاعتراف والوضع الدبلوماسى لم يكن غير عادى فى ذلك الوقت. ففى ١٩٣٣ فقط، اعترف فرانكلين روزفلت أخيراً بالاتحاد السوفيتى وحركته الشيوعية التى عارضها والش بشدة، وأثارت احتجاجات كثيرة من الكاثوليك الأمريكية وغيرهم، كما ذكرنا سلفاً.

ولم يتخل والش أبداً عن حربه الدينية ضد الشيوعية والاتحاد السوفيتى. وفى مراحله المتأخرة دفعته غيرته إلى الارتباط بشخصيات مثيرة للجدل. ويعتبر اتهام والش بالتشجيع لحملة جوزيف ماكارثى ضد الشيوعية فى الولايات المتحدة محل خلاف، نتيجة مقال صحفى كتبه درو بيرسون، وهو كاتب سياسى شهير. فمن المؤكد أنهما تناولا العشاء مع آخرين فى السابع من يناير سنة ١٩٥٠ فى واشنطن قبل أن يبدأ ماكارثى فى إعداد تهمه، وهو الاجتماع الذى يدور حوله اتهام بيرسون. إذ يذهب Crosby - ١٩٧٨:٥١ فى تبرئته والش من أية صلة مباشرة بالمكارثية- أنه بينما "يظهر والش اهتماما مدهشا (بل يمكن القول إنه "هوس") بخطر الشيوعية الخارجية"، "إلا أنه لم يتكلم أبدا عن مسألة التدمير". ومع ذلك، نجد أن كروسبى-وهو جيزويتى أيضا - لم يذكر أبدا توجيه ليدوكوفسكى فى ١٩٣٤"فى مواجهة الشيوعية" الذى عبر عن فكرة شن حملة منسقة ضد التأثير المدمر "للهرطقة الكبرى" للشيوعية. والأهم من ذلك أنه تجاهل أجزاء كبيرة من أعمال والش التى يتساءل فيها أسئلة تحقيقية مدفوعة بالتآمرية مثل: ما الذى يجعل من شخص أمريكى فى وضع مريح- قد يكون مليونيرا، أو موظفا حكوميا، أو قائدا عماليا مرتفع الدخل، أو محاميا، أو مستشارا مدنيا- شيوعيا أو متعاطفا مع الشيوعية؟ (Walsh1951:101) وكذلك تجاهل بيانات مثل : "اليوم، إذا كان السيد ادجار هوفر على صواب، سيكون هناك حوالى ٥٠٠,٠٠٠ جون ريدز[خريج هارفارد العبقرى المخطئ الذى يدافع عن لينين" [يمشون فى شوارع أمريكا (Walsh 1951:103)

ومن الواضح أن والش كان يميل مع الأقوياء الأخريين إلى رؤية المؤامرات والمتآمرين الشيوعيين فى أنحاء البلاد. ولكن فكرة أن والش كان "الأب الفكرى"

للمكارثية مبالغ فيها، وهى بلا شك نتيجة جزئية لميل طويل الأجل لرؤية التأثير السلبى للجيزويت على السياسة. فلم يكن والش سعيداً بارتباطه بماكارثى، لأن ذلك يهدد بتدمير الصورة التى رسمها لمدرسة الخدمة الأجنبية. لذلك رفض الرد علانية على تهمة بيرسون، ولكنه جعل الجميع يعرفون أنه يعتبر بيرسون "كاذباً" (Tillman 1994:32) فقد تذكر سكرتيره والتر جيلس أنه رفض اتصالا هاتفياً مع السيناتور ماكارثى، وأن والش عبر عن قلقه من المكارثية لاحقاً بعد سماعة عن تأثيرها على معنويات وزارة الخارجية من طلابه السابقين (المصدر: مقابلة مع جيلس فى ١٩٩٩). وأخيراً فإن كراهية والش الدينية للاتحاد السوفيتى دفعته لاتخاذ مواقف معينة كانت مدهشة لكونه قساً كاثوليكياً. فقد كان والش مؤيداً متحمساً لعسكرية الحرب الباردة، وكان يمدح كثيراً بناء أول غواصة بالطاقة النووية للبحرية الأمريكية وحاملات الطائرات

العملاقة (Walsh 1952 in Watkains 1995) وكان يرى أن أمريكا، باعتبارها أقوى قلعة للحضارة المسيحية، يجب أن تبقى يقظة ومسلحة جيداً. وعندما كان يخاطب خريجى مكتب التحقيقات الفدرالى فى ١٩٤٧، أعلن أنه لم يحدث من قبل أن كان مصير الإنسانية فى "حاجة كبيرة إلى عقول متفتحة وأيدى مستعدة، من قبل أولئك الذين يسيرون بتواضع أمام الله، ولكن بنادقهم يقظة" (Watkins 1990:68-9) وتمثلت أشد مواقف والش عسكرية فى تبريره لقيام الولايات المتحدة بالضربة الأولى النووية الاستباقية ضد الاتحاد السوفيتى. حيث كتب بعد اندلاع حرب شبه الجزيرة الكورية– التى اعتبرها "المواجهة الأخيرة" بين "مركزين عظيمين للقوة العالمية، والتى كانت طبيعتها الأساسية" والمتناقضة معروفة للسوفيت منذ عقود– قائلاً "إن كل الدول كانت ملتزمة بحماية شعوبها من الهجوم (Walsh 1950 in Watkins 1940:145)

وكانت الهجمات الاستباقية مبررة أخلاقياً. وعلى سبيل المثال، كان يحق للولايات المتحدة اعتراض وتدمير الطائرات اليابانية التى هاجمت بيرل هاربر. وفى حالة وجود "خدعة سوفيتية فى مكان بعيد من أسيا أو الشرق الأوسط"، يجب على نظام الدفاع

الأمريكى أن يركز اهتمامه على القطاع الشمالى الغربى والقطاع القطبى متوقعًا هجوما مفاجئا غادرا (Watkins 1990:149) فإذا كان لدى الحكومة الأمريكية "سبب قوى للاعتقاد (أى أنه لديها يقين أخلاقى)" بأن هناك تخطيطًا للقيام بهجوم مفاجئ، فإن الرئيس ترومان يحق له "اتخاذ الإجراءات المناسبة لهذا الخطر" بما فى ذلك استخدام القنابل الذرية (١٩٩٠:١٩٤-٥٠). وبالرغم من أن النتائج ستكون مأساوية ومرعبة، إلا أنه لن يكون هناك انعدام أخلاق فى اختيار الحكومة الأمريكية لأخف الضررين. وبرر والش القوة العسكرية المطلقة بالإشارة إلى أنه "حتى المسيح نفسه لم يترفع عن إمساك السوط وطرد المهرطقين خارج المعبد" (Watkins 1990:150) وعندما كتب عن موضوع القنبلة الذرية والضمير المسيحى فى كتابه "الإمبراطورية الشاملة"، فإنه أنهى كتابه بالعبارة المشئومة نوعا ما: "ليس الجدل حول ما إذا كنا نستطيع القيام بالأعمال اللازمة للدفاع عن الحضارة المسيحية، ولكن هل نستطيع تحمل عدم القيام بها ؟ (Walsh 1951:259)

خاتمة : الدين والجيوبوليتيكا

كان هذا الفصل مجرد تعريف للأب إدموند والش والجيزويتية المناهضة للشيوعية. حيث ركزتُ فيه على تقديم صورة لتفكير والش الجيوبوليتيكى، والسياق الأوسع الذى عمل فيه. ولكن لا تزال هناك حاجة إلى المزيد من البحث فى العلاقات والقضايا التى استعرضناها فى هذا الفصل. فمن الواضح أن العلاقة بين الدين والجيوبوليتيكا تمثل إشكالية هامة فى الدراسات الجيوبوليتيكية النقدية. ويجب عند تناول تقاليد الجيوبوليتيكا دراسة واستكشاف العلاقات المتشابكة بين الجيوبوليتيكا والدين. فالجيوبوليتيكا بعيدة عن أن تكون علما أو ممارسة علمانية.

ولا يزال الدين والجيوبوليتيكا متشابكين بطرق قد نعرفها ونعترف بها أحيانا، ولكن قد لا نعرفها ولا نعترف بها فى أحيان أخرى. حيث يعرض الكثير من الصراعات العالمية المعاصرة فى صورة دينية غالبا، مثل صراعات البوسنة وشمال أيرلندا، والصراع العربى الإسرائيلى. ويحدد الخطاب الأمنى الغربى التهديدات عادة بمصطلحات دينية، خاصة موقفه من الأصولية الإسلامية(Esposito 1992 ; Huntington 1996) وينسب إلى بابوية يوحنا بولس الثانى المساعدة على بداية سقوط الشيوعية فى أوروبا الشرقية، ويأمل كثيرون فى أن يكون لها نفس الأثر فى كوبا(Bernstien and Politi 1996) وأحيانا تحظى العقيدة الدينية لقادة غربيين معينين مثل جيمى كارتر أو رونالد ريجان بالاعتراف كعنصر هام فى منهجهم وفلسفتهم الجيوبوليتيكية بالنسبة إلى الأزمات والمشاكل العالمية. ومع ذلك، نجد أنه بالرغم من أن "التقليد اليهودى المسيحى" السائد قد أثر على ممارسات السياسة الخارجية الغربية لبعض الوقت، إلا أنه نادرا ما يتم الاعتراف بتأثير الدين على كيفية تحديد مفاهيم ومناهج الولايات المتحدة وحلفائها

الغربيين تجاه العالم. ففى الواقع يوجد لدى البعض تصور بأن المنهج الغربى تجاه العالم قد تجاهل الدين تماما وأصبح أكثر علمانية. ولكن الغرب يحتاج إلى بداية الاعتراف بالدين " كبعد مفقود فى فن الحكم ".

وفى كتاب بعنوان "الدين : البعد المفقود فى فن الحكم "حررته شخصيات لها صلات بمركز الدراسات الاستراتيجية والدولية التابع لجامعة جورجتاون، يقول لوتواك (Edward Luttwak 1994) إن تحيز عصر التنوير ضد الدين ساهم فى"الاختزالية العلمانية" فى السياسة الخارجية الأمريكية، والفشل فى إدراك حدود الحتمية المادية. حيث يميل العاملون بالسياسة الخارجية الأمريكية ووسائل الإعلام إلى اختزال الصراعات والأزمات فى مصطلحات علمانية، مثل "اليمين" و"اليسار"، تتجاهل تعقيد وأهمية الدوافع الدينية فى الصراعات السياسية. وكذلك تميل هذه العناصر إلى تجاهل الدوافع الروحية فى تحليل الأزمات والمواقف. وترتب على ذلك حدوث فشل خطير فى السياسة الخارجية وانتكاسات جيوبوليتيكية، مثل سقوط الشاة فى إيران. وعلى سبيل المثال. فإن لوتواك -(Luttwak 1994:16) مدفوعا ظاهريا بالحاجة إلى التدريب الدبلوماسى وتحليل السياسة الخارجية الأفضل- اقترح "تعيين ملحقين دينين فى البعثات الدبلوماسية، وهذه الحجج لها رسالة ضمنية : فمجتمع السياسة الخارجية الغربية يحتاج إلى أن يصبح أكثر تدقيقا فى تحليله العلمانى- خاصة الليبرالية الجديدة- وأن يبدأ استعادة الإحساس بقوة الوعى الدينى.

أما الأكثر صراحة من هذا فهو رسالة التحالف الذى يحاول إصدار "قانون التحرر من الاضطهاد الدينى" فى الكونجرس، والذى سيؤدى إصداره إلى تحريك العقوبات الأمريكية ضد الدول التى يرى "مكتب البيت الأبيض لمراقبة الاضطهاد الدينى" أنها تعذب مواطنيها على أساس دينهم. ويعتبر هذا التحالف- الذى يتكون من إنجيليين بروتوستانت، ونشطاء يهود وغيرهم، بمساندة كبيرة من "المؤتمر القومى للأساقفة الكاثوليك"- الدين بمثابة "البعد المفقود فى فن الحكم". ويحاول من خلال

التشريع أن يلزم العاملين فى السياسة الخارجية للولايات المتحدة بإعادة اكتشاف تصورهم وقوتهم الدينية. وقد حققت هذه الجهود بعض النتائج. حيث أسس وزير الخارجية الأمريكى السابق وارين كريستوفر "لجنة استشارية" لمجلس الحريات الدينية لدراسة المسألة. وكذلك فرضت وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت على الدبلوماسيين الأمريكيين تقديم تقارير متكررة ودقيقة عن حالة الحريات الدينية فى الدول التى يوفدون إليها. وركزت أيضا على القضية فى التقرير السنوى لوزارة الخارجية عن حقوق الإنسان، ألا أنها تعارض تشريع الكونجرس، بسبب تعقيدات السياسة الخارجية التى سيؤدى إليها حتما.

وربما تكون الولايات المتحدة الدولة الدينية الأكثر استمرارا فى عالم ما بعد الحداثة. ولكى نفهم ثقافتها السياسية وممارساتها الجيوبوليتيكية، لابد من تقرير كيف يقدم الدين مصادر قصصية معينة واستراتيجيات استطرادية لقادتها لتصوير وتفسير العالم. حيث قام القادة والسياسيون والاستراتيجيون المتدينون المتأثرون بشدة بهذه الروايات بوضع القصص الدينية البطولية للصراعات السامية ضد الشر والهرطقة والكفر على الخريطة السياسية للعالم. وفى حالات عديدة، كانت هذه الكتابات خطيرة للغاية لأنها ترفض تعقيد الشئون الدولية وتختزلها زيفا إلى فئات أخلاقية محددة سلفا. ولذلك يتضمن جزء من مهمة تطوير الجيوبوليتيكا النقدية الكفاح من أجل تفكيك أنظمة القوة / المعرفة فى تداخلات التقاليد الدينية والجيوبوليتيكية. وقد بدأت هذه المهمة الآن فقط.

شكر وتقدير

أود أن أعبر عن جزيل شكرى لهيئة مكتبة" المجموعات الخاصة بجامعة جورجتاون"، وإلى روبرت جالوش، عميد مدرسة إدموند أ. والش للخدمة الأجنبية، وشكر خاص لوالتر جليس على المقابلة التى أجريتها معه فى السادس من فبراير ١٩٩٩ .

قائمة المراجع

Agnew, J. and Corbridge, S. (1995) *Mastering Space*, London: Routledge.

Berstein, C. and Politi, M. (1996) *His Holiness : John Paul II and the Hidden History of Our Time*, New York: Doubleday.

Campbell, D. (1992) *Writing Security: United States Foreign Policy and the Politics of Identity*, Minneapolis: University of Minnesota Press.

Cosgrove, D. (1999) 'Baroque Geography and Enlightenment', 33–66 in D. N. Livingstone and C. W. J. Withers (eds) *Geography and Enlightenment*, Chicago: University of Chicago Press.

Crosby, A. (1997) *The Measure of Reality*, New York: Cambridge University Press.

Crosby, D. (1978) *God, Church and Flag: Senator Joseph R. McCarthy and the Catholic Church 1950–1957*, Chapel Hill: The University of North Carolina Press.

Elton, G. R. (1963) *Reformation Europe, 1517—1559*, Glasgow: Fontana/Collins.

Esposito, J. (1992) *The Islamic Threat: Myth or Reality?*, New York: Oxford University Press.

Fischer, L. (1930) *The Soviets in World Affairs: A History of Relations Between the Soviet Union and the Rest of the World*, vol. II, London: Jonathan Cape.

Gallagher, L. (1962) *Edmund Walsh, S.J.: A Biography*, New York: Benziger Brothers.

Halberstam, D. (1972) *The Best and the Brightest*, New York: Penguin.

Huxley, A. (1941) *The Grey Eminence: A Study in Religion and Politics*, New York: Harper.

Kovel, J. (1997) *Red Hunting in the Promised Land: Anticommunism and the Making of America*, London: Cassell.

Lacouture, J. (1995) *Jesuits: A Multibiography*, Washington D.C.: Counterpoint.

Luttwak, E. (1994) 'The Missing Dimension', 8–19 in D. Johnston and C. Sampson (eds) *Religion, the Missing Dimension of Statecraft*, New York: Oxford University Press.

McDonough, P. (1992) *Men Astutely Trained: A History of the Jesuits in the American Century*, New York: Free Press.

Mitchell, D. (1980) *The Jesuits: A History*, London: Macdonald Futura.

Ó Tuathail, G. (1996) *Critical Geopolitics*, Minneapolis: University of Minnesota Press.

Ó Tuathail, G., Dalby, S. and Routledge, S. (1998) *The Geopolitics Reader*, London: Routledge.

Pietz, W. (1988) 'The "post-colonialism" of Cold War discourse', *Social Text* 19/20: 55–75.

Schmidt, A. G. (ed.) (1945) *Selected Writings of Father Ledochowski*, Chicago: Loyola University Press.

Shapiro, M. (1992) *Reading the Postmodern Polity*, Minneapolis: University of Minnesota Press.

Stephanson, A. (1989) *Kennan and the Art of Foreign Policy*, Cambridge, Mass.: Harvard University Press.

——— (1995) *Manifest Destiny: American Expansion and the Empire of Right*, New York: Hill and Wang.

Tillman, S. P. (1994) *Georgetown's School of Foreign Service: The First 75 Years*, Washington: Georgetown University Press.

Walsh, E. (1929) *The Fall of the Russian Empire*, Boston: Little, Brown and Company.

—— (1931) *The Last Stand: An Interpretation of the Soviet Five Year Plan*, Boston: Atlantic Monthly.
—— (1947) 'Geopolitics and international morals', 12–39 in H. Weigert and V. Stefansson (eds) *Compass of the World: A Symposium on Political Geography*, New York: Macmillan.
—— (1948) Total Power: *A Footnote to History*, New York: Doubleday.
—— (1951) *Total Empire: The Roots and Progress of World Communism*, Milwaukee: Bruce.
Walsh, J. (1934) *American Jesuits*, Freeport, N.Y.: Books for Libraries Press.
Watkins, A. (ed.) (1990) *Footnotes to History: Selected Speeches and Writings of Edmund A. Walsh S.J. Founder of the School of Foreign Service*, Washington, D.C.: Georgetown University Press.

الفصل التاسع

تمثيل الهند فى مرحلة ما بعد الاستعمار

التصورات الجيوبوليتيكية الكلية والاستثنائية

سانجيا تشاتورفيدى

ما إن بدأ البريطانيون فى بناء "الهند الخاصة بهم" فى أواخر القرن ١٩ كجزء متمم للمشروع التنويرى الأكبر الذى حاول - من خلال الملاحظة والدراسة وجمع المعلومات وتصنيفها - فهم العالم خارج أوربا ثم السيطرة عليه، سرعان ما شرعوا فى "حجز" مكان فى تصوراتهم الجيوبولتيكية لشعوب تلك المناطق التى استعمروها فى الفضاء الهندى الجديد. وتمكنت بريطانيا عن طريق شركة الهند الشرقية البريطانية من ضم نحو ٦٠ ٪ من مساحة شبة القارة الهندية خلال الفترة من ١٧٥٧ إلى ١٨٥٧ (Fisher.1993) وتلا ذلك ضم ما هو "هندى" إلى نظام المعرفة الاستعمارى واقتناص التاج البريطانى للحضارة الهندية (Conn 1997)

وتبعا لذلك وضعت فئات مثل الطبقة والقبيلة فى قلب النظام الاجتماعى الهندى جنبا إلى جنب مع فكرة وجود ثنائية طائفية متعارضة ومميزة ذاتيا يمثلها "الهندوس والمسلمون" (Pondly 1990: 23-65) لقد كانت مركزية الطوائف الدينية والطبقية هى المظاهر المميزة التى لفتت انتباه البريطانيين نحو الهند ذات الأرض والشعب المختلفين كلية. ورغم تناقضه وتبعيته لحاجات الحكم الاستعمارى إلا أن المشروع الإثنوغرافى البريطانى فى الهند كانت له تداعيات بالغة الأثر. وبناء على ذلك حدد التميز فى التصنيف الطبقى والدينى الطرق التى أدرك من خلالها البريطانيون، وأحيانا الهنود أنفسهم، التركيب الأساسى للمجتمع الهندى (Metcalf 1995:114)

لقد مد المهاتما غاندى الحكم الإمبريالى البريطانى برافد مهم فى مطلع ثلاثينيات القرن العشرين حين سلم بأن "الأمة الهندية كانت خلقًا وهبه بناة الإمبراطورية"(Sen Gupta 1997: 297) ومع الاستقلال الذى ورثت من خلاله الهند الأمة التى بناها الاستعمار، ظل كثير من الإدراك الأيديولوجى البريطانى عن "الاختلاف" حيا ومزدهرا، تاركا آثاره على كل شىء يحيط بمفهوم المجتمع الهندى الذى تشكل بالتزام حماسى تجاه الطائفة، المعرّفة أساسا بمعايير دينية، وما يحيط أيضا بالفضاء الشعبى الذى يعد ساحة تنافس محموم تسعى هذه الطوائف من خلاله إلى الوصول للسلطة. لقد

تميز التركيب الهلامى للحضارة الهندية بقدرة بارزة على التكيف، مع تنوع بالغ فى الهويات الاجتماعية واللغوية، والذى يصل فى بعض الأحيان إلى التجمع فى صورة سياسات إقليمية وفى أحيان أخرى إلى اصطفاف هش خلف سياسة وحدوية للهند.

وقد حل محل هذا التركيب بناء استعمارى فريد مؤلف من دولة مركزية ذات بيروقراطية إدارية وجيش قوى وأفخاخ أيديولوجية ارتبطت بـ "وحدة علوية من السلطة" و"سيادة غير مجزأة" وما شابه ذلك (Kumar 1997) وحالت الظروف التاريخية التى أدت إلى تقسيم الهند والشقاق الذى اتسع بين سكانها، وحركات التمرد والحرب، دون التخلص من أداة الحكم الاستعمارى التى تركها البريطانيون خلفهم، بل تم تعظيم هذه الأداة وتفعيلها فى دولة ما بعد الاستعمار (Kaviraj 1997a: 233)

وحين شرعت النخبة السياسية فى الهند ما بعد الاستعمار فى بناء "الدولة القومية" وجدت نفسها مضطرة للتغلب على الشقاق الجيوبوليتيكى الواقع بين الاعتراف بالتعددية من ناحية والإصرار على "الشعور" بالهند كهوية جيوبوليتيكية واحدة مميزة بوحدة عضوية من ناحية ثانية (Parker 1988) لقد كانت تلك القومية الجديدة المناهضة للاستعمار هى المسؤولة عن إنتاج "وحدة قومية" بطريقة مغايرة كلية عن التجربة التاريخية للهند، ودعمها بنجاح ما سمى بـ "التفسير القومى" للتاريخ الهندى، ذلك التفسير الذى ركز على الوحدة أكثر من تركيزه على الاختلاف والتضارب داخل الهند (Sen 1998 a) ولقد جاء هذا ، بدرجة ما، كرد فعل للفرضية الاستعمارية التى تقول إن الهند بالغة التعدد ولا تتسم بالتماسك المجتمعى باستثناء ما منحه إياها الحكم البريطانى ضمن نظام التكامل الذى فرضه التاج الإمبريالى. فى المقابل كانت الفرضية القومية المقابلة تقول إنه رغم التنوع الشديد إلا أنه كانت هناك وحدة جوهرية، ولم تظهر هذه الوحدة صدفة بل جاءت انعكاسا للنزوع الوحدوى الكامن فى ثقافة وحضارة الهند، والذى يمثل الأساس المتين للقومية.

هذه هى الخلفية التى ينطلق منها هذه الفصل من أجل دراسة كيفية تمثيل الهند فى مرحلة ما بعد الاستعمار وما بعد التقسيم من قبل جماعات وأفراد ونخب سياسية

ومؤسسات مسيطرة ومهندسى السياسة الحاكمة. وبعبارة أخرى سنتناول فى هذا الفصل كيفية تنافس عدة تصورات جييوبولتيكية مع بعضها البعض نتيجة سعى مختلف اللاعبين إلى فرض خرائط المعنى والارتباط والنظام على العالم السياسى العلوى بالغ التعقيد والدينامية الذى يعيشونه ويراقبونه ويحاولون فهمه، وأحيانا يسعون إلى السيطرة عليه. وسنبدأ هذا الفصل بتقييم مقارن للنهج الذى تستخدمه كل من "القومية العلمانية "و" القومية الهندوسية" من أجل تكوين كيان يسمى الهند وإعطاء هذا الكيان مضمون و تاريخ ومغزى ومسار وذلك بالاستعانة بمفاهيم اصطلاحية وأساطير وممارسات جيوبوليتيكية ممثلة. وسنتتبع ذلك بفحص نقدى لكيفية تزعم حركة قومية تعرف باسم "الهندوتفا" (وتعنى القومية الهندوسية) تكوين هوية هندوسية متجانسة ومتماسكة (وإن كان ذلك فى فترة زمنية حديثة) رغم العوامل المضادة المتمثلة فى التنوع الكبير و التقاليد الثقافية المتمازجة فى شبة القارة الهندية. وفى النهاية يفحص هذا الفصل، وبطريقة نقدية، التداعيات الجيوبوليتيكية للتجارب النووية الخمس التى أجرتها الهند فى مايو ١٩٩٨ . خاصة الطريقة التى سعت الحكومة الهندية من خلالها لإعطاء شرعية اتخاذ قرار التجارب وذلك من خلال تبرير جيوبوليتيكى رسمى وعملى وشعبى.

الجغرافيا المقدسة للهند:

الوحدة القومية والشغف الكارتوغرافى

على نحو ما يوضح أشوتوش فارشينى Ashutosh Varshney (1993) فإن بوسع المرء فى الهند تلمس اثنين من التصورات الجيوبوليتيكية الرئيسية المتعلقة بالوحدة القومية والهوية الوطنية، ألا وهما "القومية العلمانية"، بمضمونها المكانى والثقافى، فى مقابل "القومية الهندوسية"، بمضمونها المكانى والدينى. وكما هو واضح فإن العامل المشترك بين الاثنين هو البعد المكانى . ففى التصور العلمانى نجد أن المفهوم المكانى للهند، والذى تم التوكيد عليه على مدى ٢٥ قرن منذ زمن ملحمة المهابهاراتا، هو ذلك

المفهوم الذى تتمثل فيه أرض تمتد من جبال الهيمالايا فى الشمال إلى رأس كاينا كومارى (راس كومرين) جنوبا ومن بحر العرب غربا إلى خليج البنغال شرقا. لم تكن الهند محل ميلاد ديانات عديدة (كالهندوسية والبوذية والجانية والسيخية) بل إنها على مدار التاريخ استقبلت واستوعبت ديانة الغرباء (الزرادشتيين ,واليهود، والمسيحيين السوريان الذين تبعوا القديس توماس ووصلوا الهند مع مطلع القرن الثانى الميلادى وبلغوا الهند قبل أن يبلغوا أوربا). والذى يجعل الحضارة الهندية مميزة بناء على ذلك ما تتمتع به من فضائل التوفيق، والتعدد، والتسامح، والتى تنعكس فى التعبير الثقافى: سارفا دارما سامباهافا وتعنى "الاحترام المتساوى لكل الأديان".

يعد كتاب جواهر نهرو "اكتشاف الهند" Discovery of India (1981) مثالا جيدا على تمكن القوميين العلمانيين من بناء هوية قومية للهند. يقول نهرو"احتل حلم تحقيق نوع ما من الوحدة عقل الهند منذ فجر الحضارة". لقد "اكتشف" نهرو أن الهوية الهندية راقدة فى ثقافتها وليس فى دينها ومن ثم ليس هناك "أرض مقدسة" فى خريطته الذهنية عن الهند. وبالنسبة لنهرو فان أبطال التاريخ الهندى - أشوكا، كبير، جورو ناناك، الأمير خسرو، أكبر، وغاندى - ينتمون لديانات مختلفة، والاستثناء البارز فى تاريخ الهند وجده نهرو فى حاكمها "أورانجزيب" الحاكم المغولى المتعصب الذى أدت سياساته إلى إدارة عقارب الساعة إلى الخلف. لقد وجد نهرو جغرافية الهند مقدسة فقط من زاوية مجازية وليس بالمعنى الحرفى (Varshney 1993: 236)

تقف الفكرة القومية العلمانية لدى نهرو فى تناقض واضح مع الفكرة الدينية التى تنظر إلى الهند كأرض للهندوس فى المقام الأول، وليس للهندوس بديل عنها، وهى الأرض الوحيدة التى يمكن للهندوس الادعاء بأنها وطنا لهم (Pattanaik 1998: 43-50) ويحسب سافاركار، المنظر الأيدلوجى للقومية الهندوسية، فإن:

"الهندوسى هو ذلك المرء الذى يشعر أنه مرتبط بتلك الأرض الممتدة من نهر السند إلى نهر السند وهى أرض أجداده وآبائه. ممن تجرى فى عروقهم دماء جنس عظيم

تعود أصوله الأولى إلى شعوب جبال الهيمالايا من قبائل الفيدا التى سكنت السبتا سند (Saptasindhus أرض الأنهار السبعة) وتطور كل ذلك الامتصاص والامتزاج الجنسى إلى تكوين الشعب الهندوسى فى النهاية (Savarkar 1969: 100)

إن ما يوّحد مظاهر سطح الأرض الهندية هو الجغرافيا المقدسة للأماكن ذات الأهمية الدينية لدى الهندوس والتى تضم بناراس ,تريبوتى ,راميزوارام ,بورى، هاريدوار ,بدريناث ,كيدارناث وحديثا منطقة أيودا، إضافة إلى الأنهار المقدسة (كوفرى, الجانج ,يامونا ,والتقاء النهرين الأخيرين فى نهر برياج).

ومن المهم ملاحظة أن حدود الهند التى يتصورها القوميون العلمانيون تتفق مع الجغرافيا المقدسة لدى القوميين الهندوس التى تشكل مواقعهم الدينية التى يحجون إليها نفس الحدود الفعلية للدولة، وإن كان القوميون الهندوس يذهبون أبعد من القوميين العلمانيين حين يلجئون إلى الأساطير التاريخية التى تعود إلى أكثر من ٢٥٠٠ سنة لتأريخ أصول هذه المواضع المقدسة. وعلى نحو ما يلاحظ فارشينى:

"اكتسب المبدأ المكانى أهميته عبر القرون من اعتقاد ضارب بجذوره فى تاريخ بعيد ومختزل فى مفهوم "الجغرافيا المقدسة"، وتجسد هذا المبدأ من كونه العامل المشترك الوحيد بين التصورين الجيوبوليتيكيين المتنافسين معا. ومن ثم فانه على نحو ما تدافع الولايات المتحدة عن مفاهيم الحرية و المساواة كمبادئ تشكل لحظات الحماسة والشغف السياسى، تمثل مبادئ "الجغرافيا المقدسة" لحظات التفجر فى الوعى القومى الهندى، ولعل تقسيم الهند فى عام ١٩٧٤ يعد المثال الأبرز. وكلما تعرضت الهند لتهديد تفكك آخر، وبدت فى الأفق بوادر "تقسيم" جديد، فان لحظات التفجر تكتسب حماسة وشغفا سياسيا لا نظير له. وتتسم السياسات القائمة على هذا التصور باختلاف جذرى عن السياسات التى عاشتها دول مثل إندونيسيا وماليزيا بعد التقسيم، أو حين انقسمت جمهوريتا التشيك والسلوفاك. فى تلك الأمثلة لم يتعرض المكان لزحزحة عن موقعه المحورى فى الهوية القومية، فالطلاق المكانى لم يؤد إلى تدنيس المقدس. أما فى حالة الهند كان التقسيم بمثابة تدنيس للجغرافيا المقدسة. (Varshney 1993: 238)

وكنتيجة لما سبق يجمع القوميون العلمانيون والقوميون الهندوس على عامل مشترك يسميه سنكران كريشنا "Sankaran Krishna الشغف الكارتوغرافى" قاصدا بذلك الحماسة التى تحيط بقضايا الهوية القومية وصراعها من أجل البقاء. ويحسب كريشنا يتجاوز مصطلح "الكارتوغرافيا" تلك الاعتبارات الفنية والعملية القاصرة على رسم خريطة الدولة، بل تشير إلى "ممارسات تمثيل مكانى تعمل بطرق مختلفة لحفر شيء ما يسمى الهند وربط هويته بمضمون وتاريخ ومغزى ومسار بعينه". ويحاجج كريشنا بأن الحماسة الكارتوغرافية ما هى إلا عرض واحد من أعراض الحماس المرضى الذى ظهر فى الهند فيما بعد الاستعمار، وعبر عنها المجتمع الهندى الذى نظر إلى نفسه كمجتمع متأرجح إلى ما لانهاية بين صورة الهند" كمستعمرة سابقه" وصورتها بعد الاستقلال"قبل اكتمال نموها كأمة هندية" ويمكن رؤية هذه الحالة المتأرجحة فى صورة تكوين الهند كهوية ذات سيادة وحدود ,فضلا عن انتشار ذلك فى الممارسات السياسية اليومية وعلى حدود الدولة الملتهبة. ويصبح السؤال الحرج حينئذ هل يتبقى شيء من آثار الاستعمار فى زمن ما بعد الاستقلال؟ وبحسب كر يشنا:

"فإننا إذا ما درسنا درجة الشغف الكارتوغرافى التى تكشف عنها الدولة فى تعاملها مع أمور التمثيل الكارتوجرافى والاهتمام المبالغ فيه لمفاهيم مثل الأمن والنقاوة العرقية والدينية والممارسات المختلفة لتحديد ما هو هندى وما هو غير هندى وما هو وطنى وما هو عميل وما هو وافد وما هو أصيل وما هو رئيسى وما هو هامشى، فان الإجابة على السؤال ستكون بالنفى" (Krishna 1994: 508)

لقد كان جواهر لال نهرو مهتما أيضا بالحماسة الكارتوغرافية.صحيح أن نهرو كان لديه اعتقاد راسخ بالهند كهوية روحية وحضارية خالدة إلا أنه بدء إعادة تصوره الحديث للماضى الهندى (فى كتابه اكتشاف الهند) بوصف خرائطى للحدود الطبيعية للدولة. لقد ضمت الجغرافيا المتصورة لدى نهرو سلاسل جبلية منيعة، وصحارى شاسعة، ومحيطات عميقة، شكلت موانع طبيعية لما أصبح الهند فيما بعد. وفى السيرة

الذاتية لنهرو Autobiography (1936) يمكن للمرء أن يعثر على دلائل تلك الحماسة المتعلقة بحماية الأمة الهندية وحدودها الطبيعية. وقد تتبع نهرو فى ذلك كيف تم اختراق حدود البلاد، التى كانت آنذاك لسوء الحظ مفككة وغير متحدة، من قبل الحضارة البريطانية المتحدة والقوية . كما أن ذكريات نهرو عن تقسيم الهند (١٩٥٦:٢٤٧) تعكس أيضا درجة قلقه من التفكك الذى أصاب كل شيء، وخاصة تفكك أغلى شيء ألا وهو جسد الهند المكانى (المرجع السابق). وعلى نحو ما يلمح ديكينك Digkink (1996:129) فان ما سعى نهرو إلى تجاوزه فى نظرته التاريخية التى غطت ٢٥٠٠ سنة كانت تلك الفترة التى حكمت فيها بريطانيا الهند لمدة ٢٠٠ سنة. ومع ذلك كانت فكرة نهرو عن الوحدة الهندية متوقفة على تلك الفترة التى أراد محوها.

لقد تشكلت سياسة الهند الخارجية بعيد الاستقلال على يد نهرو نفسه وبفضل كر يشنا مينون كبير مستشاريه فى وزارة الخارجية (Bresher 1948) لقد ظهرت نظرتيهما المميزة عن العالم من خلال الصراع الطويل مع البريطانيين ومن خلال الجهود الكبيرة لترسيخ الاستقلال. وقد نظر كل منهما إلى الهند كدولة قادرة على تقديم رؤية عالمية بديلة ساعية إلى التعاون لا إلى المواجهة (Parker 1998: 192) ويمكن الوقوف على الرؤية الجيوبوليتيكية لجواهر لال نهرو بالرجوع إلى كتابه "اكتشاف الهند" (١٩٨١) خاصة فى الفصل الأول الذى يحمل عنوان "الواقعية والجيوبوليتيك ,غزو العالم أم ترابطه: الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى". ولعل أبرز الأفكار الجيوبوليتيكية لدى نهرو فى هذا الفصل هو ذلك المزج الحذر بين المثالية والواقعية، و" الداخل " و" الخارج" وهى مفاهيم عاد إليها نهرو لبلورة تصوره عن عالم ما بعد الحرب الباردة ودور الهند فيه. ولقد كان نهرو مستهينا للغاية بنظريات ماكندر وسبيكمان والتى لم تكن فى نظره تتجاوز تسويغا علميا زائفا لـ"امتلاك السلطة" و"سياسات القوة" و"الهيمنة على العالم". وفى ذلك يقول نهرو:

"صار الجيوبوليتيك اليوم، وما يرتبط به من مصطلحات "قلب الأرض" و"هامش الأرض"، ملاذا لمذهب الواقعية، وهو ما يفترض أن يسهم فى إلقاء الضوء على الجوانب الغامضة المحيطة بصعود وهبوط الأمم. فبعد أن تأسس الجيوبوليتيك فى إنجلترا

(أو ربما فى اسكتلندا على ما أذكر؟) صار بمثابة المرشد الهادى للنازيين وحاضنا لأحلامهم وأطماعهم فى السيطرة على العالم، ثم انتهى بهم إلى كارثة .... وحتى الولايات المتحدة اليوم، على نحو ما عبر البروفسير "سبيكمان" فى شهادته الأخيرة، تشعر بخطر الحصار وهو ما يجعلها تتحالف مع دولة من دول هامش الأرض حتى تتمكن من منع "قلب الأرض" (والذى يعنى الآن الاتحاد السوفيتى) من التحالف مع هامش الأرض (Nehru 1981 :539) وإضافة إلى رؤية نهرو عن العالم وتصوره ورغبته فى نظام عالمى يتسم بالعدل والسلام فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ,كان لدى نهرو اهتمام جيوبوليتيكى عميق بأوضاع الهند الداخلية وحاجتها إلى سياسة خارجية قادرة على حماية "حلم الوحدة" ذلك الحلم الذى شغل مخيلة الهند منذ فجر الحضارة على نحو ما ذهب نهرو . كان نهرو مقتنعا بشدة بوحدة الهند بحدودها التى كانت عليها إبان الاستعمار البريطانى، وفى ذلك يقول نهرو :

"هكذا نصل إلى النتيجة الحتمية التى لا مفر منها وهى أنه سواء تكونت باكستان أم لا فان هناك عددا من المهام الأساسية التى يجب أن تمارسها الهند طالما سعت لأن تبقى دولة حرة ومتقدمة. ولا بديل عن أداء هذه المهام سوى الركود العفن والتفسخ وفقدان الحرية السياسية والاقتصادية ليس فقط للهند بل وكافة الأجزاء التى انفصلت عنها (Nehru 1981:533)

ولقد تعرضت الآراء المتعلقة بالتقسيم المستقبلى للهند لنفس النقد الذى وجهه نهرو لسياسات السلطة الواقعية التقليدية، واستمد هذا النقد مرجعيته من فكرة أن الدولة القومية الصغيرة ليست سوى ظاهرة من ظواهر الماضى، وأن المستقبل سيكشف عن أن التقسيم المساحى للهند سيؤدى إلى اعتماد كل وحدة جديدة منها على الأخرى، وستنشأ حاجة ملحة من أجل اتحاد فدرالى بين هذه الأجزاء المنفصلة، كما سيترك أى تقسيم مساحى المسلمين فى رقعة جغرافية أصغر مساحة وأضعف اقتصادا . واعتقد

نهرو فى أن مستقبل شبة القارة الهندية يواجه تحد يتمثل فى "اتحاد مضاف إليه استقلال أو تفكك مضاف إليه تبعية". وبحسب ديكينك (Digkink (1996:121 فإن الأحداث الجسيمة التى أدت إلى فصل الهند وباكستان تشير إلى أن نهرو كان مهتما فى واقع الأمر بـ"بناء " الهند لا "اكتشافها".

وبحسب كريشنا مينون فان الشؤون الخارجية كانت مجرد إسقاط للسياسة الداخلية أو الوطنية فى مجال العلاقات الدولية (Bresher 1968 :4) وقد انعكس ذلك بدرجة كبيرة فى سياسة عدم الانحياز التى اتبعتها الهند . فبحسب هوبرت (Houbert 1998:202) اختارت نخبة السياسة الخارجية الهندية مسار عدم الانحياز حتى تتمكن من احتواء التوجه الشيوعى فى سياستها الداخلية. فلو فرض ولم تكن الحركة الشيوعية فى الهند متجانسة أو متحدة فى حزب واحد جيد التنظيم لكان أى تحد فى يسار تلك الحركة قد أمكن معالجته من قبل حزب المؤتمر دون تدخل من الاتحاد السوفيتى. وعلى العكس من ذلك،كانت هناك فرصة كاملة لأن تستخدم موسكو تأثيرها القوى على الأحزاب ذات التوجه السوفيتى وتحركها لدعم النظام فى نيودلهى فى المضى قدما فى عدم الانحياز. بل إن عدم الانحياز قدم لحكومة حزب المؤتمر السبل لتوفير نفقاتها العسكرية ورتبت أولوياتها لصالح التنمية الاجتماعية والاقتصادية، الأمر الذى جعلها تكسب تعاطف الناخبين، وتسحب البساط من تحت أقدام الشيوعيين (المرجع السابق). ويبدو أن اعتبارات الأمن الخارجى والداخلى قد استفادت من سياسة عدم الانحياز أكثر مما كان من المنتظر تحقيقه إذا انضمت لسياسة الأحلاف العسكرية الغربية، ولم تكن الاعتبارات الأمنية والأيدلوجية هى فقط التى دعمت سياسة عدم الانحياز الهندية، وفى ذلك يذهب هوبرت إلى القول:

"دعم عدم الانحياز من السلطة فى الهند... فمن خلال تسخير البعد الروحى فى السياسات الدولية قدم عدم الانحياز مزايا غطت على ضعف الهند، وهو مكسب فاق ما كانت سياسة الانحياز ستحققه... وعلى هذا كانت أيديولوجية السلام محاطة بكل من

مصالح الأمن الهندى من ناحية واعتبارات السلطة التى تميزت بها سياسة عدم الانحياز من ناحية أخرى (المرجع السابق).

وهناك مثال آخر يظهر كيف سيطر مفهوم الالتزام بـ"الوحدة القومية" و"الهوية الوطنية" فى الهند المستقلة على غيرها من الأولويات والسياسات التى شغلت النخبة السياسية وفى مقدمتهم ساردار فالابهباى باتل Sardar Patel الذى شغل منصب أول وزير لداخلية الهند والذى اعتبره كثيرون بمثابة رجل الهند الحديدى وفاقت شهرته بسمارك. ويعبر عن ذلك ما قاله كريشنا مينون وزير خارجية الهند الأسبق من أنه "حين غادر البريطانيون الهند تعرضت وحدة البلاد حتى فى حالتها المقسمة للخطر. إذ ترك ٥٦٠ وحدة إدارية (ولايات أميريه) فى مهب الريح، وكانت كل الخيارات أمام هذه الوحدات مفتوحة، سواء البقاء مع الهند أو الانضمام لباكستان أو الاحتفاظ بالاستقلال. لقد بدا الأمر كما لو كانت الهند ماضية إلى تفتت. لكن سرعان ما تم احتواء هذا الخطر بفضل السيطرة القوية لأمراء الولايات وبفضل الرجل الحديدى ساردار باتل (نقلا عن Krishna 1995: 33).

ويشيركريشنا إلى أن:

"حيدر آباد كانت لدى باتل أكثر أهمية من كشمير، مما جعل باتل يتساءل على نحو منطقي كيف يمكن للبطن أن يتنفس إذا انتزع من الجسد؟ لقد كان ذلك بالنسبة لباتل بمثابة إعلان وفاة حلم الهند الموحدة، وهو ما كان كفيلا لو تم أن ينتشر كسرطان من التفكك والتفسخ ويبلقن البلاد (Krishna 1995:398)

ويمكن بنظرة عابرة إلى الهند المعاصرة أن نكتشف تزايد الأخطار التى تحيط بالهند ـ حقيقية كانت أم تخيلية ـ والتى تأتى إليها عبر الحدود مهددة "وحدة وتكامل الأراضى الهندية. فهناك اختراق خارجى تخيم علية ظلال أيدى أجنبية تعمل على النيل من استقرار البلاد وتدمير جسد وروح الأمة الهندية. لقد ورثت الدولة الهندية خطابها

السياسى وممارستها الفعلية على الحدود أو مناطق التخوم من السلطات الاستعمارية. ويمكن أن نذكر أنفسنا بالحقيقة القائلة إن الأوضاع الجغرافية والتاريخية لحدود ما صار يعرف لاحقا باسم آسيا الجنوبية قد كتبة هؤلاء الذين كانوا يخلقون أو يبنون هذه الحدود لأول مرة، من أجل تحقيق أغراضهم السلطوية والسياسية. وكنتيجة لهذا فإن الخرائط التى رسمتها القوة الاستعمارية كانت من العمومية والبساطة ما لم يمكنها من استيعاب التنوع والحراك فى المناطق الحدودية. وعلى نحو ما يشير بولا بانيرجىPaula Banergee (1998:11) فإنه بناء على هذه الخرائط "ظهرت" إلى الوجود الدول القومية فى آسيا الجنوبية أو إذا استخدمنا عبارة أكثر دقة فإن هذه الدول "صنعت". ويعود الفضل إلى كورزون Curzan فى المزاوجة بين المفاهيم الاستراتيجية والجغرافية وتمهيد الطريق لبسط الدولة سيادتها على الحدود واحتكار تلك السيطرة فى أيدى مؤسسات الدولة وضباط الجيش وعملاء المخابرات. ويمكن تقدير التأثير الكبير لتركة كورزون على الدولة الهندية من حقيقة أن الهند ما تزال غير قادرة على التخلص من فكرة أن هذه الخرائط موروثة، مما يجعلها تستمر حتى اليوم فى إنكار حق مواطنيها فى الحصول على خرائط لمناطق الحدود، حتى القديمة منها.

إن الاهتمام المتواصل للحكومة الهندية والذى وصل إلى درجة الهوس بقضية "وحدة أراضيها " داخل مجال نفوذها الجيوبوليتيكى وما يرتبط بذلك من الحماسة الكارتوغرافية التى تولدت عنها قد انعكس فى الطريقة التى تعاملت بها حكومة الهند مع جيرانها الجدد فى شبة القارة الهندية، خاصة باكستان. وحسب ما تذهب عائشة جلال (Ayesha Jalal (1995: 5 فإنه فى الخطاب الجيوبوليتيكى السائد فى الهند بدا الحجم الجغرافى للدولة والنظرة المثالية لوحدتها ـ وان كانت هذه الوحدة أسطورية ورمزية ـ بمثابة عناصر الاختلاف التى تميز الهند عن باكستان، بل وبمثابة الضرورة السياسية المختلفة التى تم تقسيمها إلى جزأين يفصل بينهما ألف ميل. وبالمضى قدما مع الصورة النمطية عن " الآخر" الخطر الذى خوفت منه لها جماعات المصلحة عبر الصحافة والتلفاز فى كلا البلدين ,قام الخطاب السياسى المهيمن على الهند بتقديم

باكستان كدولة متأصلة فى العداء، متحجرة الفكر السياسى، تعانى من أزمة هوية، ومؤلفة من مجتمع سكانى يحكمه المتطرفون، الذين لا هدف لهم سوى "محو الهند " من الوجود، والذين لا يتورعون عن التهديد بإشعال حرب جديدة (حتى لو كانت حرب نووية) من أجل السيطرة على جامو وكشمير، وذلك لإكمال مهمة التقسيم التى لم تنته بعد. واليوم نجد أن أى حدث من أحداث التوتر السياسى فى الهند يلقى باللوم فيه على المخابرات الباكستانية، المراوغة والحاضرة بقوة فى كل مكان فى الهند (Gill 1998)

فى المقابل يقوم الخطاب السياسى المهيمن على باكستان بتصوير الهند (التى تعرف لديهم باسم بهارات Baharat) كدولة تحكمها فى نيو دلهى نخبة من ذوى الأصول البرهمية Brahmin، وتدار بشكل سيئ، وتحتفظ بعداء دائم، ليس فقط تجاه الوجود السياسى لشعب باكستان، بل تجاه الأقلية المسلمة التى تعيش على الأراضى الهندية. وتبدو الحماسة الكارتوغرافية الهندية ممثلة خير تمثيل - وربما أسوأ تمثيل - فى جامو وكشمير، أكثر ولايات الاتحاد الهندى موقعا نحو الشمال. تمثل جامو وكشمير عقدة الاتصال بين الهند وباكستان، وتعد مثالا جيدا على كيفية قيام النخبة السياسية ومؤسسات الدولة بتحويل البشر والأماكن ذوى الهويات المتميزة تاريخيا وثقافيا وعرقيا ولغويا إلى مجرد "قضية" تهديد وخطر بين البلدين. وفى قلب الخطاب السياسى الهندى المهيمن على كشمير تسيطر نظرية الدولتين بقوة على الفكر السياسى. وبينما يقال أن الهند قد أعادت الاعتبار لنظرية حل الدولتين كخيار "لا مفر منة " لتقسيم جامو وكشمير بينها وبين باكستان (Dixit 1995 :199) يبدو موقف باكستان الصلب متمسكا بالقول إن "تقسيم شبة القارة الهندية سيبقى غير مكتمل ما لم يتم ضم كافة المناطق ذات الأغلبية المسلمة إلى باكستان، أو منحها حق الاستقلال. (المرجع السابق).

وعلى هذا يبدو الالتزام الهندى بمبدأ التعددية ورسالة التعايش، المتجاوز للتباين العرقى والاثنى واللغوى والدينى والهويات شبة الإقليمية، متناقضا للغاية مع الانغماس الباكستانى فى الاعتقاد بالتجانس الدينى الإسلامى كأساس وحيد لصياغة الهوية

القومية والجغرافية. ومن ثم يتم استبعاد أى احتمال لانفصال كشمير عن الاتحاد الهندى لأنه يعد تحديا لوحدتها الجغرافية والأيدلوجية. ولقد جرت محاولات من قبل بعض أنظمة الحكم فى كل من باكستان والهند من أجل إعادة كتابة الماضى السياسى لدولتيهما ورسم أيدلوجيات سياسية مغايرة تتفق مع متطلبات الحاضر(Behra 1998) وتقوم حجة باكستان على أن كشمير كانت جزءا من الممالك الإسلامية التي حكمت المنطقة خلال ١٢٠٠سنة مضت، وهو ما رفضه المؤرخون الهنود بشدة على أساس أن التاريخ لا يبدأ ولا ينتهى فجأة، فلو أن كشمير كانت جزءا من الممالك والمستعمرات الإسلامية فإنها وقعت بالمثل تحت السيادة الهندوسية والبوذية لبعض الفترات. ويستمد الموقف الهندى حجته من أنه لو تم بناء التبعيات السياسية والجغرافية على أساس الحجج الدينية والتاريخية فلابد من إعادة رسم خريطة شبة القارة الهندية نفسها، بل خريطة العالم بأسره. وبحسب سامنترا بوز Samantra Bose فان "الاضطراب الكشميرى يغذى حركة "الهندوتفا" ذات التوجه القومى المتشدد ويقدم لها سلاحا دعائيا لا نظير له. فالحجة الباكستانية حول كشمير تقدم لهذه الحركة "دليلا " على المخططات السيئة للمجتمع المسلم الذى يسكن الهند ويسعى إلى تدمير وحدة البلاد بالتحالف مع العدو التاريخى الذى تمثله باكستان. فنظرية المؤامرة التي تقوم على وجود عدو فى الداخل وعدو فى الخارج، حيث المسلمون فى هذه الحالة طابور خامس لباكستان، تمثل المنظور القديم الذى يرى من خلاله "القوميون الهندوس" العالم من حولهم. وتقدم الحجج التاريخية والدينية لباكستان تجاه كشمير دليلا جديدا يدعم المسوغات التي تقوم عليها حركة الهندوتفا (Bose 1997: 144)

وحين تتحقق حماية الحدود القومية - وهى القضية التي تعد لكافة الأطياف السياسية فى الهند على نفس درجة أهمية وجود وبقاء الاتحاد الهندى ذاته - فان الأنظار ستتحول عن متابعة الحدود "الآمنة " و"المنيعة " التي تحمى الوحدة القومية والتنمية الوطنية وتدعم تماسك الهوية القومية كما ستتوقف هذه الأنظار عن متابعة العنف الذى صنع هذه الحدود (Krishna 1994 :511) ولعل المثال التقليدى المعبر عن

كيف تؤدى "صناعة الحدود" إلى" حرب" مكلفة غير مبررة ما نجده من النزاع الهندى الباكستانى من أجل السيطرة على منطقة جليدية لا قيمة لها يمثلها وادى سياتشن الجليدى والذى يبدأ من منسوب ١٢,٠٠٠ قدم فوق سطح البحر ويصعد عبر جبال سلاتورو Slatoro فى الهيمالايا حتى منسوب ٢٢,٠٠٠ قدم.

لقد كان هناك مشروع مركزى للدولة الهندية سعى إلى صبغ الأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية عند المستويين المحلى والإقليمى بأفكار متآلفة ترفع شعار الوحدة القومية. غير أن هذا المشروع فشل فى أن يحتل مكان الانتماء لفضاء واسع تمثله الهند "كمكان"، هذا الفضاء الذى لا يقل فى أهميته عن الانتماء لجماعة بشرية، وكلاهما مرتبط بالآخر ارتباط وثيقا. (Weiner 1997:298-9) ولعل هذا فى حد ذاته مصدر آخر من مصادر الحماسة الجغرافية للدولة الهندية. فالجماعات البشرية فى الهند تنظر إلى الإقليم المساحى الذى تعيش فيه كموقع يمثل تجسيدا خالصا لتاريخهم، ومكان شهد أحداثا عظيمة مرت بهم، وضم أضرحة مقدسة لدياناتهم. كما أن الجماعات القبلية واللغوية عادة ما تنظر إلى الوطن الهندى كمكان مميز وخاص بهم ويجب أن يبقى كذلك خالصا لهم ومستبعدا من أية جماعة أخرى ممن ليس لها حق فى جنى ثمار أرضهم أو العمل فى رقعتهم الجغرافية. وعلى هذا تعرف الأقليات اللغوية فى الهند نفسها "كأبناء لهذه التربة" لها الحق فى العمل، والأرض، والسلطة، والسياسة، ومحرم على أولئك الذين جاءوا من الخارج أن يطالبوا بشىء فيها .

وبحسب رجانى كوثرى (1997:51) Ragani Kothari فقد تعالت أصوات بعض الجماعات السكانية نتيجة شعورها بالغربة فى ديارها وفى مقدمة هذه الجماعات تلك الفئات التى تتعرض للاستغلال فى المجتمع الهندى من طبقة الداليت (الطبقات الاجتماعية المتدنية) إلى جانب جماعات الأديفاسيس القبليه، فضلا عن سكان عدد من الوحدات المكانية و الوحدات الإدارية الفرعية. وتعد الأراضى الشمالية الشرقية فى الهند مثالا جيدا لتوضيح أن إدعاء مجموعة سكانية تعيش فى إطار مساحى معين بأن

هذا الإطار يعد وطنا لهم ليس كافيا، فهناك عوامل اخرى منافسة مثل الرغبة والسعى لممارسة السيادة السياسية عليه. وعلى نحو ما يذهب فيرجيس B.G.Verghese تمتع الإقليم الشمالى الشرقى لفترة طويلة بالسلام والاستقرار قبل أن تحوله الأوضاع السياسية إلى إقليم " مستبعد" وجد نفسه بين ليلة وضحاها ينكمش إلى مجرد ذيل مكمل للهند زمن التقسيم، وتحول إلى جزء مغلق وتعرض اقتصاده إلى الاضطراب، واستحوذت علية موجات من المهاجرين، وخيمت عليه أوضاع مفاجئة، واضطرابات مربكة . لقد سيطر على عقول سكان هذه المنطقة قدر من عدم الثقة والتشتت والارتباك، إلى أن وجدت الجماعات البشرية نفسها فى تلك المنطقة تتباعد عن آسام فى البداية ثم عن الهند فيما بعد، وذلك من خلال عملية من التمايز وتعرض السكون لتوتر وصراع ومسلسل متوالى من التمرد الذى جاء معظمه نتيجة تدخل أجنبى، وما تزال ست تمردت منها حاضرة بشكل أو بآخر فى ولايات ناجالاند ,ومانيبور ,وآسام ,وبورولاند , وتريبوا ,وميغالايا. وكان نسبة الجماعات المسلمة المتورطة فى تلك التمردات كبيرة للغاية. (Verghese 1996:393) ومن الحركات الأخرى التى تركت أثرا على الوحدة القومية الهندية الحركة "الانفصالية/المنشقة "فى البنجاب (من السيخ) وفى كشمير (من المسلمين) إضافة إلى الحركة الدرافدية فى ولاية تاميل نادو. وعلى نحو ما أشار بدقة ديكينك (Digkink (1996: 131 فإنه:

"على الرغم من أن الحركات الانفصالية فى الشمال ارتبطت بأقليات صغيرة، إلا أن أثرها على الوحدة القومية كان كبيرا للغاية. وقد جاء ذلك أولا لأنهم هددوا "الجغرافيا المقدسة " للهند ولأن أطرافا أجنبية (مثل باكستان فى كشمير والبنجاب) كان لها على ما يبدو دور فى الإخلال بالأمن الداخلى. كما اكتسبت الحركة الدرافدية أيضا بعدا دوليا حين حققت اتصالا بحركة انفصال التاميل فى سريلانكا (حركة نمور التأميل)" (Digkink (1996: 131

ووصلت درجات الحماسة الكارتوجرافية فى الهند إلى درجة عالية وخاصة حول

الأوضاع "غير القانونية" للمهاجرين أو "المتسللين " من بنجلاديش، والذين يعتقد أن عددهم يزيد عن ١٠ مليون على الأراضى الهندية، نصفهم فى ولاية البنغال الغربية وحدها. وعلى حد قول مهشوارى Maheshwari فان هناك مخاوف من أن تؤدى هذه الهجرة إلى إحداث تغيير فى المناطق الهندية حول بنجلاديش لدرجة أننا قد نصحو ذات يوم فلا نجد أن هذه المنطقة قد بقيت ضمن جغرافية الهند. لقد كانت فكرة العدوان الديموغرافى على الهند حاضرة على هذا النحو منذ عام ١٩٥٨ لكنها تحولت من فكرة إلى واقع عقب ظهور بنجلاديش كدولة (Maheshwari 1998 :1)

وأخيرا وليس آخرا، يعثر المرء فى التصورات الجيوبوليتيكية الهندية على تمجيد غريب لأرضـ"نا" التى وهبت الحياة إلى عبادة "الهند الأم" فى مركب اجتماعى يتسم بترتيب هرمى وأبوى كبير (Sarkar 1996:162, Mahanta 1997) ونجد فى الخطاب القومى إن المفهوم العلمانى لـ "بهارات ماتا" أو "الهند الأم" يمثل الجماهير الكادحة فى الريف الهندى، ويعمل هذا المفهوم كحد صارم وكوسيلة فعالة لتأجج المشاعر القومية. كما أصبح شعار "بهارات ماتا كى جى" Baharatmata ki gai والذى يعنى " النصر للهند الأم" بمثابة صيحة المعركة يهتف بها الرجال والنساء على السواء. وكما يشير بوز Bose فإن القوميين" المستغربين "من أمثال جواهر لال نهرو قد اعتمدوا بقوة على الاستعارة والتشبيهات الجنسية على سبيل الاعتداء والاغتصاب وذلك فى نقدهم للعنف الذى مارسه المستعمرون ضد الهند (Sugata Bose 1998: 54) وحتى الآن فإننا نجد أن مفهوم الدولة باعتبارها "الأم" مستمر كصيحة نداء لتأجيج المشاعر القومية أو شبه القومية، على نحو ما قامت حركة آسام بين عامى ١٩٧٩و١٩٨٥ برفع نداء المعركة "جوى آى أسوم" والذى يعنى" النصر لآسام الأم " (Mohant a 1997: 73) وعلى أية حال، فان وضع الأمة فى مرتبة لإلهة الأم ـ على نحو ما يحاول القوميون الهندوس ـ إنما يترك آثارا سلبية على المسلمين حيث لا يتبقى لهم خيار للإيمان بأن فى الهند مكان للتعبير عن التعددية الدينية (Kavirag 1997b)

يرجع البعض صعود "الهندوتفا" أو "القومية الهندوسية" إلى الأزمة العضوية الشاملة التى ألمت بالدولة الهندية، والتى بلغت ذروتها فى تسعينيات القرن العشرين. وهناك دراسات عديدة تناولت الأسباب المتداخلة و التداعيات التى نتجت عن هذه الكارثة (Kavirag 1994,Hasan 1996 .Sumanto Bose 1997, Kothari 1998) ولسنا فى حاجة إلى مناقشتها هنا. ولعل القضايا الأكثر أهمية فى مناقشتنا الحالية ترتبط أساسا بـ " المواد الجيوبوليتيكية الخام " التى استخدمت فى بناء هوية هندوسية جديدة كجزء من مشروع أكبر يجعل الهند أكثر " هندوسية " ألا وهو "مشروع المملكة الهندوسية" The Hindu Rag وبحسب سومانترا بوز (1997:160_161) Bose فان مشروع الهندوتفا برمته يمكن اختزاله فى فكرتين محوريتين ومتكاملتين :الأولى هى رفض وإنكار وقمع أو تحييد أشكال التعدد والتنوع وصور النزاع والشقاق والاضطهاد فى المجتمع الهندى، والفكرة الثانية تقوم على تمجيد وحدة عضوية متآلفة للأمة الهندية (ويفضلونها بترتيبها الطبيعى "الهرمى" وإن لم يكن هذا شرطا فى كافة الأحوال) مع تقديس متزامن لسلطة الدولة الموحدة وغير المجزأة .

واليوم ثمة هوية هندوسية جديدة تحت الإنشاء خاصة فى الولايات الشمالية والوسطى (Mondy,Trivedi and Yagnik 1995, Ludden 1996) وتتدعم هذه العملية دون شك من حقيقة أن هذه الهوية هى أساس الحراك السياسى الذى يشنه الحزب الحاكم فى نيودلهى اليوم ألا وهو حزب الشعب الهندوسى Baharatiya Janata Party وحزب الشعب الهندسى هو الحزب الوحيد المؤلف من كادر سياسى بالمعنى الحقيقى للكلمة. فعلى خلاف الأحزاب الشيوعية وحزب المؤتمر ، وهى الأحزاب التى لها منظمات ذات هوية مميزة على مستوى الواجهة السياسية، يمثل حزب الشعب الذراع السياسى لمنظمة أر. إس. إس " RSSفيلق المتطوعين القوميين"(Rashtriaga swaayamsewak Sangh) ويعمل هذا الذراع على تنفيذ برنامج تلك المنظمة. وقد نشأت منظمة

أر.إس.إس (التى تعرف أيضا باسم العائلة Sanagh Parivar) منذ عام ١٩٢٥ كمنظمة تصوغ الصحوة الهندوسية خاصة بين الشباب وهدفت إلى إرساء الأمة الهندوسية الناهضة على مبادئ عصر الفيدا الذهبى (Graham 1993)

وبعد أن كان حزبا محليا فى مدينة مومباى وجد حزب شيفا سينا (والذى أخذ أسمه تيمنا من اسم أمير حرب فى مملكة ماراثا خلال القرن ١٧م تمكن من هزيمة المسلمين المغول) نفسه اليوم بمثابة القوة السياسية المهيمنة فى ولاية مهراشتارا - من خلال تحالفه مع حزب الشعب الهندوسى - مع استعداده اللعب بالورقة الهندوسية وشحن الموالين من الشباب الذكور الناطقين باللغة الماراثية نحو حرب مقدسة Dahram (yudna) وتبنى ورعاية وطنية هندوسية قادرة على النيل من المسلمين "أعداء الأمة" (أولئك الذين تتطلع أفئدتهم إلى باكستان والذين أشعلوا نيران الاحتفال بالنصر فى استاد مومباى حين هزمت باكستان الهند). كما قام هذا الحزب بتحريك شامل للسلطة (سواء على المستوى الانتخابى أو تهييج الشارع) وإشعال أحداث عنف واسعة، وتشكيل السياسة العامة والمبادرات التشريعية.(Katzeenestein, mehta and thakkar 1998, Gupta 1995)

وقد كرر حزب شيفا سينا استحضار صور المسلمين فى الهند كخونة وعملاء. وإذا استشهدنا بزعيم حزب شيفا سينا "بال ثاكيراى Bal Thackeray والذى أبدى إعجابه فى غيرة مرة بالطريقة التى أحب بها هتلر أمته (المرجع السابق) فسنجده يقول:

يقوم المسلمون خلال تمردهم فى مناطق تركزهم بضرب الهندوس وتدمير معابدهم والهجوم على الشرطة، ومع ذلك نجد الحكومة الهندية تسترضيهم وتستميل الخونة منهم. ومن المعروف أن باكستان صنعت سبع قنابل نووية، لكن هناك قنبلة أخرى صنعتها باكستان فى الهند وهى القنبلة الأكثر خطرا . واليوم ليست باكستان فى حاجة لعبور الحدود لشن الهجوم على الهند، فهناك عشرة ملايين مسلم مواليين

لباكستان مستعدون لإشعال التمرد. وهناك واحدة من قنابل باكستان السبع مختفية داخل أراضى هندوستان (Katzenstein,Mehta and thakkar 1998: 224)

وبحسب بهمباهرى Bhambahri فان حكومة حزب الشعب الهندوسى تقدم دعما لنوع ما من المبادئ الهندوسية، حيث المعابد والطقوس والكهنة و العلامات الدينية المرسومة على جبهات الوزراء وأعضاء البرلمان على مرأى الجميع . لقد قام القديسون الهندوس من رجال الساسة فى ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين بتشريع سياسات الهندوتفا المسلحة التى هاجمت كل الجماعات غير الهندوسية فى البلاد، وصار طقس "تجمع القديسين الهندوس" يستهدف المسلمين كل يوم من خلال طرح قضية "تحرير المعابد "من "سلطة الحكومة" والتهديد باللجوء للعنف لإيقاف ما يسمونه الغزو الثقافى الأجنبى سواء كان إسلاميا أو مسيحيا أو غربيا مشكوكا فيه (Baham- bahri 1994:4)

تقدم دراسة سودهير كاكار Sudhir Kakar والمعروفة باسم "ألوان العنف The Colours of Violence تحليلا ثاقبا لكيفية تشكيل الهوية الهندوسية، والإسلامية كذلك، على مستوى التبرير الجيوبوليتيكى الشعبى من خلال الإشاعة والدين والتعصب، كما يقدم فى هذه الدراسة شرحا لكيفية شحن هذه الهوية من خلال الحنين للتاريخ وفترات العنف والسلام بين الطائفتين (الإسلامية والهندوسية) والقلق المتبادل وعدم الثقة التى أفرزتها عملية التحديث والعصرنة (Sudhir Kakar: 1995 :196)

يقدم كاكار شرحا نقديا للطبيعة المصطنعة لصحوة الهوية الهندية من خلال اختياره لنص خطبة أدلى بها سادهافى ريثامبرا(adhavi Rithambra وتعنى كلمة سادها الكاهن) وهو أحد الخطباء المفوهين لمنظمة أر. إس.إس. لقد جاب ريثامبرا العالم بحثا عن الخلاص الفردى والرفاهية العالمية داخل الديانة الهندوسية. ويحتوى السياق الجيوبوليتيكى العام لخطابه على تحريك الهندوس من أجل بناء معبد الإله رام فى أيودا، حيث ولد على نحو ما يعتقد الهندوس، وما تبع ذلك من تدمير المسجد

البابرى فى ٦ ديسمبر ١٩٩٢على يد آلاف من الكارسيفاكس (عمال سانغ المتطوعين) تقودهم منظمة "المجلس الهندوسى العالمى VHP فيشفا هندو بار يشاد Vishva Hindu Parishad والتى تأسست فى سبعينيات القرن العشرين من أجل شن حملة على الإرساليات التبشيرية المسيحية فى شمال شرق البلاد. كما تزعمهم أيضا حزب شيفا سينا وقاد الجموع زعماء منظمة أر.إس.إس وحزب الشعب الهندوسى وتبع ذلك قتل واسع المدى للمسلمين فى أماكن متعددة فى الهند.

يوضح كاكار من خلال لغة الرطانة فى خطاب ريثامبرا كيف إن الديانة الهندوسية التى يعود عمرها إلى٠٠٠,٥سنة، وتفتقر تقليديا إلى بناء سلطوى مركزى على غرار الكنيسة، وتتسم بكينونة مشتتة وتنوع فى الطوائف ومعتقدات مختلفة قد تم شخصنتها حول عدد بعينة من الآلهة من القديسين من التاريخ الهندى القديم والحديث، وكيف تم تجميع هذه الآلهة من أجل" مثل أنانية " يشترك فيها أعضاء الطائفة الهندوسية. والهوية بالنسبة لريثامبرا تتضمن التعريف أكثر ما تتضمن التحديد الدقيق، وتتضمن الجمود أكثر ما تتضمن الانسيابية أو التدفق، وهذا ما يجعل حدود مجموعة من الجماعات داخل الديانة الهندوسية على درجة قصوى من الأهمية . وفى ذلك يقول كاكار: "إن الغرض الأساسى لريثامبرا هو ضم كافة الطوائف الهندوسية التى ولدتها الهندوسية، حيث تم تمجيد الإله شيفا Shiva كبير آلهة الطوائف الشيفية ورفعت مكانته إلى مكانة الإله كر يشنا أكثر الإلهة شهرة لدى طوائف الفيشنافاس Vaishnavas وسعى المجتمع الهندوسى بناء على ذلك إلى توسعة نفوذه بضم كافة أتباع الديانات الأخرى التى ولدت على الأراضى الهندية. وهذه الديانات هى الجانية والسيخية والبوذية. وقام ريثامبرا بتمجيد الأسماء المقدسة فى كل ديانة مثل المها فيرا Mahavira وبوذا، وجورو جوبند سينغ، آخر زعيم للسيخ وقائدهم العسكرى والذى تميز مثله فى ذلك مثل باندا بايراجى Banda Bairagi فى قضاء حياتهما فى صراع أمام الحكام المغول المسلمين. أما الطبقات المتدنية من الهريجان Harijans أو الطبقات المجدولة (المعروفة سابقا باسم المنبوذين) فقد لقيت الاعتراف من خلال تمجيد "فالميكى" الكاتب

الأسطورى لملحمة الرامبانا والذى تم ترقيته مؤخرا إلى مصاف القديس الراعى للهريجان. هكذا تم اعتبار كل آلهة وأبطال الماضى والحاضر كأبناء للهند الام، يتوجه إليهم الجميع بالدعاء الأخير فيرسمون حدود المجتمع الهندوسى المتفقة مع حدود القومية الهندوسية (Kakar 1995:200-201)

لم تكن ريثامبرا على أية حال مهتمة بجعل مستمعيها الهندوس على دراية بهويتهم الجمعية الثقافية، فالقومية بالنسبة لها ليست محصلة نهائية بل عملية متصلة تحيط بها قوى معادية سواء من الخارج أو من الداخل. ففى الخطاب الهندوسى المسلح، والتى تعد خطب ريثامبرا نموذجا معبرا عنه، تعبر كل من السلطة وأشكال العنف عن نفسيهما بشكل واضح عبر سياسات مكانية (جغرافية)، فالطقوس وأعمال العنف مرتبطة بشكل تفصيلى بالطقوس الخاصة بانتهاك "أراضينا" من قبل الأغراب كإلقاء بقرة مذبوحة فى بقاع مقدسة للهندوس أو إلقاء خنزير مذبوح فى بقاع مقدسة للمسلمين (Vander Veer 1996: 259) وبالنسبة لريثمبرا فان حضاراتنا (الهندوسية) لم تكن أبدا حضارة هدم... فحين تجد نفسك أمام أطلال، وحين تصل إلى آثار مهدمة ستجد بصمات الإسلام، أما حين تجد نفسك أمام الإبداع فستجد نفسك أمام الهندوسية. لقد كنا دوما محكومين بالقول المأثور "العالم أسرة واحدة " وبينما قدمت ريثامبرا الهندوس فى صورة مثالية كشعب مبدع ، حنون، ثاقب الرؤية، متسامح دينيا، وحطت من شأن المسلمين وقدمتهم ليسوا فقط كشياطين ذوى نزعة تدميرية موروثة بل حذرت من أنهم إن لم يندمجوا فى المجتمع الهندوسى وظلوا "كالسكر فى اللبن" رافضين الذوبان فان عليهم أن يواجهوا مصير حبة من الليمون قطعت ثم عصرت فجفت ثم ألقى بها على كومة من القمامة. و ماتحاول ريثمبرا توصيله هو أن القوميين الهندوس يقبلون بأن تصبح المجموعات غير الهندوسية جزءا من الهند لكن بشرط اندماجها فى الثقافة الهندوسية. فالهندوسية بالنسبة للقوميين الهندوس هى منبع هوية الهند. وهى وحدها قادرة على تكوين الاندماج والترابط القومى. ومثل هذه الرؤية تطرح بشكل حتمى السؤال التالى من هو الهندوسى؟

يذهب سافاركار Savarkar على نحو ما أشرنا سابقا إلى أن الهندوسى هو ذلك الشخص الذى يبجل أرضه الممتدة من نهر السند إلى المحيط الهندى باعتبارها أرض الآباء المقدسة ,(Varshny 1993:231) وحتى يصبح الشخص أو الجماعة مؤهلا لأن يكون هندوسيا فلابد من استيفاء ثلاثة معايير:

- البعد المساحى (الأرض الواقعة بين نهر السند والبحار)
- الانتماء لأصل جينى واحد (أرض الأباء)
- ديانة واحدة (الأرض المقدسة)

ويمكن إدراج الهندوس والسيخ والجينيين والبوذين ضمن هذا التعريف لأنهم ولدوا على أرض الهند ويحققون الشروط الثلاثة، أما المسلمون والمسيحيون واليهود والبارسيين (من الذين تم امتصاصهم بالفعل) فلا يحققون سوى شرطين فقط، إذ لا تمثل الهند لهم الأرض المقدسة.

وإذا كانت لدى المسلمين الرغبة فى أن يصبحوا جزا من الأمة الهندية فيجب عليهم الكف عن الإصرار على تمييز أنفسهم، والإذعان لتحقيق الشروط الأساسية لإكمال عملية الاندماج وهى:

- القبول بلا شرط اعتبار الهندوسية مركزا للحضارة الهندية.
- الاعتراف بالشخصيات الهندوسية الأساسية وفى مقدمتهم الإله رام و تبجيلهم كأبطال لحضارة البلد الذى يعيشون فيه، وليس مجرد النظر إليهم كشخصيات دينية هندوسية.
- الإقرار بأن حكام المسلمين (الغزاة) قاموا خلال الفترة من ١٠٠٠إلى ١٨٧٥ بتدمير أعمدة الحضارة الهندية وخاصا المعابد الهندوسية فى مختلف أرجاء البلاد.
- سحب كافة الادعاءات فى الأحقية فى مميزات دينية مثل الخضوع لقوانين إسلامية خاصة بمجال الأحوال الشخصية أو مطالبة الدولة بمنح مالية لدعم مؤسساتهم التعليمية.

وموخرا قامت منظمة أر.إس.إس بتقديم برنامج متكامل لتحقيق حشد هندوسى وذلك بإقامة مراكز لمنظمة بجرانج دال Bajrang Dal اليمينية المتطرفة فى كافة المناطق الإدارية البالغة عددها ٧٥٠ وحدة والوحدات الفرعية البالغ عددها ٧٥٣١، وتعرف هذه المراكز باسم بال أوباسانا كندراس bal upasana kendras وتعنى مراكز تبجيل القوة) حيث يتم تدريب الشباب الهندوس على رياضة الجودو والكاراتيه وغيرهما من المهارات القتالية من أجل تحضيرهم للرد بفاعلية على كل من عملاء المخابرات الباكستانية والمسيحيين وعملاء الغزو الثقافى Bahambhri1998 :4 وبغض النظر عن تقاليد التسامح فى الهندوسية فتشير التقارير إلى تورط منظمة "مجلس الهندوس العالمى VHP ومنظمة بجرانج دال فى التوتر والاضطرابات التى تشهدها الولايات الحدودية (The Tribune:1998:8) وعديد من البلدان والقرى فى ولاية جوجارات، وبدرجة ما فى ولاية راجستان. وقد اشتكى المسيحيون والمسلمون فى هذه المناطق من تعرضهم لاعتداءات بدنية ومضايقات اجتماعية وثقافية. وتتضمن عمليات التطهير التى تقوم بها تلك الجماعات الهندوسية اتهام الشباب المسلم بخطف فتيات من طوائف أخرى وإجبارهن على اعتناق الإسلام، فضلا عن شن حملات على مستوى الولاية ضد الزواج المختلط بين الطوائف وضد اعتناق الهندوس للإسلام، وشن حملات مماثلة لمقاطعة اقتصادية للمنتجات والخدمات الإسلامية وتوزيع ملصقات ناصعة اللون تحمل علامة OM على سيارات الريكشا (سيارات النقل الشعبى الصغيرة الحجم) لتميزهم عن سيارات غير الهندوس. وفى مناطق من راجستان كان رد فعل شباب إحدى طوائف الأقليات فى الولاية تأسيس جماعة أصولية إضافة إلى شن حرب من الكلمات أشبه بنار تحت الرماد (المرجع السابق). وتؤدى مثل هذه الأوضاع الملتهبة فى مناطق الحدود إلى خلق حالة من الهياج فى وسائل الإعلام وذلك لأن كلا من جوجارت وراجستان هما من ولايات الحدود المشتركة مع باكستان، وتنشط فيهما المخابرات الباكستانية. وتنتج هذه الحالة من الاضطراب والتوتر نتيجة شعور مزعج، حقيقى أو متخيل، يصب فى النهاية فى صالح المخابرات الباكستانية وليس فى المصالح طويلة الأمد للهند العلمانية (المرجع السابق).

جيوبوليتكية " القومية النووية ":

انفجار التصورات الجيوبوليتيكية

فى أعقاب الاختبارات النووية الخمسة التى أجرتها الهند والتى واكبت العيد "الميمون" لميلاد بوذا Buddha purnima والموفق ١١ مايو ١٩٩٨لم يعد هناك مكان للحجج الأخلاقية أو السياسات ذات المرجعية الروحية، بل حلت سياسة الأمر الواقع Realpolitik محل السياسات الأخلاقية Moralpolitik وعلى خلاف الاختبار الأول الذى أجرته الهند فى عام ١٩٧٤ لم يعد هناك لاحقة تتبع توصيف تلك الاختبارات بأنها " سلمية " لقد سار الاختبار الثانى المعروف باسم بوخران ٢ Pokharan II إختبارا نوويا. بل فى المقابل جرت محاولات حثيثة من أجل الافتخار بالسلاح النووى وتعظيم أهمية " القنابل التى تحمى السلام" التى ستقدم للهنود الشعور بالأمن والثقة بالنفس. وبحسب رئيس وزراء الهند السيد أتال بهارى فاجبايي فان الهند جربت الخيار النووى كسلاح رادع ضد أية مخططات تمارسها قوى خارجية فى البلاد. وبحسب وجهة نظره فان قوة الدولة بأسرها قد سخرت من أجل إنجاح تلك التجارب، وهو ما استغرق سنوات من أجل إنجازه (Vagpayee 1998) وكرد فعل على التعليقات التى وصفت الأمر بأنه اختراع لقنبلة "هندوسية " علق فاجبايي قائلا "إن مثل هذه الشائعات تهدف إلى إحداث شرخ وانقسام فى البلاد، فقد شارك فى اختراع القنبلة علماء وفنيون ينتمون إلى مختلف الطوائف الدينية، كما إن كبير علماء الذرة فى الهند ، الدكتور عبد الكلام، رجل مسلم. فالقنبلة تهدف إلى حماية البلاد بأسرها(The Hindu , New Delhi ,31 may 1998: 1) لقد كان المعيار الذى قاد الهند لإجراء هذه التجارب بحسب فاجبايي هو تحقيق الأمن القومى ونتيجة لذلك يقول :

"صارت الهند اليوم دولة نووية، وهذا واقع لا يمكن إنكاره، ولم يكن هذا منحة طلبناها من أحد ولا عطية قدمها الآخرون لنا، إنما نتاج جهد وعزم علماء ومهندسى الأمة. وهذا السلاح النووى هو استحقاق للشعب الهندى الذى يمثل سدس سكان

البشرية. بهذا السلاح النووى ستتدعم قدراتنا وستنصهر مع شعورنا بالمسؤولية. وليكن معلوما أنه ليس فى نيتنا استخدام هذه الأسلحة فى العدوان أو تشكيل تهديد ضد أى دولة، فهذه الأسلحة هى للدفاع عن النفس من أجل ضمان ألا تتعرض الهند لتهديد أو إجبار نووى من قبل أحد، كما أنه ليس فى نيتنا الانجرار إلى سباق تسلح نووى فى المنطقة (Vagpayee 1998: 3)

كان الجدل والنقاش فى الهند على الأقل فى الفترة التى أعقبت الاختبارات النووية يصب بشكل واضح فى صالح الموالين من الصقور وهم فى المقام الأول من الغوغائيين، الذين يستخدمون مفردات هجومية غامضة، وذات خطاب لامرونة فيه، ويفاخرون بوطنيتهم المناهضة للغرب. وقد قدمت نخبة السياسة الخارجية الهندية التبرير الجيوبوليتيكى العملى الذى يفسر لماذا لجأت الهند إلى إجراء التجارب النووية وقد عللت ذلك بأنه رد فعل على الأوضاع الأمنية المحيطة والتى تجعل الهند أمام تحد لمواجهة التهديدات التى لم تترك لها بديلا للبحث عن مصدر تعتمد فيه على نفسها من أجل تأمين وحدة أراضى البلاد وتحقيق أمنها.

وبحسب ديكسيت G.N.Dixit وزير الخارجية الهندى الأسبق فإن " الأسباب التى دفعت الهند إلى تسليح نفسها نوويا وإجراء تجارب يومى ١١و ١٣ مايو ١٩٩٨ تأتى من خلال مراجعة البيئة الأمنية المحيطة بالهند والممتدة من جزر دييجو جارسيا فى الغرب عبر قوس محيط يمر بباكستان والخليج العربى ومضيق هرمز وصولا إلى بحر الصين الجنوبى. وهناك عدد من الدول التى لديها إمكانات نووية فى هذا الإقليم، وعلى رأسها باكستان التى هددت باستخدام قدرتها النووية والصاروخية ضد الهند أكثر من مرة (Dixit 1998: 16)

وقد حاول البعض بصوت خافت تذكير النخبة السياسية الهندية بمصادر الخطر الداخلية التى تهدد الأمن القومى، مثل الصراع الطائفى، والجرائم السياسية، والفساد، والفقر، والجوع، والبطالة، وتزايد الاستقطاب الاجتماعى ـ الاقتصادى،

والتدهور المؤسسى، والسجل السيئ لتنمية الموارد البشرية، والاغتيالات والمذابح السياسية، والعنف المضاد (D'monte 1998) لقد خاف أصحاب هذه الأصوات الخافتة من أن يتهموا من قبل مناصرى الخيار النووى بأنهم "خونة وعملاء" وذوى هوى غربى وأعداء للأمة وعملاء للمخابرات الأمريكية.

وفى وسط هذا الزخم الحماسى القومى المدعوم بشحن من الصقور، ظهر وعى مصطنع فى الهند وتشابه فى الآراء المتفقة مع التوجه الحكومى بدعم المشروع النووى، فى ظل موقف ضعيف للغاية للحركة المناهضة لإجراء التجارب النووية، وتجاهل واسع المدى بشأن حجم التدمير الذى يمكن أن يسببه السلاح النووى، الأمر الذى جعل الخطاب الشعبى أسير تلك الآراء. وقامت صحيفة الصنداى أوبسيرفوز الصادرة فى نيودلهى ومومباى بين يومى ٢٣و٢٤ مايو ١٩٩٨ بإضافة ملحق خاص من أربع صفحات يحمل توقيعات مؤيدة وضعت جميعها تحت عنوان " السيد رئيس الوزراء نحن معك " وحملت جميعها رسائل تهنئة من مختلف الشركات الخاصة (شركات السيارات والمجوهرات ووكالات الشحن والمطابع وخدمات التاكسى وخدمات الأمن الصناعى ... وغيرها) فضلا عن الأفراد، جاء فيها:

"نشعر اليوم بفخر لا نظير له بأننا هنود، فالتجارب النووية الخمسة الناجحة طورت من قدرتنا النووية المحلية وأظهر علماؤنا أننا فى نفس مصاف أفضل شعوب العالم . لقد أظهرت للعالم يا سيادة رئيس الوزراء حين أعطيت الأمر بإجراء التجارب أننا قادرون على الدفاع عن أمتنا بغض النظر عن تداعيات ذلك. وسيدرك العالم قريبا صوب موقفنا، صحيح أننا نحب الأهيمسا (Ahimsa اللاعنف) إلا أننا نعرف كيف ندافع عن أنفسنا إذا هاجمنا الآخرون. نحن نؤمن فى التعايش السلمى لكننا نحضر أنفسنا للحرب، صحيح أننا نكره الأسلحة النووية، لكننا لن نتخلى عن أسلحتنا النووية قبل أن تتخلى عنها بقية دول العالم أيضا (Sunday Observer Special 1998)

وكان من الواضح أن رعاة القومية النووية والمدافعين عنها ليس لديهم اهتمام كبير للالتفات للتداعيات البيئية والصحية التى تأثر بها سكان المناطق القبلية الذين

ضمت أراضيهم حزام مناجم اليورانيوم بمنطقة جادوجودا فى جنوب شرق ولاية بيهار، وتعرضوا لأخطار جسيمة من أجل استمرار البرنامج النووى (Sarin 1998) ولزم الصمت كل من أصحاب التوجهات الفكرية الراديكالية والمتحفظة ومن بينهم الناشط فى مجال حقوق الإنسان سومين جوها Saumen Guha الذى يقول:

"لقد كان التعاون العسكرى ـ الصناعى ـ الأكاديمى دائم العمل. ومن بين هؤلاء نجد اسم هومى بهابها Homi Bhabha عالم الهند الرائد فى الطاقة النووية والذى ترأس هيئة الطاقة النووية خلال ستينات القرن العشرين، والذى وقف خلف مشروع امتلاك القنبلة النووية مثله مثل عدد من الجنرالات المتقاعدين إلى جانب صقور المحللين فى مجال الدفاع، ومتكاتفين أيضا مع مراكز الأبحاث والدراسات السياسية. ففى عام ١٩٧٤، حين قامت الهند بإجراء أول اختبار نووى، فى بوخران كانت رئيسة الوزراء أنديرا غاندى آنذاك تواجه مشكلات داخلية، واستغلت إجراء التجارب لتدعيم سلطتها الداخلية من خلال مغازلة التوجهات القومية السطحية. وبناء على ذلك وبمرور السنين ظهرت مؤسسات صناعية مثل تاتا ولارسين وتوربو Tatas, Larasen & Tourbo والتى فازت بعقود ضخمة فى شؤون الدفاع وظهرت كجزء أساسى من مركب التحالف العسكرى ـ الصناعى ـ الأكاديمى، ذلك التحالف الذى دفع الهند إلى المدار النووى. ومن الجدير بالذكر أن حكومة حزب الشعب الهندوسى تعانى الآن من الاهتزاز، وكانت التجارب الهندية هى ما تحتاجه للحصول على قدر من الاستقرار خاصة أن هذه الحزب دوما ما كان يطالب بامتلاك الهند للقنبلة النووية (Banergee 1998:9) وقد ساهم فى خضم ما سبق كبار الكتاب والمفكرين والخبراء فى الوسط الإعلامى وانخرطوا فى جدال وتبرير جيوبوليتيكى داعمين للاختبارات النووية Karlekar 1998, Ghatate 1998 Prakash 1998, Singh 1998, Gupta 1998, Bahargava 1998,Mehta 1998) ومن بين هؤلاء الكتاب يقول براكاش : Prakash

"على أولئك الذين ينتقدون الهند أن يتذكروا أن الصين الشيوعية قد أحاطت بنا بقوة نووية متحالفة مع باكستان (التى تقوم أيديولوجية بقائها على "كراهية الهند") ومتحالفة مع ميانمار، مهددين بذلك طرق الهند التجارية فى المحيط الهندى، كما قامت

الصين بنشر صواريخ نووية فى التبت قبالة الهند، كما مكنت التكنولوجيا الصينية باكستان من اختبار صواريخ غورى Ghauri وهى أسلحة موجهة فقط ضد الهند (Prakash 1998) .

كما يمضي جين Gain قائلا :

"على أولئك الذين يقارنون بين باكستان والهند من زاوية قدرات الأسلحة النووية أن يتذكروا أن هذا "التعادل المصطنع" لا يعبر بدقة عن وزن الدولتين. فالهند ليست مجرد كيان مساحى أو عرقى أو دينى، إنها وريثة حضارة قديمة وقوية ونابضة بالحياة، بينما باكستان ليست سوى فرع حديث انشق عن جسد الهند، ولا تزيد مساحتها عن سبع مساحة الهند، وليس لديها ميراث ديموقراطى حقيقى ولا يمكنها إدعاء المساواة مع الهند (Jain 1998)

يمكن أيضا استحضار ما كتبة رانجان جوبتا Ranjan Gupta مراسل الشؤون الخارجية والكاتب فى صحيفة ذى بايونير The Pioneer إحدى أوسع الصحف اليومية انتشارا فى الهند، ومن كتاباته تتضح التبريرات الجيوبوليتيكية المعقدة التى قدمها الخبراء والناطقون باسم السياسة الخارجية فى الحكومة الائتلافية التى يقودها حزب الشعب الهندوسى، وقد تم نشر هذه التبريرات عبر وسائل الإعلام بين "جماهير الأمة الهندية المحبة للسلام" حيث يقول جوبتا:

"باختيارها السلاح النووى دليلا على "عظمتها"، تكون الهند قد اختارت الطريق نحو النجاح، ويجب أن ننظر إلى التحدى الذى تواجهه الهند من منظور تاريخى. وفى هذا يجب أن نعرف أنه لم يكن بوسع أى حزب سوى حزب الشعب الهندوسى، المؤمن بالمصير القومى، اتخاذ قرار صعب كهذا ...ربما ستحصل الهند القوية الآن على حب قليل لكنها ستحصل على تقدير ومهابة أكبر... لقد وضع امتلاك السلاح النووى الهند فى نفس مصاف القوى الأسيوية العظمى مثل الصين، وقد يتطلب الأمر قرنا من مشروعات التحرير الاقتصادى للوصول إلى تلك المكانة التى وصلنا إليها بامتلاك السلاح النووى (Gupta 1998:8)

ويرى جوبتا أن الأصدقاء الحقيقيين للهند على المستوى الدولى هم أولئك الذين لم يقدموا دعم امتلاك السلاح النووى فقط بل أولئك الذين أظهروا التزاما واحتراما لعظمة الأمة الهندية، وتبعا لذلك يخلص إلى القول:

"لقد أثبتت فرنسا أنها أفضل أصدقاء الهند وقت الشدة... وكما تمثل القنبلة الباكستانية الإسلامية تهديدا أمنيا لإسرائيل تمثل نفس التهديد للهند. وبين الهند وإسرائيل مصالح جيواستراتيجية مشتركة، فى مقدمتها أن الإسلام الجهادى يمثل تهديدا للهند وإسرائيل على السواء. لقد تم سحق الهندوس كما تم سحق اليهود وعانى كل من الهندوس واليهود من الحصار الفكرى والاضطهاد وسوء التقدير ... ولابد للهند من أن تكافئ الصديق وتعاقب العدو، ولعل هذا وقت مناسب لقطع أواصر كافة العلاقات مع تلك الدول البائدة مثل بريطانيا التى استغلت الهند من خلال الاستعمار وعملت الآن على تعطيل تحقيق طموحها النووى (Gupta 1998:8)

شدد جوبتا على الأهمية الجيوبوليتيكية لاختبارات بوخران ٢ من زوايا جغرافية وتاريخية. ودعى قراءه للابتهاج بحقيقة أن الهند تمكنت فى النهاية من العثور على غايتها، فالتفجيرات النووية تتجاوز أهميتها اللحظية وصولا إلى السعى لمواجهة الظلم العالمى ومواجهة الهيمنة الأنجلوأمريكية... وبدت فى الأفق معالم مشؤومة للضغط على الهند عقابا لها على إجراء التجارب النووية. وتعتقد بعض الدول الغربية أن الوقت قد حان لبلقنة الهند وتفكيكها حتى لا تجرؤ على تحد الهيمنة الغربية (Gupta 1998:8)

أما الهنود غير الوطنين ممن فشلوا فى فهم المغزى التاريخى للحدث وغيرهم من الأحزاب السياسية سواء داخل البرلمان أو خارجه، والتى انتقدت إجراء التجارب النووية نتيجة " اعتبارات مصلحية ضيقة " فقد وصفوا بأنهم ضحية ذات الاعتبارات الضيقة التى أدت بالمير قاسم Mir Kasims لان يبيع الهند لإنجلترا. كما تم التعبير عن الفكرة القائلة بأن الهند تمثل تحديا للقوى الغربية، من خلال رسم كاريكاتورى حمل عنوان "ليست واحدة منا " فى إشارة إلى أن الهند ليست إحدى الدول الغربية وذلك

على نحو ما جاء فى كاريكاتور ذى صنداى بايونير بتاريخ ٢٦ يوليو ١٩٩٨(شكل ١٧) وفى هذا الرسم تم تصوير الهند وقد هددتها ثلاث شخصيات محيطة تمثل تونى بلير وجاك شيراك وبيل كلينتون، وهم قادة القوى النووية الغربية التى تريد المحافظة على هيمنتها على السلاح النووى .

لقد شكلت التجارب النووية تفجيرا فى التصورات الجيوبوليتيكية بين القوميين الهندوس بالمثل. ففى أعقاب الإعلان عن أن الهند أصبحت "دولة نووية "اقترحت منظمة المجلس الهندوسى العالمى VHP حمل بعض تراب بوخران كتربة مقدسة ووضعه فى وعاء مقدس والسير به فى حملة شعبية عبر أرجاء البلاد. كما اقترحت نفس المنظمة بناء معبد للقنبلة فى ذات المكان الذى تم فيه إجراء التجارب الخمس.

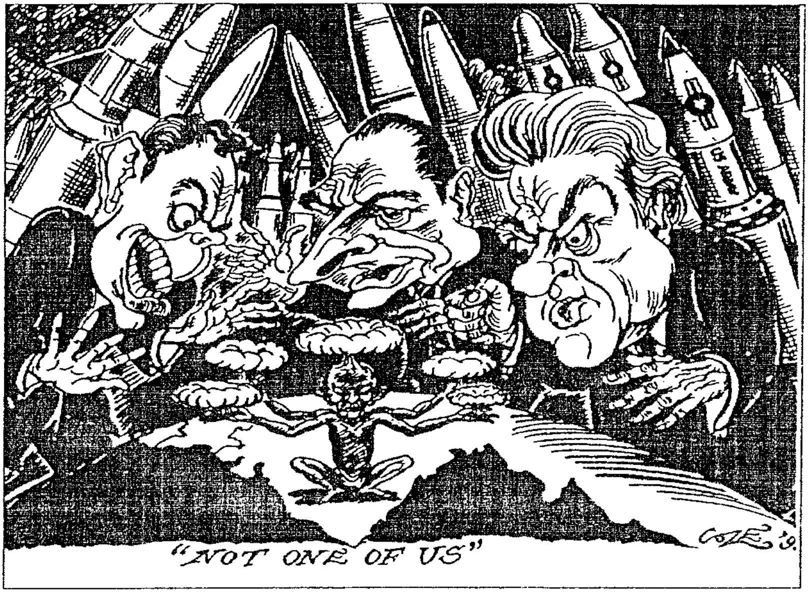

شكل (١٧) "ليس واحدا منا"

الخلاصة

تناول هذا الفصل تمثيل الهند فى مرحلة ما بعد الاستقلال، كما ألقى الضوء على "سفينة المجتمع" المؤلفة من مجتمعات داخل مجتمعات داخل مجتمعات (Larson 1997:285) وأوضح الفصل كيف أن هذه السفينة يسيطر عليها مضمون أحادى وتاريخ خطر ومغزى ومسار غير قابل للنقاش. وهى صفات تلقى بتحديات فكرية وسياسية جسيمة على التصورين الجيوبوليتيكيين الرئيسيين المتعلقين بالهوية القومية للهند ألا وهما التصور القومى العلمانى والتصور القومى الهندوسى. يحاول كل تصور رسم مدى كامل من الأشكال المختلفة للخطاب السياسى والافتراضات والمعتقدات الخاصة بالمرافئ الدينية والثقافية وتجليات الحضارة الهندية. ويقاوم كل من التصورين التوجهات التفككية المركزية فى الدولة فى الوقت الذى تتوحد فيه الدولة حول التزام صارم بالحفاظ على الوحدة المساحية للفضاء الجيوبوليتيكى الهندى، ويسعى كلا التصورين إلى تحقيق ذلك بطرق مختلفة. ومن الواضح أن مثل هذه التصورات أو الأفكار لا يتم العثور عليها "صدفة" أو كمجرد نصوص دينية أو علمانية أو وثائق سياسية مصبوغة بصبغة حكومية، بل تنبعث من الممارسات والأفعال الاجتماعية وتتغذى منها فى ذات الوقت (Agnew 1998:125)

ومع هذا لا يمكن القول إن القوميين العلمانيين أو القوميين الهندوس يمثلون كافة أطياف التصورات الجيوبوليتيكية وتنويعاتها المنتشرة عبر ما هو مقدس فى الهند، لكنهما الأكثر تمييزا للجغرافيات البشرية ـ الثقافية المتنوعة. ويتوقف التمييز بين ما هو علمانى وما هو هندوسى فى هذه التصورات على حجم التصورات الإقليمية والمحلية الممتدة من كشمير إلى الشمال الشرقى على سبيل المثال. كما تتوقف على سمات هذه

التصورات من جيل لآخر وعلى الأساطير التى تصنعها، والطرق التى تنتقل عبرها من جيل لآخر فى صورة وعى عام أو توجيه شعبى نحو الفعل وكذلك على الطرق التى تتكيف بها مع التحديات والسياقات التاريخية المتغيرة، ودرجة الشدة التى تتنافس بها تلك التصورات مع بعضها البعض .

وفى النهاية يمكن القول إن الخطاب القومى الهندوسى يشهد مدا كبيرا ويبدو أن السبب فى ذلك يعود إلى عوامل عدة خاصة الحماسة المتعاظمة تجاه التوترات " الانفصالية " التى وقعت فى ثمانينات القرن العشرين فى كل من البنجاب وجامو وكشمير، وزيادة حدة الكارثة التى شهدتها الإدارة السياسية، والفراغ الأيدلوجى الذى عانته السياسة فى الهند نتيجة " أزمة العلمانية " (Bhargava 1998) ويقدم القوميون الهندوس أنفسهم كبديل مؤسسى وأيديولوجى لما يسمونه " العلمانية الزائفة " التى عاشتها البلاد منذ التقسيم، ويكشف الخطاب والممارسات الممثلة لأيديولوجية "الهندوتفا" عن تداخل مفاهيم السلطة والدين والمساحة الجغرافية معا بطريقة معقدة ومترابطة. وقد سار من المؤكد أن الخطاب الجيوبوليتيكى يتجاوز فى تعبيره مجرد تعيين تأثير جغرافى معين على وضع داخلى أو سياسة خارجية وأنه لكى تعين وتحدد اسم مكان فى الهند عليك أن تراجع بداية عددا من السرديات والموضوعات والأفكار(Tuathail and Agnew 1992 : 195) وكى تعطى مجتمعا سكانيا فى الهند أو منطقة من المناطق صفة " الهندوسية " فعيك أن تحدد ليس فقط الطقوس بل صياغتها من زاوية " جغرافيتها المقدسة " و "أصالة سياستها" ونمط السياسة الخارجية التى تتطلبها "طبيعتها " . وبالمثل تحتفظ التصورات الجيوبوليتيكية بقدر من المغزى و"الشرعية "من خلال التنويع الجيوبوليتيكى الشعبى، الذى يعتمد بدرجة أكبر على المشاعر الدينية والسرديات أكثر ما يعتمد على التنويع الجيوبوليتيكى الرسمى.

وقد قدمنا فى هذا الفصل تحليلا لمختلف أشكال التسويغ الجيوبوليتيكى لدعم الاختبارات النووية، وبصفة خاصة من قبل الحكومة الائتلافية التى قادها حزب الشعب

الهندوسى، وقد اتفق تحليلنا مع ما وصل إليه نيومان (Neumann 1997:148) من أن الانتقال الجيوبوليتيكى والذى نلاحظه الآن فى جنوب آسيا بعد تفجيرات بوخران٢ لايعنى تغيرا فى توازن القوى بالدرجة الأولى بقدر ما يعنى تغيرا فى توازن التهديد والتحدى. ورغم أن مراجعة سياسة الهند الخاصة بعدم الانحياز قد أوضحت أن الممارسات المرتبطة بإنتاج المعرفة تساعد على ممارسة حنكة سياسية إلا أنها تمثل فى ذات الوقت جزءا من مشروع جيوبوليتيكى أكبر يهدف إلى تدعيم قوة الدولة.

قائمة المراجع

Agnew, J. (1998) *Geopolitics: Re-visioning World Politics*, London, Routledge.

Banerjee, Paula (1998) 'To re-instate historians in the history of border', paper presented a a seminar on 'Asian geopolitics: borders and transborder flows' at New Delhi, 23 and 24 March, 1998, organized by Maulana Abul Kalam Azad Institute of Asian Studies, Calcutta

Banerjee, Partha (1998) 'The bomb is not everything', *The Statesman*, New Delhi (editorial) 29 May: 9.

Behera, N. C. (1998) 'Perpetuating the divide: political abuses of history in South Asia' *Indian Journal of Secularism*, 1(4): 53–71.

Bhambhri, C. P. (1998) 'BJP agenda: hidden or real?', *The Pioneer*, New Delhi, 15 April.

Bhargava, G. S. (1998) 'Journalists' euphoria over Pokharan', *Mainstream*, 36(23): 8–9.

Bhargava, R. (ed.) (1998) *Secularism and Its Critics*, Delhi, Oxford University Press.

Bose, Sugata (1997) 'Nation as mother: representations and contestations of "India" in Bengali literature and culture', 50–75 in S. Bose and A. Jalal (eds) *Nationalism Democracy and Development: State and Politics in India*, Calcutta: Oxford University Press

Bose, Sumantra (1997) '"Hindu Nationalism" and the crisis of the Indian state: a theoretical perspective', 104–64 in S. Bose and A. Jalal (eds) *Nationalism, Democracy and Development: State and Politics in India*, Calcutta: Oxford University Press.

Brecher, M. (1968) *India and World Politics: Krishna Menon's View of the World*, London: Oxford University Press.

Cohn, B. S. (1997) *Colonialism and Its Forms of Knowledge: The British in India*, Delhi: Oxford University Press.

D'Monte, D. (1998) 'After the hangover: the costs of nuclear club membership', *The Indian Express*, Chandigarh, 29 May: 8.

Dijkink, G. (1996) *National Identity and Geopolitical Visions: Maps of Pride and Pain*, London: Routledge.

Dixit, J. N. (1995) *Anatomy of a Flawed Inheritance: India-Pakistan Relations 1971–94*, Delhi: Ajanta Publications.

——— (1998) 'Blasting a straitjacket', *Outlook*, New Delhi, 1 June.

Fisher, M. H. (1993) *The Politics of the British Annexation of India 1757-1857*, Delhi: Oxford University Press.

Ghatate, N. M. (1998), 'No first use', *The Pioneer*, New Delhi, 19 May: 9.

Gill, K. P. S. (1998) 'Give internal security the top priority', *The Pioneer*, New Delhi, 13 June: 8.

Graham, B. (1993) *Hindu Nationalism and Indian Politics: The Origins and Development of the Bharatiya Jana Sangh*, Cambridge: Cambridge University Press.

Gupta, D. (1995) 'The political jungle: Shiv Sena tiger roars to success', *The Times of India*, New Delhi, 12 August.

Gupta, R (1998) 'India's metamorphosis into a hard state', *The Pioneer*, New Delhi, 12 June.

Hasan, M. (1996) 'The myth of unity: colonial and national narratives', 185–208 in D. Ludden (ed.) *Making India Hindu: Religion, Community, and the Politics of Democracy in India*, Delhi: Oxford University Press.

Houbert, J. (1989) 'India between land and sea', *Current Research on Peace and Violence* XII, 4: 201–11.

Jain, S. (1998) 'Pakistan's "cricket match" mindset', *The Pioneer*, New Delhi, 18 June: 8.

Jalal, A. (1995) *Democracy and Authoritarianism in South Asia: A Comparative and Historical Perspective*, Cambridge: Cambridge University Press.

—— (1997) 'Exploding communalism: the politics of Muslim identity in South Asia', 76–103 in S. Bose and A. Jalal (eds) *Nationalism, Democracy and Development: State and Politics in India*, Calcutta: Oxford University Press.

Kakar, S. (1995) *The Colours of Violence*, New Delhi: Penguin Books.

Karlekar, H. (1998) 'Are they suffering from a death wish?', *The Pioneer*, New Dehi, 19 June: 8.

Katzenstein, M. F., Mehta, U. S. and Thakkar, U. (1998) 'The rebirth of Shiv Sena in Maharashtra: the symbiosis of discursive and institutional power', 215–38 in A. Basu and A. Kohli (eds) *Community Conflicts and the State in India*, Delhi: Oxford University Press.

Kaviraj, S. (1994) 'Crisis of the Nation-State in India', *Political Studies*, XLII: 115–29.

—— (1997a) 'The modern state in India', 225–50 in M. Doornbos and S. Kaviraj (eds) *Dynamics of State Formation: India and Europe Compared*, New Delhi: Sage.

—— (1997b) 'On the structure of nationalist discourse', 298–335 in T. V. Sathyamurthi (ed.) *State and Nation in the Context of Social Change*, Delhi: Oxford University Press.

Kothari, R. (1997) 'Fragments of a discourse: towards conceptualization', 38–54 in T. V. Sathyamurthi (ed.) *State and Nation in the Context of Social Change*, Delhi: Oxford University Press.

—— (1998) *Communalism in Indian Politics*, Ahmedabad: Rainbow.

Krishna, B. (1995) *Sardar Vallabhbhai Patel: India's Iron Man*, New Delhi: Indus.

Krishna, S. (1994) 'Cartographic Anxiety: Mapping the Body Politic in India', *Alternatives* 19: 507–21.

Kumar, R. (1997) 'State formation in India: retrospect and prospect', 395–410 in M. Doornbos and S. Kaviraj (eds) *Dynamics of State Formation: India and Europe Compared*, New Delhi: Sage.

Larson, G. J. (1997) *India's Agony Over Religion*, Delhi: Oxford University Press.

Ludden, D. (1996) (ed.) *Making India Hindu: Religion, Community, and the Politics of Democracy in India*, Delhi: Oxford University Press.

Mahanta, A. (1977) 'The Indian state and patriarchy', 87–131 in T.V. Satyamurthi (ed.)

State and Nation in the Context of Social Change, Delhi: Oxford University Press.

Maheshwari, A. (1998) 'The Face Behind the Mask', *Hindustan Times Sunday Magazine*, New Delhi, 8 August: 1.

Malik, Y. K. and Singh, Y. B. (1994) *Hindu Nationalists in India: The Rise of the Bharatiya Janata Party*, New Delhi: Vistaar Publications.

Mehta, R. (1998) 'Wholly positive development from nationalist point of view', *Mainstream* 36(23): 10.

Metcalf, T. R. (1995) *Ideologies of the Raj*, Cambridge: Cambridge University Press (The New Cambridge History of India).

Nandy, A., Trivedi, S. Mayaram and Yagnik, A. (eds) (1995) *Creating a Nationality: The Ramjanmbhumi Movement and the Fear of the Self*, Delhi: Oxford University Press.

Nehru, J. (1936) *An Autobiography*, London: John Lane.

——— (1956) *Independence and After: A Collection of Speeches 1946–9*, Delhi: Government of India.

——— (1981 [1946]) *The Discovery of India*, New Delhi: Jawaharlal Nehru Memorial Fund, Oxford University Press.

Neumann, I. B. (1997) 'The Geopolitics of Delineating "Russia" and "Europe": The Creation of the "Other" in European and Russian Tradition', 147–73 in O. Tunander, P. Baev and V. I. Einagel (eds) *Geopolitics in Post-Wall Europe: Security, Territory and Identity*, London: Sage.

Ó Tuathail, G. and Agnew, J. (1992) 'Geopolitics and foreign policy: practical geopolitical reasoning in American foreign policy', *Political Geography* 11: 190–204.

Pal, R. M. (1998) 'Human rights and nuclear explosions at Pokharan', *Mainstream*, 26(23): 6–7, 12.

Pandey, G. (1990) *The Construction of Communalism in Colonial North India*, Delhi: Oxford University Press.

Parker, G. (1988) 'Geopolitical perspectives on India and Indian foreign policy', in *The Ford Foundation Lectures in International Relations Studies*, Department of Political Science, The Maharaja Sayajirao University of Baroda.

——— (1998) *Geopolitics: Past, Present and Future*, London: Pinter.

Pattanaik, D. D. (1998) *Hindu Nationalism in India: Conceptual Foundation*, New Delhi: Deep & Deep Publications.

Prakash, P. (1998) 'South Asian arms race began in 1964', *The Pioneer*, New Delhi, 20 June: 8.

Sarin, R. (1998) 'Inside radiation zone', *The Indian Express*, Chandigarh, 21 June: *Express Magazine*.

Sarkar, T. (1996) 'Imagining Hindurastra: the Hindu and the Muslim in Bankim Chandra's writings', 162–84 in D. Ludden (ed.) *Making India Hindu: Religion, Community, and the Politics of Democracy in India*, Delhi: Oxford University Press.

Savarkar, V. D. (1969) *Hindutva*, Bombay: Savarkar Prakashan, fifth edn.

Sen, A. (1998a) 'On interpreting India's Past', 10–35 in S. Bose and A. Jalal (eds) *Nationalism, Democracy and Development: State and Politics in India*, Calcutta: Oxford University Press (Oxford India Paperbacks).

—— (1998b) 'Secularism and its discontents', 454–85 in R. Bhargava (ed.) *Secularism and its Critics*, Delhi: Oxford University Press.

Sen Gupta, B. (1997) 'India in the Twenty-First Century', *International Affairs* 73(2): 297–314.

Singh, S. (1998) 'India must speak in one voice now', *The Pioneer*, New Delhi (editorial), 29 May.

The Tribune (1998), Chandigarh, 4 August, 1998: vol. 118, no. 214, city edition.

Vajpayee, A. B. (1998) 'Rationale for the government's decision on nuclear tests', *Mainstream* 36 (23): 3, 33.

van der Veer, P. (1996) 'Writing violence', 250–69 in D. Ludden (ed.) *Making India Hindu: Religion, Community, and the Politics of Democracy in India*, Delhi: Oxford University Press.

Varshney, A. (1993) 'Contesting meanings: India's national identity, Hindu nationalism, and the politics of anxiety', *Daedalus* 122, 3: 227–61.

Verghese, B. G. (1996) *India's Northeast Resurgent: Ethnicity, Insurgency, Governance, Development*, New Delhi: Konark Publishers Private Limited.

Weiner, M. (1997) 'Minority identities', 241–53 in S. Kaviraj (ed.) *Politics in India*, Delhi: Oxford University Press.

الجز الثالث

إعادة إصلاح واستعادة الجيوبوليتيكا

الفصل العاشر:

هيرودوت واليسار الفرنسي

بول كلافال

مقدمة

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، أظهر الجغرافيون الفرنسيون قليلا من الاهتمام الرسمى بالجيوبوليتيكا والجغرافيا السياسية، بسبب ارتباطاتها السيئة بالجيوبوليتيكا الألمانية وألمانيا النازية. وأصبحت صفة "جيوبوليتيكى" مزدراة، واختفى تماماً الاهتمام بالجغرافيا السياسية الذى كان قوياً فى فترة ما بين الحربين، عندما حاول الجغرافيون الفرنسيون بناء "جيوبوليتيكا سلام"، وشجعوا على ظهور أوروبا الموحدة. ففى فترة ما بين الحربين، ساهم الجغرافيون الفرنسيون فى الحوارات الدولية حول الجيوبوليتيكا من خلال محاولاتهم تشجيع التوازن الدولى والسلام العالمى بدلاً من التوسع الاستعمارى والقوة القومية (Parker 1985; Claval 1994; Muet 1997) وعلى سبيل المثال، كان المؤلفون الفرنسيون- مثل ألبرت ديمانجو- واعين للمخاطر التى تفرضها الجيوبوليتيكا الألمانية المهووسة بالمواقع والأراضى على حساب البيئات البشرية. وبعد الحرب العالمية الثانية، اختفى البحث الجيوبوليتيكى فى فرنسا، بالرغم من أن بعض الدارسين واصلوا اهتمامهم بهذا المجال. ومع ذلك، لم تثر الجيوبوليتيك اهتمام كثير من الجغرافيين، لأنهم أرادوا تجنب الانتقادات الحادة التى أثارها الماركسيون ضد كل أشكال الجيوبوليتيكا، بغض النظر عن القصد والنية. وكان جين جوتمان الجغرافى الوحيد الذى استهان بهذا الحظر مطمئنا إلى عدم إمكانية اتهامه بالتعاطف مع النازية، نظراً لأنه كان يهودياً وكان عليه الهروب إلى الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية. ففى ١٩٥٢، نشر كتابه الأساسى "بوليتيكا الدولة وجغرافيتها ". ومع ذلك، اختفت الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيكا طوال السنوات الخمس والعشرين التالية من المنشورات الجغرافية الفرنسية، باستثناء ما قدمه كلود ديلما الذى عمل لحساب الناتو وتخصص فى الجيواستراتيجيا (Delmas 1971)

ونتيجة لذلك، وبالرغم من أن قلة من الجغرافيين حاولوا تحديث مجالهم من خلال استخدام اقتصاديات المكان والمفاهيم الحديثة للايكولوجيا، ظل معظم الدارسين الفرنسيين مخلصين لتقليد الجغرافى الفرنسى فيدال دى لا بلاش فى "الجغرافيا". ولذلك، اهتمت الجغرافيا الفرنسية بعد الحرب أساسًا باستكشاف المشاهد الريفية فى فرنسا وبالجغرافيا الاستوائية فيما وراء البحار. ومنذ بداية ستينات القرن العشرين، بدأ تقليد فيدال يتزحزح بصورة متزايدة، حيث طور الدارسون اهتمامات بحثية جديدة تتعلق بالمشاكل الصناعية الأوروبية، والاقتصادات الإقليمية والشبكات الحضرية. ومع ذلك، كان واضحًا أن الابتكار المنهجى الرئيس كان مبعثرًا، وربما كان العنصر الأكثر اهمالاً فى الجغرافيا الفرنسية يتمثل فى الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيكا بصفة خاصة.

تركت أحداث ١٩٦٨ تأثيرا كبيرا على السلوك الجمعى الفرنسى، والهياكل الاجتماعية مقارنة بالتأثير على نظامها السياسى الذى اجتاز الأزمة. حيث أعطت تلك الفترة دافعًا كبيرًا لعملية الانتعاش الفكرى التى بدأت قبل ذلك بسنوات قليلة. وتغيرت الجغرافيا السياسية بسبب عدد من التحولات الفكرية والسياسية، منها ظهور اقتصاديات المكان والنظرية الحضرية والأساليب الكمية. وفى هذا المناخ من التغير الجوهرى، أعطى عدد من الجغرافيين مثل أرماند فريمونت، دافعًا قويًا للدراسات المحلية والإقليمية من خلال تركيزه على التجربة الحية للمكان، بينما حاول جورج برتراند و جابريل روجرى بناء علاقات أوثق بين الجغرافيا الطبيعية والبشرية من خلال تحليل مشهد الأرض. وفى مجالات أخرى، طور روجر برونيه اتجاهًا علميًا جديدًا فى الدراسات الإقليمية التى تبدو مناسبة للتغيرات السياسية والاقتصادية الجارية.

ومع ذلك، لابد من الاعتراف بأن الجغرافيا التى تدرس فى معظم الأقسام لم تكن فى مقدمة اهتمام الثقافة الفكرية الفرنسية الراديكالية وأحداث ١٩٦٨ . وساهمت أشكال الجغرافيا الصاعدة الجديدة الموضحة سلفًا بقدر محدود فى المد والجزر الثقافى

والسياسى لتلك الفترة. وبالرغم من نيتهم الراديكالية، فلا الجغرافيون الصغار، باشراف الأستاذ بيير جورج، ولا الجغرافيون اليساريون بصفة عامة، كانوا على جبهة البحث الجغرافى الفرنسى فى أوائل السبعينات. بل على العكس، رفض ييفز لاكوست أستاذ الجغرافيا بجامعة فنسان اتهام الجغرافيا بالاعتلال والاقتصار على رد الفعل، واقترح اتجاهًا جديداً يتمسك بالتعاطف مع المبادئ التى تعلمها من بيير جورج و جين دريس، وتقليد تحليل الموقف الذى ورثه جورج من فيدال. وبالنسبة للعديد من الزملاء الذين كانوا يرفضون الاستثمار كثيراً فى التطورات الكمية النظرية للجغرافيا الفرنسية، كان لاكوست يبدو بطلاً ثوريًا يهاجم المعتقدات التقليدية. وكان ظهور المجلة الجيوبوليتيكية "هيرودوت" فى يناير ١٩٧٦ نهاية مطاف رحلة فكرية طويلة كانت تحاول البحث عن إجابة السؤال البسيط والجوهرى: ما هدف الجغرافيا؟

وتحاول الأجزاء التالية من هذه الورقة تقييم المسارات الفكرية والسياسية عند لاكوست – وزملائه من أصحاب الفكر اليسارى – فيما يتعلق بتطوير هذه الصيغة الخاصة من الجيوبوليتيكا. حيث يتناول الجزء الأول الأحداث التى أدت إلى صدور مجلة هيرودوت والمفاهيم المختلفة للجيوبوليتيكا التى استخدمها لاكوست. وبعد ذلك سنوجه اهتمامنا بالتفصيل إلى دراسات الجيوبوليتيكا المختلفة فى المجلة، والتى تتراوح من تحليل الحرب والأصولية الدينية والقومية إلى الأوضاع العالمية المتغيرة. ويستكشف الجزء الأخير من الفصل ردود الأفعال العامة والأكاديمية على هذه المجلة فى فرنسا والعالم ككل.

ييفز لاكوست والجيوبوليتيكا وهيرودوت

يوضح ييفز لاكوست فى مقدمة "قاموس الجيوبوليتيكا" (Lacoste 1993a) مفهومه الحالى لطبيعة وروح الجيوبوليتيكا: حيث يهدف إلى دراسة كل من المواقف الجيوبوليتيكية والأفكار الجيوبوليتيكية، مع اعتماد تحليل كل منها على أوضاع جغرافية معينة، فيذهب إلى القول:

"مهما كان الامتداد الإقليمى ... وتعقيد البيانات الجغرافية ... فإن الموقف الجيوبوليتيكى يعرفه المتنافسون على القوة ذات النطاق الواسع (على النطاق الدولى عامة) بعلاقات القوى القائمة بين مختلف أجزاء الإقليم المقصود، وذلك فى فترة محددة من التطور التاريخى.

والمتنافسون على القوة هم أولاً الدول الكبيرة أو الصغيرة التى تتصارع على امتلاك أقاليم معينة أو السيطرة عليها ... ويمكن أن يوجد المتنافسون على القوة، سواء كانوا رسميين أم لا، داخل دول عديدة تطالب شعوبها، والأقليات غالبًا، إما بالحكم الذاتى أو بالاستقلال ... وأخيراً، يوجد المتنافسون الجيوبوليتيكيون داخل الدولة بين الأحزاب السياسية الرئيسة التى تحاول توسيع نفوذها فى منطقة معينة، وتحاول السيطرة على جمهور الناخبين.

ولكى يتضح توزيع هذه القوى المتنوعة، القائمة فى نطاقات محددة نسبيًا، تصبح الخرائط الواضحة ضرورية، خاصة الخرائط التاريخية، التى تسمح بفهم تطور موقف معين وتقدير "الحقوق التاريخية" التى تدعيها عدة دول على نفس الإقليم" (Lacoste 1993a:3)

ويستطرد ييفز لاكوست ليقترح أنه:

"لكى نفهم التنافس أو الصراع الجيوبوليتيكى، لا يكفى أن نحدد ونصور المشكلة المطروحة، بل لابد من فهم "أسباب" و "أفكار" الأطراف الرئيسة - حكام الدول، قادة الحركات الإقليمية والانفصالية والاستقلالية، الخ - فكل منهم يؤثر فى الرأى العام الذى يمثله ويتأثر به. إذ أن دور الأفكار - حتى الخاطئة منها - مهم جداً فى الجيوبوليتيكا، لأنها تفسر المشروعات وتحدد اختيار الاستراتيجيات مثل البيانات المادية" (Lacoste 1993a:4)

وعرض لاكوست فى مقدمته تاريخ تطور الأفكار الجيوبوليتيكية، من كيلين حتى الوقت الحاضر. حيث وضح الحظر المفروض من الأنظمة الشيوعية بعد الحرب العالمية

الثانية ودور الحرب الباردة، وعودتها ثانية عند نهاية السبعينات فى فترة حرب كمبوديا، وانتصارها فى الثمانينات والتسعينات. ويقول إن عودة الجيوبوليتيكا للظهور يمكن تفسيرها بالتركيز على ظهور النظم الديموقراطية، وانتصار فكرة حق الشعوب فى تقرير المصير، وتأثير وسائل الاعلام الحديثة:

"يؤكد تحليل العديد من الصراعات الجيوبوليتيكية، التى ظهرت حديثًا فى أوروبا، والاهتمام بالحوارات الجيوبوليتيكية التى تثيرها بين الدول، وداخل كل منها، .. أن الصراعات الإقليمية تكون جيوبوليتيكية تحديداً عندما تشكل موضوع الطروحات المتناقضة التى تنشرها اليوم وسائل الاعلام، والتى تثير حوارات سياسية بين المواطنين إذا كان هناك قدر من حرية التعبير" (Lacoste 1993a: 17)

وقد تجدد المفهوم القديم للجغرافيا كتحليل للمواقف فى أقل من خمسة عشر سنة بعد ذلك. حيث تكامل اتجاه فيدال الطبيعى فى الجغرافيا البشرية - الذى ورثه لاكوست وزملاؤه من المدرسة الفرنسية - مع أنماط الاستكشاف التى تهتم بالأطراف الاجتماعية وسياسة التمثيل. وخلال هذه الفترة التى فرض فيها لاكوست منظوره على الجيوبوليتيكا، كان يتأثر باستمرار بالثقافات الأوسع للأكاديميين الفرنسيين ودائرته الفكرية المباشرة المرتبطة بمجلة هيرودوت.

ييفز لاكوست وأصول هيرودوت

تأثرت مجلة هيرودوت بشدة بأفكار ييفز لاكوست والتطور الأكاديمى المبكر لعلم الجغرافيا، بالرغم من أن ظهور هذه المجلة توافق مع إعادة توجه عام للجغرافيا الفرنسية وتحليلها للمشاكل السياسية فى السبعينيات والثمانينيات. وعندما كان لاكوست أكاديميًا شابًا، مع جين دريش و بيير جورج اللذين اعتبرهما البعض شخصيتين بارزتين فى الجغرافيا الفرنسية، كان ينتمى إلى مجموعة نشطة من الجغرافيين كانوا جميعًا أعضاء فى الحزب الشيوعى الفرنسى. ولم تمثل هذه المجموعة

دائرة أكاديمية تهتم بالمشاكل المعرفية، لأنها كانت مجموعة من الشيوعيين المكافحين المؤمنين بالماركسية التقليدية التى منعتهم من تطوير اتجاهات نظرية جديدة فى الجغرافيا (Varii Auctores 1991) حيث أقام أعضاء هذه المجموعة أعمالهم على مفهوم الجغرافيا الذى طوره بيير جورج خلال الخمسينات.

وكان معظم إلهامه مستمداً من التقليد الجغرافى الفرنسى، ولكنه كان ينتقد بعض مفاهيم فيدال التى اعتبرها قديمة بالنسبة للمجتمعات الصناعية مثل فكرة]طرق الحياة.[حيث حلت "أنماط الانتاج" محل طرق الحياة لمعالجة تعقيدات ومشاكل العالم الحديث. أما بالنسبة لبيير جورج وأتباعه، فلم تكن هناك حاجة لصحوة فكرية وثورة علمية لتحديث الجغرافيا، فقد كان يكفى إزاحة طرق الحياة الفيدلية الوصفية بمفهوم ماركس. وهكذا أخذت جغرافية جورج ملامحها الرئيسة من فيدال دى لا بلاش، ولكنه رفض إدخال نوع الدراسات الريفية الطبيعية الوصفية التى كانت سائدة طوال جيلين فى الجغرافيا الفرنسية. ولم يكن هناك اتصال فكرى مع الجغرافيا الكمية الجديدة التى أصبحت تنتشر فى السويد والولايات المتحدة وبريطانيا ولدى بعض الزملاء فى فرنسا. وهكذا فإنها كانت "جديدة" فقط لكونها تفسيراً ماركسياً وفيداليًا جديداً للعلم.

ولم يستطع الجغرافيون الفرنسيون تطوير برامج بحثية نظرية، مقارنة بأقرانهم الأنجلوفونيين. بل على العكس، اعتبر الجغرافيون الفرنسيون أن دورهم يعتمد على تفسير المشاكل الحقيقية المشاهدة، إما فى دولة محددة أو فى العلاقات الدولية بين الدول. إذ كان تحليل مثل هذه المواقف جوهرياً فى جغرافية بيير جورج، كما كان فى جغرافية فيدال فى النصف الأول من القرن الحالى (Claval 1998) وكان يبدأ بفكرة أن كل حالة يجب أن تدرس بمقاييس مختلفة، ثم تدرس المنطقة كمجموعة من البيئات، مع التركيز على العلاقات والقيود الإيكولوجية، وتركز المرحلة الأخيرة على الوصف ودور التدفقات، أى الدوران. ويؤدى التفاعل اللاحق بين البيئات وهذا الدوران إلى خلق طرق حياة محددة تنعكس بدورها على تطور الدول فى حالة الجغرافيا السياسية. وكان

لاكوست ملتزمًا باسلوب تحليل بيير جورج، وعمل خلال الستينات على مشاكل تصفية الاستعمار وتنمية العالم الثالث، بناء على تحليل المواقف الجغرافية كإجراء بحثى. وواصل دراساته الميدانية فى أمريكا اللاتينية وغرب أفريقيا، ولكنه ركز أساسًا على شمال أفريقيا الناطقة بالفرنسية (أعيد طبع معظم هذه الدراسات فى : Lacoste 1980)، لأنه نشأ فى المغرب حيث كان والده جيولوجيا مسئولاً عن استكشاف النفط. ولذلك أثرت تجارب طفولته فى شمال أفريقيا لاحقًا على تحليلاته للحقبة الاستعمارية، لأنه عندما قرأ الدراسات الجغرافية المتعلقة بالاستعمار اكتشف أن الأوضاع الاقتصادية كانت تحظى باهتمام مبالغ. وفى ذاكرته كانت محمية المغرب الفرنسية تعتمد أولاً وأخيرًا على وجود وقوة الجيش الفرنسى (لاكوست، اتصال شخصى)!

ومع نهاية الستينات فقط؛ بدأ لاكوست يشك فى أنه كانت هناك مشاكل فى هذا النوع من الجغرافيا. ونظرًا لأنه كان يعتبر أن الممارسات المنهجية للعلم كانت سليمة، كان الضعف الوحيد يأتى من الموضوعات التى يغطيها الجغرافيون، وطرق تدريس العلم فى المدارس الثانوية والجامعات. ويرى لاكوست أن أزمة الجغرافيا نتجت عن رفض الجغرافيين مواجهة المشاكل الحقيقية للعالم. ومن أجل حل هذه المشاكل، تحمل لاكوست مسئولية انتاج سلسلة من الكتب الدراسية للمدارس الثانوية لدار نشر "ناتان" (Guglielmo, Lacoste and Ozouf 1965) حيث ركز فى هذه المنشورات على البعد البصرى للجغرافيا (كانت الدروس تعتمد على تعليقات مرتفعة الجودة على المشاهد التركيبية التى تلخص كل ملامح المشكلة أو المنطقة موضع البحث) وكذلك على العمليات والأحداث التى كانت تشكل المشاكل المعاصرة : التصنيع والتحضر وتنمية العالم الثالث ومناطق الصراع. وبهذه الطريقة أدخل لاكوست سياسات الجغرافيا فى الفصول المدرسية.

وزادت قوة سعى لاكوست لاستكشاف العلاقات بين الدولة والجغرافيا بسبب بعثته كخبير زائر فى فيتنام فى أوائل السبعينات. ففى ١٩٦٦، وفى ١٩٧٢ أيضًا، اتهم

الفيتناميون القوات الجوية الأمريكية بالقصف العمد للحواجز التى كانت تحمى حقول الأرز فى دلتا نهر تونكين. وطلب الحزب الشيوعى الفيتنامى من جين دريسن دراسة الدليل على هذا الادعاء. ونظراً لأن تجارب لاكوست البحثية المبكرة كانت على الحواجز الطمية لسهل الغرب فى المغرب، طلب دريسن منه تحليل هذه المسألة الجغرافية. وكانت الأدلة التى قدمها الفيتناميون غير مقنعة فى البداية. ومع ذلك، وبعد فصل من العمل الميدانى (فى صيف ١٩٧٢) استنتج لاكوست أن الفيتناميين كانوا على صواب، وأن الأمريكيين حاولوا تدمير الأساس الزراعى للاقتصاد الفيتنامى بطريقة منهجية، وذلك من خلال قصفهم الاستراتيجى. وكان لتقريره أثر كبير على الرأى العام الدولى، وجذبت ورقة كتبها لصالح صحيفة لوموند (٦ يونيو ١٩٧٢) قبل الانتقال إلى فيتنام، اهتمام المجموعات الفرنسية اليسارية.

ونتيجة لتجاربه الفيتنامية، وفى ضوء اقتناعه المتزايد بأهمية دراسة أدوار الجغرافيا فى فن الحكم، قرر لاكوست التأكيد على أهمية العوامل السياسية والعسكرية فى الجغرافيا. وقبل الناشر فرانسوا ماسبيرو اقتراحه بإصدار مجلة جديدة عن العلاقة بين الجغرافيا والقوة. واختير عنوانها (هيرودوت) فى ١٩٧٢، وذلك بعد استقصاء مدى استجابة سوق القراء للمجلة، حيث استمد عنوانها من اسم الجغرافى والمؤرخ اليونانى القديم هيرودوت. وظهر العدد الأول فعلياً فى ١٩٧٦، حيث شمل تقريراً مطولاً عن قصف دلتا النهر الأحمر (Lacoste1976 b)

هيرودوت: توجه جديد فى الجغرافيا الفرنسية اليسارية

لقد صدرت مجلة هيرودوت منذ ثلاثة وعشرين سنة، ونشر عددها الأول فى يناير ١٩٧٦ . وكانت بمثابة انطلاقة راديكالية من شرعية فيدال المستقرة فى الجغرافيا السياسية الفرانكوفونية. ومن المثير للسخرية أن الأعداد الأولى من المجلة فى منتصف السبعينات لم تكن مخصصة للجيوبوليتيكا. ولم يدخل المصطلح فى العنوان الفرعى

للمجلة حتى ١٩٨٣(مرجع الجغرافيا والجيوبوليتيكا). وقد شرح لاكوست فى افتتاحيته الأولى بوضوح أن هدف هذا المرجع الجديد هو تغطية المشاكل السياسية الكبرى للقوة العسكرية ودورها فى تطور الخريطة السياسية للعالم.

وخلال السنوات الأولى كانت هناك مقالات عديدة تتناول الحروب الثورية (Lacoste 1977) فى العديد من مسارح الحروب الأهلية أو الثورية. أو تحلل مغامرات وهزيمة شى جيفارا فى بوليفيا (Varlin 1977)، وتتناول التراث الاستراتيجى لكلوسيفيتش (Lacoste 1976c) وشملت الدورية أيضًا دراسات عن طبيعة الأمم والقوميات والحركات الوطنية. وهكذا كان لاكوست وزملاؤه يحاولون تغيير النمط التقليدى للجغرافيا، والذى كان يميل إلى التركيز على الدولة والتراب الوطنى، على حساب التركيز على الموضوعات الايكولوجية ومناهضة الاستعمار والثورية. وكذلك كانت دورية "هيرودوت" انطلاقة راديكالية من الجوانب السياسية البسيطة للجغرافيا الفرنسية، كما يوضح عنوانها الفرعى : استراتيجيات، جغرافيات، أيديولوجيات. وفى ١٩٩٦ شرح لاكوست أهمية هذه المصطلحات قائلا " يعبر ارتباط هذه المصطلحات الثلاثة جيداً عن اهتماماتنا : فصيغ الجمع توضح أنه إذا كان هناك استراتيجيات متعددة وأيديولوجيات متنوعة، سيكون هناك ايضًا طرق مختلفة لتكوين جغرافيا، ومن ثم ستكون هناك جغرافيات مختلفة، وذلك حسب وظائفها الاستراتيجية وأدوارها الأيديولوجية. ولكى نجعل الناس تعى ماذا فى الجغرافيا حقيقة، نحتاج إلى توضيح التناقض بين ما نسميه جغرافية معلمى المدارس وجغرافيا العسكريين (Lacoste 1996:7)

وبعد صدور العدد الأول من مجلة هيرودوت بأشهر قليلة، نشر لاكوست كتاباً صغيراً مثيراُ للجدل وضح فيه أهدافه الفكرية والسياسية: " الجغرافيا، هدفها الأول صناعة الحرب (Lacoste 1976a) وكان الناشر فرانسوا ماسبيرو (الذى تغير اسم شركته إلى "الاستكشاف : " La Découverte فى ١٩٨٣)، هو نفس ناشر مجلة

هيرودوت. وكان هذا الكتاب الصغير يمثل مذكرة تركز على دور الجغرافيا في مساندة قوة الدولة، وأسباب انتقاد لاكوست للدور التقليدى للجغرافيا والمؤسسة الجغرافية (انظر أيضاً Parker1998:51-2). فكان لاكوست يرغب في تعرض الجغرافيا لاهتمامات ومجالات بحثية جديدة، لأن الجوانب العسكرية للصراعات، وخاصة طبيعة الحروب الثورية، كانت تعتبر محدودة جداً. حيث درس مجموعة من الاحتمالات المختلفة في السنوات القليلة الأولى.

وعمل لاكوست مع هيئة تحرير صغيرة، ولكن أحد أعضائها تركها بسرعة، وهو الدارس الموهوب موريس رونيه. ومنذ البداية لعب زملاء آخرون دوراً بارزاً في الفريق. حيث أعدت بياتريس جبلين أطروحة دكتوراة عن إليز ريكلو(Giblin -Delvallet1976) وكان هذا البحث يعتبر نموذجاً لهيرودوت. وكانت المنهجية التى اتبعها العديد من المساهمين الأوائل لا تزال مستمدة من اتجاهات فيدال، بالرغم من أنهم كانوا يفضلون الإشارة إلى الثائر العظيم ريكلو كمصدر للإلهام، بسبب مشاركته النشطة في الشئون الإيكولوجية. وطرح ميشيل فوشر أفكاراً سياسية مماثلة، إذ كان دارساً مجتهداً وكان أصلاً من ليون (واستخدم الاسم المستعار توماس فارلين، وهو ثورى مشهور من اللجنة الثورية لباريس في ١٨٧١، في اثنتين من اسهاماته المبكرة في هيرودوت). حيث وضع معايير مرتفعة جداً للعمل الميدانى عند إعداد تقارير دراسات الحالات (انظر مثلاً Foucher 1979-80)، وكان يحكم على مقالاته في ضوء قوتها التجريبية وليس الموقف الفكرى للمؤلف: وهو الموقف الذى كرسه بشدة لاكوست. وعند نهاية السبعينات وبداية الثمانينات، أظهر اهتماماً بالحدود كمشكلة جغرافية، وأصبح خبيراً محترماً في هذه المشاكل، خاصة فيما يتعلق بأمريكا الجنوبية (Foucher 1983,1986)

ولم يعتمد لاكوست على الجغرافيين فقط لتحديد النهج التحريرى للمجلة. حيث قام ميشيل كورينمان بتدريس الألمانية بجامعة فانسان، وأعد أطروحة دكتوراه عن جيوبوليتيكا هوسهوفر (Korinman 1990,1991) فساعد هذا البحث في الجيوبوليتيكا

الجغرافيين الفرنسيين على اكتشاف أن الجغرافيا السياسية الألمانية و الجيوبوليتيكا كانا أكثر تعقيداً مما كان متوقعاً، وأن أفكارهم كانت لا تزال قيمة(Lorinman 1984) ثم أظهر فى بحثه التالى أثر كتابات راتزل الكبير على السياسة والبيئة فى العالم الناطق بالألمانية (Korinman 1990) وقد كان لاكوست صديق فرانسوا شاتيليه، الفيلسوف اليسارى الشهير الذى عمل فى جامعة فانسان ودرس منهجًا تمهيديًا فى الفلسفة ومنهجية الجغرافيا، فانضم إلى لاكوست فى ١٩٦٩-, ١٩٧٠ وكتب فرانسوا شاتيليه ورقة لهيرودوت (Châtelet 1976) ثم رتب لمناظرة تذكارية بين ميشيل فوكو وبيفز لاكوست. وقابل لاكوست فوكو من أجل مفاهيمه عن المكان (Lacoste 1976d) مما أدى إلى قيام فوكو بإعداد عدة أسئلة يطرحها الجغرافيون (Lacoste 1976)

وقامت هيرودوت بنشر كل من المقابلة والاستبيان، ولكن التعاون لم يستمر طويلاً. حيث تكون لدى لاكوست انطباع بأن فوكو ليس لديه اهتمام حقيقى بالجغرافيا، وأن المشاكل المكانية لم تكن جوهرية فى ذلك الوقت بالنسبة لبحثه (لاكوست، اتصال شخصى). وقامت كاميليا لاكوست دوجاردان - زوجته - الاثنولوجية الشهيرة بدراسة ثقافة القبائل البربرية فى الجزائر، وكان تأثيرها جوهريًا فى ضمان أن هيرودوت كانت تعى أوجه التشابه والاختلاف بين طرق ممارسة الجغرافيين والأنثروبولوجيين للعمل الميدانى. وكان لكاميليا علاقات وثيقة مع بيير بوردو الذى أعد أطروحته للدكتوراه على هذه الثقافة. حيث عرضت بحثه وأفكاره على قراء هيرودوت (Lacoste - Dujardin 1976) وأظهرت العلاقات القائمة بين العلمين، والتى ستقوم هيرودوت لاحقا بمراعاتها فى دراسة المكان والمعرفة والقوة.

وخلال السنوات الأولى من النشر، كانت المواد التجريبية لهيرودوت مخصصة أساسًا لحروب ما بعد الاستعمار والحركات الثورية فى العالم الثالث. ومع ذلك، كانت هناك اهتمامات أخرى جوهرية لسياسة هيئة التحرير الجديدة. إذ كان الاهتمام بالمشاكل السياسية بصفة عامة لدى لاكوست مدفوعًا بالرغبة فى تغيير المحتوى

والهدف والطبيعة التطبيقية للجغرافيا. ولذلك لم تكن هيرودوت قاصرة على دراسة تنافس القوى العظمى ونتائج تصفية الاستعمار ومشاكل التنمية. إذ كان عليها ألا تساهم فقط فى تحديث وإعادة تشكيل الجغرافيا السياسية، بل علم الجغرافيا بأسره.

ومنذ ١٩٧٨ فصاعداً، كان كل عدد يخصص لموضوع معين، حيث حاول لاكوست لحوالى خمس سنوات تغطية كل الجوانب المختلفة التى تكون الجغرافيا الحديثة التى أراد تشجيعها. حيث غطت المجلة موضوعات دراسات مشهدالأرض (Hérodote, no.7, 1977) و (Hérodote, no.44, 1987) والعمل الميدانى (Hérodote, no.8, 1977) و (Hérodote, no.9, 1978) ومفهوم الزمن الذى طوره الجغرافيون (Hérodote, no.20, 1981) والخرائط واستخدامها كوسيلة للقوة (Hérodote, no.13, 1979) والجغرافيا الطبيعية والايكولوجيا (Hérodote, no.12, 1978) وجغرافية المخاطر الطبيعية,(Hérodote, no.24, 1982) ويرى لاكوست أنه لم تكن هناك حاجة لتقديم عبارات عامة أو شاملة عن طبيعة الجغرافيا البشرية أو السياسية، لأنه حسب المنهج الفيدالى الجديد الذى ورثه عن بيير جورج كان هدف العلم يتمثل فى تحليل "السياقات" الجغرافية، وليس البحث عن الأشياء المنتظمة العلمية. إذ أن الطبيعة التاريخية للمجتمعات الإنسانية تعنى أنه لا معنى للبحث عن القوانين المجردة فى مواقع وسياقات بعينها. فالهدف الأساس للجغرافيا كان يتمثل فى التركيز على العمل. أى أن تكون "فعالاً" كما يقول لاكوست. وخلال ثمان سنوات من صدور المجلة، انتهت المرحلة الرئيسة للتفكير فى طبيعة الجغرافيا بعقد مؤتمر الاتحاد الجغرافى الدولى فى باريس. حيث صدر عدد خاص بهذا الحدث بعنوان "الجغرافيون والعمل والسياسة : Les géographes, L'action et la politique (Hérodote, no.33-4, 1984 يلخص مواقف مجموعة المجلة.

وفى ١٩٧٦ كان لاكوست يرغب فى الانفصال عن الموقف غير السياسى للجغرافيا الأكاديمية. ومع ذلك، كان لا يزال غير متأكد من التوجه الدقيق الذى يجب أن يعطيه للمجلة. إلا أن مجلس التحرير الذى كان يرأسه قام بتطوير رؤى أوضح بعد ذلك بسبع

سنين. وكانت الجوانب العسكرية للحياة الدولية مجرد أحد وجوه الجغرافيا، حيث صدر نصف الأوراق التى نشرت فى هذا المجال بالمجلة فيما بين ١٩٧٦ و ١٩٩٦ خلال هذه السنوات الخمس الأولى. وبعد ذلك، تغيرت الاتجاهات الفكرية بعدما أصبح شعار "الجيوبوليتيكا" أكثر انتشاراً فى العالمين الناطقين بالفرنسية والانجليزية. وكان المصطلح يستخدم كثيراً فى الصحف ووسائل الاعلام، بما فى ذلك الصحيفة اليسارية لوموند. وكذلك قامت مارى فرانس جارود - المستشارة السياسية السابقة لكل من جورج بومبيدو وجاك شيراك - بإصدار مجلة باسم "الجيوبوليتيكا". ونتيجة لهذا التطور، وإعادة تأهيل مصطلح الجيوبوليتيكا، تحول العنوان الفرعى من "مرجع الجغرافيا و الجيوبوليتيكا" إلى "استراتيجيات وجغرافيات وأيديولوجيات". حيث ظهر هذا التغير فى العدد ٢٧ فى ١٩٨٢ بعنوان "البحر الأبيض المتوسط الأمريكى". ومنذ ذلك الوقت، كانت معظم الأعداد تخصص لموضوعات مثل الجيوبوليتيكا الألمانية (Héro-dote, no.28, 1983) و الجيوبوليتيكا فى الشرق الأدنى(Hérodote, no.29-30, 1983) وجيوبوليتيكا البحار (Hérodote, no.32, 1984) وبعد ذلك كشف لاكوست عن اهتمام متواصل بدراسة مسألة أدوار الجغرافيا والفكر الجيوبوليتيكى داخل المجتمع. حيث كتب فى ١٩٨٤:

"لكى يعترف المجتمع العلمى بالجغرافيا كمجال معرفى ... ضرورى مثل الطب أو الزراعة، يجب أن يدرك الجغرافيون ... حقيقة أن سبب وجودهم فى المجتمع هو "معرفة كيفية التفكير مكانياً بما يسمح بعمل أكثر كفاءة"(Lacoste 1984:19)

وبناء على تحليل المواقف، يعرف لاكوست فن "التفكير المكانى" كما يلى:

"حتى يكون الجغرافى فعالاً، يجب عليه أن يبدأ بمبدأ أن كل ظاهرة لها نمط مكانى معين، يقابل "موقفاً مكانياً" محدداً على الخريطة. ولذلك يكون عدد هذه المواقع على سطح الأرض هائلاً. ويتم تصنيفها بتمييز الأحجام المختلفة...

وتجرى المشاهدة الجغرافية على مستويات مختلفة جداً من التحليل، من المستوى العالمى إلى المستوى المناسب لخصائص مكان صغير. فهناك مستويات عديدة للتحليل

مثل الأحجام فى المدى البعدى للمواقع المكانية كما يميزها الجغرافيون" (Lacoste 1984: 19-20)

ويواصل لاكوست قوله: "إن التفسير الجغرافى يعنى إظهار تعقيدات العلاقات بين الأنماط الجغرافية والسياسية" (Lacoste 1984:30) فبالنسبة له، فى ذلك الوقت، كان دور الجغرافيين يتمثل فى التحليل النقدى للجيوبوليتيكا التى يتصورها ويمارسها الحكام والسياسيون أو الأشخاص الآخرون فى السلطة:

" لكى نكون أكثر وضوحاً وصراحة، ولكى نعرض الاستراتيجيات الخفية، يجب أن نرجع إلى الخريطة، وليس خريطة واحدة فقط، بل إلى خرائط معدة بمقاييس مختلفة تسمح لنا بفهم الطبيعة المتشابكة للمشاكل وقوى السلطة حسب حجم الإقليم. ففى هذا المجال تظهر الطريقة التى "يفكر بها الجغرافيون فائدتها الكاملة"(Lacoste 1984:31-2)

ويركز لاكوست على قيمة الجيوبوليتيكا، ولكنه لا يعتبرها مختلفة كثيراً عن الجغرافيا. إذ يجب أن تعتمد الجيوبوليتيكا على تحليل الخرائط لتوضح كيف أن جدلية المقاييس يحدث فيها تلاعب فى أماكن معينة. ويجب أن نقيس القيود الطبيعية لموقف ما ودورها فى صراع المصالح القائم. ويجب أيضًا أن تصف أنماط الاستيطان، والهياكل الحضرية، والتدفقات التى كانت قائمة قبل اندلاع الصراع، والتى غالبًا ما تفسرها وتؤدى إليها.

وهكذا فإن كل ما هو جيوبوليتيكى يرجع إلى ما هو جغرافى. ومع ذلك، كان الشئ الجديد يتمثل فى توجيه الاهتمام لعوامل وطرق إجراء تحليل المواقف الاجتماعية والسياسية، لأن هذا يعتمد عادة على عدد كبير من العوامل الطبيعية أو الاجتماعية. وبحلول منتصف الثمانينات، كان مصطلح الموقف يعتبر بمثابة مجال يتنافس فيه الحكام والأحزاب السياسية وصراعات المصالح على النفوذ والسلطة. ولم يعد تحليل المواقف يعتمد على نموذج مستعار من العلوم الطبيعية. حيث أصبح التركيز الآن على الهندسة الاجتماعية والتفاعل الاجتماعى بدلاً من القوانين والقواعد العامة. وفى خضم

هذا التغير الفكرى، كانت هيرودوت تهتم بصورة متزايدة بدراسة الجيوبوليتيكا. فبعد ثمان سنوات من العدد الأول، أصبح جدول أعمال المجلة محدداً بوضوح. فمنذ ١٩٨٤ لم يتغير نمط المجلة كثيرا. إذ كان كل عدد يغطى موضوعًا يتعلق بالمشاكل الجيوبوليتيكية لمجال محدد. و لكن حتى إذا لم يتغير نهج هيئة التحرير، فإن طبيعة ما هو "جيوبوليتيكى" استمرت فى التكيف مع ما هو جديد من أحداث.

اتجاهات جديدة نحو التنمية والنظام العالمى

منذ بداية الثمانينات، ركزت المجلة بصورة متزايدة على تحليل جيوبوليتيكا مناطق الصراع فى العالم، حيث تناول العديد من أعداد المجلة المشاكل أو الأزمات السياسية لتلك الفترة، سواء الحروب الأهلية (Foucher and Pichol 1978) أو الصراعات الدولية. فكانت هناك أوراق عن صراعات نيكاراجوا (Foucher 1979) وشيلى Santib?nez (1977 وأنجولا Anonymous 1976) وقبرص(Péchoux 1976) فى السبعينات؛ وعن أفغانستان (Gentelle 1980) أو اسرائيل وفلسطين فى الثمانينات ("جيوبوليتيكا الشرق الأوسط"، مع أوراق قدمها كل من ناديا بنجلون- أوليفييه، ميشيل فوشر، ميشيل كورينمان، بيتر دوما، ماكسيم رودنسون، .Hérodote,no.29-30,1983 وهناك أعداد أخرى غطت مجالات أوسع وقدمت رؤى أشمل لتطور المشاكل الإقليمية. إذ بدأ هذا النوع من التحليل فى ١٩٨٣ بمجلد عن جيوبوليتيكا تقسيم ألمانيا (Hérodote,no.28,1983) وجيوبوليتيكا أفريقيا (Hérodote,no.46,1987) والاتحاد السوفيتى (Hérodote,no.28,1987)وأوروبا الوسطى (Hérodote,no.48,1988) وآسيا الموسمية (Hérodote,no.49,1988)و استراليا (Hérodote,no.52,1989) وفى الوقت الذى كان يناقش فيه قانون البحار، عرضت المجلة مراجعة عامة لنتائج القواعد الجديدة للملكية القومية للمناطق البحرية ("جيوبوليتيكا البحار"، Hérodote, no.32, 1984) وكذلك تناولت مشاكل الجزر المعزولة (Hérodote, no.37-8, 1985).

وقد كان الإهمال المدهش فى محتوى المجلة فى الثمانينات يتمثل فى عدم وجود أية دراسة عن سباق التسلح ومبادرة ريجان "لحرب الكواكب" والحرب الباردة الثانية. وكان هناك تجاهل لتحول الصين نحو اقتصاد السوق، وكذلك المجموعة الاقتصادية الأوروبية. وبدلاً من ذلك، كانت أفريقيا وأمريكا الجنوبية والبحر المتوسط؛ وجنوب غرب وجنوب وجنوب شرق آسيا تمثل المناطق الرئيسية التى غطتها المجلة، وظل تركيزها منصبًا على العالم النامى فقط. وبعد ذلك تغيرت توجهات المجلة نحو التنمية تدريجيًا. ونظرًا لأن ظهور المجلة كان تدريجيًا فإنه لم يثر أى رد فعل مباشر فى الصحافة. ومع ذلك، فإنه عندما لخص لاكوست فهمه الجديد لعملية التنمية واتجاهات الدول المتقدمة بالنسبة للعالم الثالث فى كتاب مختصر ومثير نشر فى ١٩٨٥(Lacoste 1985) أثار هذا الكتاب ردود أفعال عنيفة، خاصة فى مجالات العلوم الاجتماعية والانسانيات اليسارية.

لقد كان لاكوست يهتم كثيرًا بمشاكل التنمية. وكان ينتقد الصحفيين والسياسيين اليمينيين الذين كانوا ينادون بالاهتمام بالمصالح الذاتية تجاه الدول المتقدمة، ورفض سياسات "فك الارتباط" مع العالم الثالث. ولم يندهش المعلقون اليساريون من هذا الجزء من الكتاب، ومع ذلك ظهرت الحجة الأخرى كنوع من الهرطقة، لأن لاكوست كان ينتقد العديد من (أنصار العالم الثالث وهجومهم على الأشكال الجديدة للامبريالية) كما كان ينتقد العديد من معارضيهم. ويقول لاكوست إن شعوب الدول الفقيرة والنامية يجب أن تتبنى اتجاهات مسئولة نحو التنمية. ولكن خطابات العديد من أنصار العالم الثالث ساهمت فى ظهور اتجاهات سلبية بين حكام و نخب الدول المستقلة حديثًا. فقد كان يرى أنه من السهل أن نقنع الشعوب بأن المستعمرين والامبرياليين هم المتهم الوحيد بكل أمراض وأسباب ضعف دولهم. ولكن لاكوست كان ينادى بمنظور علمى جغرافيًا وتاريخيًا، على عكس ذلك.

وقد ذهب لاكوست الى اعتبار ماضى الدول النامية مهمًا لفهم أوضاعها المعاصرة، لأن الشعوب التى تعيش فى دول العالم الثالث لم تستغل كلها بنفس الطريقة إبان التوسع الأوروبى. حيث كتب لاكوست :

"تعتبر تجارة العبيد فى أفريقيا من أكبر فظائع النظام الاستعمارى على الاطلاق. ففى الحقيقة لم يكن تجار العبيد العرب أو الأوروبيون هم الذين أسروا أولئك الرجال والنساء وانتزعوهم من قراهم، بل أولئك الحكام المحليون الذين باعوا الأسرى على طول الساحل للتجار والأجانب ... حيث يفسر هذا القنص البشرى، الذى نظمته شعوب أفريقية ضد شعوب أفريقية أخرى، التوترات الموجودة بين المجموعات العرقية المختلفة فى العديد من الدول، إلى حد بعيد.

لقد حدث تكتم على مسئولية الأقليات المحلية المتميزة عن المآسى التى مرت بها شعوب العالم الثالث منذ التوسع الأوروبى، وفى تحديد العوامل التى تحدد اليوم وضعهم المتدنى من التنمية" (Lacoste 1985: 36)

ويقول إن بعض قادة العالم الثالث، الذين يشكون من أن الاستعمار والامبريالية الأوروبية حطمت بلادهم، كانوا أعضاء فى جماعات أو أسر كانت متواطئة مع تجار الرقيق ثم مع المستعمرين . حيث كتب :

"يبدو أن المشاكل المعاصرة فى العالم الثالث لها جذور أعمق مما كنا نعتقد. فأسباب التوسع السكانى السريع، وضعف رصيد المعدات المنتجة المتاحة لمواجهته، والتناقضات الناتجة عن هذا الاختلال، والأسباب الرئيسة لكل هذه الأمراض تكمن فى النهاية فى الماضى السابق على الحقبة الاستعمارية، لأن هذه الهياكل قبل الاستعمارية هى التى مكنت السيطرة الأوروبية، وذلك بعد أن أبطأت تطور القوى المنتجة فى الواقع" (Lacoste 1985: 134)

ويرى لاكوست أن مشاكل العالم الثالث حادة جداً، ولكنها نتجت عن مجموعة كبيرة من المواقف، حتى إذا كان التوسع المشترك سمة مشتركة بين كل الدول النامية. ونظراً لأن أسباب التنمية المتأخرة تكمن فى الماضى البعيد وتختلف حسب الدول، يجب على كل دولة أن تحل مشاكلها الخاصة وأن تبتكر طريقها الخاص إلى التنمية. إذ إن الحلول التى قدمها أنصار اليسار – إلغاء الملكية الخاصة وتعميم المساعدات الدولية –

ظهر أنها غير فعالة بحلول منتصف الثمانينات. واستنتج لاكوست أن التنمية عملية طويلة الأجل لا تفلح فيها الحلول البسيطة الموحدة، ولكن الشعوب التقدمية يجب أن تتحمل المسئولية عن مصيرها. ويرى العديد من الصحفيين اليساريين أن لاكوست قطع علاقاته مع اليسار الفرنسى بهذه الطريقة. بينما كان آخرون أكثر تقبلاً لتحليله وتقييمه الحساس للسياسات الواجب اتباعها لضمان تنمية مستدامة فى العالم الثالث. وبهذه الطريقة كان لاكوست وهيرودوت أساسيين فى التعجيل برفض الاتجاهات الحديثة والعامة التى طبقت فى مرحلة تصفية الاستعمار. وبالتالى زاد الاهتمام بالأوضاع المحلية، وأصبح تقييم السياسات الوطنية للدول المستقلة الحديثة يخضع لتدقيق شديد. ولم يعد السياسيون أو الصحفيون اليمينيون هم فقط الذين يتساءلون عن المساعدات الدولية عندما كان يساء استخدامها.

جيوبوليتيكا المدن والأقاليم والدول

لقد تغيرت جوانب أخرى للجيوبوليتيكا التى استخدمها لاكوست وهيئة تحرير المجلة مع مرور الوقت. ففى أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات تناولت المجلة أساسًا المشاكل الدولية. كما أبدت المجلة اهتماماً دائمًا بالمشاكل السياسية المحلية للدولة، ففى ١٩٧٦ استعد لاكوست لمناقشة ورقة عن "تصفية الجغرافيا ... تصفية لفكرة الأمة" La (coste 1976e) وقدمت بياتريس جبلين ورقة ساوت فيها بين الأمة ومشهد الأرض Gi (bli - Delvallet 1977) وعرضت مارى -كلود موريل طريقة تنظيم الحكومات للإدارة الإقليمية على أنها جيوبوليتيكا الإقليم (Maurel 1984) ومع ذلك، ظلت المشاكل السياسية الفرنسية الداخلية بعيداً عن الاهتمام المبكر للمجلة.

ولكن الموقف تغير فى ١٩٨٣-١٩٨٤ . فعند تحضير العدد الذى نشر مواكبا للمؤتمر الدولى للاتحاد الجغرافى الدولى فى باريس، كانت هناك مناقشة بين هيئة التحرير عن التوجه السياسى لبعض المناطق فى فرنسا. فقد ذكرت بياتريس القادمة

من إقليم الشمال أن الجزء الشرقى من نطاق الفحم فى اقليم الشمال كان شيوعيًا تقليديًا. بينما الجزء الغربى فى اقليم بادى كاليه كان اشتراكيًا. ولم تكن هناك أية أسباب موضوعية لمثل هذه الاختلافات فى المشاركة السياسية لعمال المناجم، وفى محاولة لمعالجة هذه المسألة طور أعضاء هيئة المجلة مجال "الجيوبوليتيكا المحلية". وبالرغم من أن الجغرافى آندريه سيجفريد (Siegfried 1913) استكشف هذه المسائل أولاً، إلا أن العلم تخلى عنها لاحقًا، ومنذ الخمسينات كانت كل دراسات الانتخابات يجريها أخصائيون فى العلوم السياسية. وكان فرانسوا- جوجيول، مدير معهد الدراسات السياسية فى باريس لفترة طويلة، أبرز متخصص فى هذا المجال (Goguel 1970)

وقد طورت بياتريس جبلين وييفز لاكوست مفهومًا مختلفًا لدراسات الانتخابات، مقارنة بالتيار السائد فى الجغرافيا السياسية الانجلوفونية. فبدلاً من تركيز دراساتهما على الأصوات والتركيب الاجتماعى للناخبين، كانا مفتونين بدور القادة السياسيين المحليين، والاستراتيجيات المحلية التى طورتها الأحزاب السياسية، وطرق الاستماع للشكاوى المحلية، واقتراح الحلول المختلفة للجماعات المختلفة، وكانا متأثرين بالثقافات السياسية المحلية عميقة الجذور. وهكذا كانت جغرافية الانتخابات أحد مكونات الجيوبوليتيكا. وقرر لاكوست استغلال هذا المجال، إذ كان يعرف أن هناك اهتمامًا شديدًا بالمشاكل الانتخابية فى كل أقاليم فرنسا، لأنها كانت الفترة التى كسب فيها حزب "الجبهة الوطنية" جمهورًا للمرة الأولى. حيث اتضح أن هذا الحزب كان يكافح فى كل أنحاء فرنسا التى مرت بأعلى معدلات النمو منذ أواخر الأربعينات حتى أوائل السبعينات. ففى المناطق شبه الحضرية من هذه الأقاليم، فوجئت المجتمعات الصغيرة فى الثمانينات بالارتفاع السريع فى البطالة. حيث اجتمعت مشاكل العنف الحضرى مع وجود أعداد كبيرة من المهاجرين الأجانب، مما خلق مناخًا مضطربًا فى مدن مثل مارسيليا التى استغلتها "الجبهة" بفعالية.

وتولت دار النشر "لا ديكوفرت" نشر دراسة ضخمة عن الجيوبوليتيكا المحلية فى فرنسا. حيث ساهم العديد من الجغرافيين وبعض الاجتماعيين و العلماء السياسيين فى هذا الكتاب، الذى تم تنظيمه على أساس إقليمي. وقد أعد هذا العمل الجماعى فى فترة وجيزة جداً. وقامت دار نشر "فايارد" بنشره بعد انسحاب لا ديكوفرت من المشروع. وكان لابد من اختصار المسودة، وكان يمكن تحسين تحرير النصوص لو كان لاكوست وجبلين حظيا بمزيد من الوقت لمراجعة الفصول المختلفة (Lacoste 1986) ومع ذلك، كانت النتيجة عبارة عن مجموعة ضخمة من ثلاثة مجلدات حظيت بإعجاب الرأى العام الفرنسى. وكما كان الحال فى دول عديدة، أظهرت جغرافية الانتخابات الفرنسية درجة عالية من الاستقرار: فمنذ بداية الجمهورية الثالثة فى سبعيات القرن التاسع عشر كان الغرب الفرنسى معقلاً للأحزاب اليمينية.

ومع ذلك، كان ظهور "الجبهة الوطنية" شيئًا جديداً. ولم يصوت الغرب الفرنسى لصالح الجبهة الوطنية، باستثناء لا ترينيته فى موربيهان، معقل جين مارى لوبان. ففى الحقيقة جاءت أعلى الأصوات للجبهة من مناطق كان اليسار يحصل فيها على أعلى الأصوات عادة، وكانت فى دوائر انتخابية يسيطر عليها الحزب الشيوعى الذى كان حزب لوبان اليمينى يشن غاراته عليه. وواجه كتاب لاكوست هذه الاختلافات الواضحة، وكان مفيداً جداً للقادة السياسيين اليساريين، لأنهم كانوا مهددين بصورة مباشرة من الحزب اليمينى المتطرف الجديد.

ومنذ ١٩٨٤، صارت قضايا الجيوبوليتيكا الوطنية الفرنسية مهمة بصورة متزايدة فى هيرودوت. حيث خصصت أعداد لفرنسا فى ١٩٨٦ (جيوبوليتيكا فرنسا، Hérodote,no.40,19) وفى ١٩٨٨(فرنسا دولة مواطنين (Hérodote,no.50-1,1988) وفى بداية الثمانينات، عالجت هيرودوت موضوع التحضر فى العالم الثالث (Hérodote,no.17,1980) ومع ذلك، بحثت المجلة فى المضاربة على الأراضى والمشاكل السياسية للمدن فى ١٩٨٣ . وفى ١٩٨٦، تناولت المجلة جيوبوليتيكا المدن مباشرة،

وذلك فى عدد عن تطور الأحزمة شبه الحضرية فى المدن الفرنسية خاصة تلك التى تسكنها أغلبية سكانية شيوعية (ما بعد الأحياء الحمراء، Hérodote, no.43, 1986) وهكذا أظهر لاكوست وهيرودوت مرة أخرى الرغبة فى الاستجابة للأحداث الطارئة فى فرنسا الحديثة.

الجيوبوليتيكا فى عصر الأصوليات وحركات الاستقلال والقوميات

وأخيراً، كانت المشاكل الدولية تتغير أيضًا فى طبيعتها خلال الثمانينات، وقد عكست هيرودوت هذا التطور أيضًا. حيث كانت المجلدات الأولى المخصصة لمشاكل الجيوبوليتيكا تهتم أساسًا بالمناطق التى اعتبرها ساول ب.كوهين(Cohen 1973) أحزمة انتشار. ولذلك فإنه منذ منتصف الثمانينات ظهرت عوامل عديدة على الساحة الدولية، ولم تعد المصالح الاقتصادية والصراع بين التصورين الرأسمالى والاشتراكى للحضارة الغربية يمثلان العوامل العامة الوحيدة على الساحة. حيث عارضت أعداد متزايدة من الشعوب العمليات المرتبطة بالعولمة الثقافية، وحاربوا من أجل الحفاظ على ثقافتهم وتقاليدهم. حيث بدأ هذا التحول مع ظهور الحركات الدينية كعامل جديد على المسرح السياسى الدولى.

وفى الحقيقة، كان هذا العامل قد بدأ فى الظهور قبل ذلك بستين سنة على الأقل، وذلك مع تأسيس جماعة الإخوان المسلمين فى مصر خلال العشرينات. إذ كانت الحركات الدينية تنشط غالبًا فى حروب الاستقلال، ولكنها كانت أقل تنظيمًا وفعالية وظهوراً من المجموعة الثورية اليسارية. وقد تغير الموقف مع ثورة الشيعة فى إيران فى ١٩٧٩ - , ١٩٨٠ فخلال سنوات قليلة أصبحت الأصولية الإسلامية عاملاً رئيسيًا فى الحسابات السياسية من شرق أفريقيا إلى وسط آسيا، ومن إندونيسيا إلى المغرب ومنطقة الساحل فى غرب أفريقيا. وغطت هيرودوت هذا التطور من خلال عددين نشرا فى ١٩٨٤ (جيوبوليتيكا الإسلام، ١: دوائر الإسلام، Hérodote, no.35, 1984) وفى

١٩٨٥ (جيوبوليتيكا الإسلام، ٢: مراكز الإسلام، Hérodote, no.36, 1985) حيث كان العدد الأول يهتم بالدوائر الإسلامية باستخدام أسلوب أكثر عمومية فى ١٩٩٠ (الكنائس و الجيوبوليتيكا، ١٩٩٠ Hérodote, no.56) وبحلول منتصف التسعينات، كانت فرنسا تتأثر مباشرة بظهور الأصولية فى مجتمعاتها المسلمة، فعادت هيرودوت مراراً إلى هذه المشكلة من خلال عددين خاصين (كبح أم تقبل الإسلاميين، Hérodote, no.77, 1995) و (أخطار الجيوبوليتيكا فى فرنسا، Hérodote, no.80, 1996).

وبالإضافة إلى الحركات الدينية، استجابت المجلة فى السنوات الأخيرة لانهيار النظم المتأثرة بالاتحاد السوفيتى، وتجدد الحركات القومية التى طرأت على الساحة السياسية الدولية. وفى حالات عديدة، كانت الحجج التى طورتها الحركات القومية الجديدة قد ظهرت بين المنفيين، وقام الحكم الاشتراكى بالحفاظ عليها. وباستخدام منظور آخر، يمكن تحليل هذه الحركات القومية كأشكال احتجاج ضد عملية العولمة الثقافية. وهكذا فإن الحركات الاستقلالية والإقليمية فى الديموقراطيات الغربية، والحركات القومية فى دول الكتلة الشرقية السابقة والأصوليات فى العالم النامى، كانت كلها بمثابة تعبيرات متنوعة عن الرفض العام لبعض جوانب التحديث. ونتيجة لذلك، بدأت الخريطة السياسية للعالم تتغير بدرجة أسرع من ذى قبل خلال القرن الماضى مع انهيار الاتحاد السوفيتى وتشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا. وكانت عملية التفكك عنيفة فى البوسنة وأرمينيا وأذربيجان والشيشان وطاجيكستان. ولم يشهد النظام العنصرى فى جنوب أفريقيا نهاية بيئة الحرب الباردة، فى حين أنه فى أماكن أخرى فى أفريقيا فقدت دول عديدة قوة البنية التحتية، بل ومصداقيتها لأن الدعم السياسى والاقتصادى الذى كانت تقدمه الدول العظمى قد تبخر. وكان عدم الاستقرار يهدد الحكومات، وتزايدت احتمالات حدوث تغيرات جوهرية فى الحدود فى المستقبل القريب بسرعة.

وقد غطت هيرودوت كل هذه التحولات. حيث نشرت دراسات حالات مدهشة عن مناطق المشاكل في العالم المعاصر، وظلت هذه التغيرات الجوهرية تحتل صفحات من

المجلة. ومع ذلك، فإنه نظراً لأنها نجحت فى تحليل المواقف على نطاقات مختلفة، كانت قادرة على إظهار الانتماءات القومية والاصولية الجديدة بين الأقليات الإسلامية فى أوروبا الغربية، مما جعل الدول القومية المستقرة منذ فترة طويلة تصبح أكثر هشاشة فجأة. حيث استعادت عملية التجزئة الطويلة - التى كانت مهمة جداً فى البلقان فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين - عزمها ثانية (البلقان والبلقنة، Hérodote, no.63, 1991) ومن هنا ظهر اهتمام هيرودوت بفكرة الأمة.

فكرة الأمة

بدأت هيرودوت منذ ١٩٩٠ دراسة مشاكل الدول القومية، والمشاكل المرتبطة بالقوميات، وظهور دول قومية جديدة، والأزمات الدولية الناتجة عن هذه العملية. ففى ١٩٩١ كان العدد الخاص عن "أقاليم الأمة" يركز على تطور ظهور فرنسا.

"تعتبر مسألة الأمة ومسألة إقليمها مهمة فى فرنسا، ولكن يمكن القول بطريقة محددة جداً إنها مشكلة مركزية داخلية، ولا تتعلق بالهوامش أو المناطق الحدودية"(La-coste 1991a: 12)

وهناك حركات إقليمية وانفصالية فى فرنسا، ولكن باستثناء كورسيكا، تنقصها القوة التى تظهرها فى بريطانيا أو أيرلندا أو أسبانيا. حيث أدت سياسة اللامركزية التى بدأت فى ١٩٨٢ إلى ظهور أشكال جديدة من العلاقات والتوترات بين الدولة المحلية وباريس، ولكن الصراعات كانت محدودة. حيث يعلق لاكوست قائلاً: "إن ما يسمى بمشكلة الهجرة هو الذى يدفع بالعديد من الفرنسيين - سواء كانوا يمينيين أو يساريين - إلى القلق على مصير الأمة" (Lacoste 1991a: 13)

ويعتبر معدل البطالة المرتفع مسئولاً جزئياً عن التوترات بين المواطنين ومجتمعات المهاجرين فى فرنسا، ولكن لاكوست يرى أن المشكلة أكثر تعقيداً. فالقوى الاقتصادية كانت مسئولة عن تركز المجموعات منخفضة الدخول فى "إسكان المجلس":

"إن مشكلة الاندماج ليست اقتصادية أو اجتماعية ثقافية فحسب، ولكنها مشكلة جغرافية أيضاً، عندما تثار مسألة الجيتو. فيمكن اليوم أن تتساءل عما إذا كانت بعض القوى السياسية، خاصة المسلمين، لا تحاول عمداً تكوين جيتو يتمتع بأغلبية مسلمة، إن لم يكن متجانساً عرقياً" (.Lacoste 1991a" 18)

وهذا يعنى عند لاكوست أن مشكلة الاندماج ليست اقتصادية أساساً. بل لها بعد سياسى:

"إن الاندماج عبارة عن مشروع سياسى يعتمد أساساً وقبل كل شئ، خاصة فى ظل القواعد السارية فى الأمة ... على كل الذين يعتبرون (والذين سيصبحون قريباً) مواطنين فرنسيين، ولكنهم لا يزالون يعتبرون أنفسهم مهاجرين، ويعتقدون أن فرنسا ليست وطنهم حقيقة" (Lacoste 1991: 19) وهناك عقبات نفسية أمام الاندماج:

"يجب على هذا النشاط تخطى عقبات عديدة، والمفاهيم المسبقة والعنصرية، التى توجد كثيراً بين "المهاجرين" وبين الشعب الفرنسى كذلك.

ولكن حتى يندمج "المهاجرون" حقيقة كمواطنين فى الأمة الفرنسية، يجب أن تحقق لهم تلك الجهود شيئاً هاماً، وليس مجرد المزايا المادية التى يملكونها أساساً.

... ولهذا السبب يجب أن يكون الفرنسيون]هكذا [فخورين لكونهم فرنسيين. وقد تبدو هذه الملاحظة للكثيرين كعبارة بطولية ساذجة، ولكن التمثيل الجغرافى يكون شديد الأهمية فى هذه المشاكل، وفى الماضى أصبح عدد كبير من المهاجرين وخاصة المتميزين منهم ... فرنسيين لأنهم كانوا فخورين بذلك" (Lacoste 1991a: 19)

ونتيجة لذلك، يعتبر لاكوست أن اندماج المهاجرين فى الأمة الفرنسية اعتمد من جوانب عديدة على درجة معينة من الفخر الوطنى، واتجاهات الفرنسيين هكذا [نحو الأمة الفرنسية.

وقد تطورت هذه الحجة – التى كانت محور العدد الخاص لسنة ١٩٩١ بعنوان "أقاليم الأمة" بدرجة كبيرة فى التسعينات. ففى ١٩٩٣ كتب لاكوست:

"وهكذا فإن الوضع السياسى فى فرنسا يعتبر خطيراً: ومن المؤكد أن البطالة هى العامل الرئيس والمستمر، ولكنها يمكن أن تتدهور بسبب عوامل جيوبوليتيكية داخل أو خارج الوطن، وبسبب ردود أفعال الرأى العام. وهذا هو ما يجعل تحليل العروض الجيوبوليتيكية ضرورياً أكثر من ذى قبل، والأهم من هذا كله أن المفاهيم المختلفة للأمن تحتاج إلى دراسة. ومن الضرورى ألا تقتصر هذه الفكرة الأساسية على المجموعات القومية لأقصى اليمين، لتصبح مشروعاً قومياً لكل المواطنين من جديد (Lacoste 1993b: 7)

وقد ركز لاكوست على الحاجة إلى دراسة طريقة فهم الأمم فى الأقاليم التى تفككت فيها الدول بعد سقوط جدار برلين. فقد كان لدى المجموعات القومية مفاهيم مختلفة لذلك الحيز القومى. ويشمل هذا المنطقة التى تسيطر عليها المجموعة، وكذلك المناطق التى تختلط فيها أقليات من هذه المجموعة مع بقية السكان، والمناطق التى كان يجب على أفراد المجموعة تركها فى الماضى، ولكنهم تركوا آثاراً تعلن عن دورهم الثقافى السابق:

"ولا تزال هذه الدول تعتبر جزء من التراث القومى، وحتى إذا لم يكن هناك ادعاء رسمى بذلك. وهذا هو الحال بالنسبة للشعوب الألمانية فى بروسيا الشرقية السابقة،أو بوميرانيا أو سليزيا: وهذه أقاليم تعتبرها بعض الجماعات القومية بمثابة ألمانيا الشرقية الحقيقية (Lacoste 1991b: 7)

وهكذا تظهر خطورة وتعقيد الادعاءات القومية، ويذهب لاكوست فى ذلك قائلا:

"إذا اعتقدنا أنه بوسع الأمة أن "يكون" لها هذه الأنماط المختلفة من الأقاليم، فإنها ستكون مجموعة من الأقاليم المتداخلة والمتقاطعة بمجرد أن نتخيل وجود عدة أمم متجاورة متنافسة. وتعرض أقاليم دولتهم - المحددة بحدود رسمية - على الخريطة بطريقة بسيطة نسبيًا،]ولكنها ... [تكون خريطة أكثر تعقيداً تمثل تداخل الأنماط الأخرى من الأقاليم من الأمم الأخرى، ولكن هذه هى الخريطة التى تسمح بفهم أفضل للتوترات بين الشعوب، وإلى أى حد يمكن أن تتعقد المواقف الجيوبوليتيكية (Lacoste 1991b: 13)

وكما فعل لاكوست مع مشاكل التنمية فى الثمانينات، قام مؤخراً بتلخيص موقف هيرودوت من المشاكل القومية بنشر كتاب "تحيا الأمة! مصير فكرة جيوبوليتيكية" (Lacoste 1996) وكان الدرس بسيطاً هكذا:

"وأخيراً، فإن هدفى لا يتمثل فى تقديم نموذج للأمة، ولكنه يتمثل فى تقديم طريقة جديدة لتعريفها، مع مراعاة الخصائص المشتركة للأمم الأساسية فى أوروبا الغربية، ومن منظور الاتحاد الأوروبى ... وبالنسبة لعدد كبير من الفرنسيين، فإن فكرة الأمة ليست مجرد مسألة إقليمها أو لغتها أو تاريخها، ولكنها أيضاً فكرة الدولة. حيث تشمل فكرة الأمة لدى كل واحد منا ... نوعاً من العلاقة الحميمة مع كل هذا. فإذا كانت فكرة الأمة بهذه الأهمية، فذلك لأنها تشحذ مشاعر شخصية عميقة ... ونظراً لأنها تشير إلى إقليم ولغة وتاريخ ودولة، فالأمة تعتبر فكرة جيوبوليتيكية، وهى تعنى الكثير من المشاعر الشخصية الداخلية بالنسبة للكثيرين منا" (Lacoste 1997: 329)

ونتيجة لذلك، لابد من الاحتفاظ بفكرة الأمة (ومن هنا جاء عنوان الكتاب: تحيا الأمة). فهى توفر المكان الذى يمكن أن تتحقق فيه المسئولية الجماعية، التى تعتبر ضرورية لحياة الديموقراطيات. ويرى لاكوست أنه يستحيل وجود مواطنين أوروبيين فى الاتحاد الأوروبى، ما لم يكونوا مواطنين أولاً وقبل كل شئ فى دول أوروبية مختلفة. ولكن الخطورة تكمن فى منع احتكار فكرة الأمة للحركات اليمينية المتشددة، فى حين أنها تمثل فى الحقيقة أساس كل التجارب الديموقراطية الحديثة.وهنا أيضًا يقدم لاكوست تحليلاً نقديًا للمفاهيم السائدة، ويقترح تفسيرات تضم عناصر غالبًا ما تدعيها الأحزاب اليمينية فقط. ويوضح أنها ضرورية لبناء المجتمع الديموقراطى الحديث، سواءً من المنظور المحافظ أو المنظور الليبرالى.

جمهور هيرودوت فى فرنسا

تختلف هيرودوت عن العديد من المجلات الجغرافية بسبب الجمهور الذى تحاول أن تجتذبه. فهى تبدو كما لو كانت مجلة لاكوست الخاصة، فدائمًا ما تشمل مقالاً افتتاحيًا له، وقد فرض عليها منذ البداية عدة قواعد على المساهمين فيها: إذ يجب أن

تكون الأوراق مكتوبة جيداً، بمعنى أنها يجب أن تكون معبرة بوضوح، وتتجنب المصطلحات الفنية. ولذلك يجب أن تكون متاحة للقارئ غير المتخصص. وبالرغم من أنها مكتوبة للجغرافيين، إلا أنها لا تعتبر منشوراً قاصراً على الأكاديميين. حيث يتمثل طموح لاكوست الأساسى فى أن يقرأ مجلته كل الذين يدرسون الجغرافيا فى المدارس الثانوية، وبعض تلاميذهم، خاصة فى الفئة العمرية من ستة عشر إلى ثمانية عشر سنة. ويكمن وراء هذا الطموح اعتقاده أن الوظيفة الأساسية للجغرافيين فى الجامعات تتمثل فى تقديم تدريب مفيد لمدرسى المدارس الثانوية فى الغد. فبهذه الطريقة يستطيع جغرافيو المدارس الثانوية تقديم دروس جيدة، مما يعنى وجود أشخاص متعلمين قادرين على مواجهة المشاكل الحقيقية للعالم المعاصر، بما يتناسب مع المواطن العصرى. أى أن هيرودوت لها رسالة مدنية: ومن هنا جاء الاهتمام بمشاكل الأمة بصفة عامة وبحياتها السياسية بصفة خاصة، وبإعادة صياغة لاكوست للجيوبوليتيكا، والاهتمام بسياسة ومستقبل فرنسا.

ومع ذلك، لا يتبنى لاكوست أجندة وحيدة، لأن إحدى خصائص الجغرافيا الفرنسية منذ السبعينات كانت تتمثل فى رغبة العديد من أساتذة الجامعات فى التأثير فى التدريس فى المستوى الثانوى. وهكذا حاول روجر برونت أيضًا أن يؤثر على جغرافيا المدارس من خلال دوره كمحرر منذ ١٩٧٢ لمجلة "الحيز الجغرافى"، وهى مجلة جغرافية أكاديمية. وبعد ذلك كان دوره جوهرياً فى إصدار مجلة كارتوجرافية دروية تسمى "خارطة العالم Mappemonde". وكان لها صفتان بارزتان: تقديم التطورات الحديثة فى هذا العلم (الكارتوجرافيا الآلية والاستشعار عن بعد)، والتطبيقات المختلفة للكارتوجرافيا (خاصة استخدامها فى التدريس). وكان جمهور قراء هذه المجلة مثل جمهور هيرودوت، ولكن المنهجيات كانت مختلفة. فمنذ السبعينات قدم برونت تفسيراً كارتوجرافياً للجغرافيا البشرية. إذ كان يرى أنه من السهل عرض كل موقف جغرافى برسم كارتوجرافى مبسط. أى أنه يمكن تبسيط الحقيقة فى مكوناتها الجغرافية الهامة، النقط والخطوط والمساحات وتوليفاتها التى كانت تسمى "كورمات chorems". وكان

يعتقد أنه هكذا يمكن إرساء تحليل المواقف الجغرافية فى تطورات الجغرافيا ونظم التحليل "الجديدة". وشجعت تفسيراته العديد من مدرسى المدارس الثانوية الذين اكتشفوا أن الرسوم البسيطة كانت تمثل أدوات عملية قيمة.

وهكذا ظهر منذ أوائل الثمانينات تفسيران متنافسان للجغرافيا الحديثة، يحاولان تعديل طريقة تدريس الجغرافيا فى المدارس الثانوية الفرنسية، ويتنافسان على نفس الجمهور. وكان لاكوست ينتقد دائمًا مفهوم برونت للكارتوجرافيا. وتزايدت عداوته فى التسعينيات، عندما تطورت اهتماماته بفكرة الدولة. فكما يقول لاكوست، كانت طريقة برونت فى رسم خرائط للواقع غير قادرة على تمثيل تنوع وتعقد مفهوم الفرد عن الأقاليم. حيث كتب لاكوست فى ١٩٩٣ ما يلى:

"(بالنسبة إلى فكرة الأمة) وفيما يتعلق بهذه المسائل، هناك فى الحقيقة تياران فكريان متنافسان بين الجغرافيين، وللتبسيط يمكن القول إن المجموعة الأولى، التى ترغب فى تحليل مواقف جيوبوليتيكية دقيقة، تنشر فى هيرودوت، فى حين أن المجموعة الثانية تمنع أية إشارة إلى الجيوبوليتيكا، ولكى تكشف وتبرر "نظامًا" معينًا أو "قوانين المكان"، والذى سيتحقق على أيدى علم سيكون جديداً" اسمه "كروماتيك chorematics وكل هذا له أهمية أكثر مما يبدو للوهلة الأولى، وهو لا يهم الجغرافيين فقط، ولكنه يهم كل المواطنين، لأنها مسألة تنظيم المكان والتخطيط الإقليمى فى الحقيقة"(lacoste 1993b: 7-8)

وكانت هذه المشكلة تبدو مهمة جداً بالنسبة إلى لاكوست، لدرجة أنه أعد عدداً كاملاً من هيرودوت شن فيه نقداً لا هوادة فيه لطرق الرسم الكوروماتيكية ("الجغرافيون والعلم والخيال، Hérodote, no.76: 1995).

وفى مناسبة أخرى، تعرضت هيرودوت لهجوم مجموعات من اليسار الفرنسى. فعندما ظهرت المجلة لأول مرة، نشرت مجلة "الإنسانيات" التى يصدرها الحزب الشيوعى الفرنسى، نقداً حاداً لمجلة هيرودوت كتبه جغرافى شاب يدعى جاك ليفى. وقد تذكر لاكوست ذلك حديثًا فكتب:

"ولكن هيرودوت لم تترك المجموعات السياسية بلا تمييز، ومن المحير أن مقالين طويلين ظهرا على التوالى بعد ذلك بفترة قصيرة فى "الإنسانيات" حملا أشد الانتقادات. حيث استنكر هذه الطريقة الجديدة - أى منظور "العالم الثالث" بصورة أو بأخرى - للتعامل الجغرافى مع المسائل السياسية بدون الإشارة للماركسية. حيث يرى "التقليديون" أن حقيقة أنه لا يمكن تحدينا بأية إشارة إلى الجغرافيا فى النصوص الماركسية المقدسة تجعل كتاباتنا موضع شك، لأنهم خاطروا بإبراز هذا الحذف (للجغرافيا) من جهة الآباء المؤسسين. وكان هذا بمثابة فرصة للحرية بالنسبة لنا (La-coste 1996a: 7)

ولكن جين دريش - الشخصية البارزة فى الشيوعية الفرنسية - ردت على ذلك بسرعة، وشرحت لمحررى "الإنسانيات" أن هيرودوت لم تكن مجلة يمينية أبداً. فتوقفت الهجمات ضد المجلة الجديدة مباشرة. ومع ذلك، كانوا معرضين لردود أفعال العديد من الجغرافيين اليساريين الذين لم يفهموا أسباب عودة الجغرافيين إلى الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيكا بعد أكثر من ثلاثين عاماً من الانتقاد الشديد ضد هذا الفرع من العلم أو إهماله ببساطة. وفى الحقيقة، لم يكن الاهتمام المتجدد بالجغرافيا السياسية قاصراً على الجغرافيين اليساريين، لأنه فى الفترة من ١٩٧٥ إلى ١٩٨٠ مثلاً، ظهرت إسهامات جديدة فى مجال الجيوبوليتيكا قدمها آندريه - لويس سانجين (Sanguin 1977) وبول كلافال (Claval 1978) وكلود رافشتاين (Raffstin 1980) ومع ذلك، تظهر هذه المسافة ليس فقط مدى رسوخ هيرودوت فى الخطاب الجيوبوليتيكى الفرنسى، ولكنها تظهر أيضاً مدى تأثيرها خارج المجال الأكاديمى فى المجال العام.

وعندما نحاول قياس تأثير هيرودوت على الرأى العام الفرنسى، لابد أن نتذكر أن هدفها الأساس ليس النخبة اليسارية الفرنسية المستنيرة، بل كل من يدرس الجغرافيا والتلاميذ والطلاب المهتمين بمشاكل العصر. حيث يفسر هذا التوجه لماذا كان أثر هيرودوت محدوداً على الصحف اليومية أو الاسبوعية (ربما باستثناء ليبراسيون)، ولكن

تأثيرها ظل هامًا. إذ يعتبر توزيعها (حوالى ستة آلاف نسخة) مرتفعًا بالنسبة لمجلة متعلمين فى العالم الناطق بالفرنسية. ويرجع جزء من تأثير هيرودوت إلى أعضاء هيئة تحريرها السابقين الذين تركوها لتطوير مجالات أنشطتهم الخاصة. وعلى سبيل المثال، كوّن ميشيل فوشر مؤسسة استشارية تتعامل مع المشاكل الجغرافية. وكان يعمل لصالح المصارف والمؤسسات التجارية، ولعب دورًا هامًا فى أوقات معينة فى وزارة الشئون الخارجية الفرنسية.

استقبال هيرودوت فى الخارج

كان تأثير هيرودوت كبيرًا فى الخارج أيضًا، خاصة فى الدول الناطقة باللاتينية. حيث كان الجغرافيون الفرنسيون نشطين فى تطوير العلم فى دول مثل البرازيل والأرجنتين. وكانوا بمثابة نماذج فى أسبانيا والبرتغال، وإلى حد ما فى إيطاليا (حيث كانت الجغرافيا الألمانية معروفة أيضًا). وقد عانى العديد من هذه الدول من تجارب فاشية مأساوية، سواءً قبل الحرب العالمية الثانية، أو خلال الحرب أو بعدها. وكان معظم الجغرافيين فى هذه الدول ينظرون إلى فرنسا من أجل الاتجاهات المناهضة للفاشية والامبريالية، وظهر أن هذا التفاؤل له أساس، نظرًا لأن الجغرافيين الفرنسيين المرتبطين بببيير جورج أكدوا هذا الاهتمام. وترعرعت أفكار لاكوست وهيرودوت فى تربة خصبة بهذه الجذور الفكرية. وفى الحقيقة، تحقق هذا الأثر من المذكرة المبدئية ومن مقالات السنوات الخمس الأولى (١٩٦٧ – ١٩٨١). ويعنى هذا أن التغيرات الأكثر تقدمية فى مفاهيم الجيوبوليتيكا والامبريالية والأمم ظلت مجهولة منذ ذلك الوقت، خاصة فى اسبانيا والبرازيل ودول أمريكا اللاتينية الناطقة بالأسبانية.

ولكن تأثير هيرودوت فى ايطاليا اتخذ شكلاً آخر. حيث ترجم كتاب لاكوست إلى الايطالية بعنوان "أزمة الجغرافيا، و جغرافيا الأزمة" (Lacoste 1978) وقام الناشر برتانى بنشر مجلة هيرودوت / إيطاليا، "الاستراتيجية والجغرافيا والأيديولوجية" فى

فيرونا فى ,١٩٧٨ ومع ذلك، كان توجهها السياسى مختلفًا عن التوجه الفرنسى: فقد كانت مجلة ماركسية. وفى ١٩٨٣ أصبح العنوان "هيرودوت، مشكلة الجغرافيا"، ولكن نجاحها كان محدوداً، واختفت فى ١٩٨٤ بعد نشر ستة أعداد فقط. ومع ذلك، كانت الجيوبوليتيكا حاضرة فى ايطاليا خلال الحقبة الفاشية، مع نشر مجلة "الجيوبوليتيكا" فى تريستا (Atkinson 1995, Antonsich 1996) وبعد الحرب تم اجتناب المصطلح والمجال كله فى البلاد. وظهرت الطبعة الايطالية من هيرودوت مبكرًا جداً.

وبعد ذلك بعشر سنوات، كان الوضع مختلفًا لأن مناقشات الجيوبوليتيكا بدأت بين الجغرافيين الايطاليين فعلاً فى ١٩٨٣- ١٩٨٥ . حيث بدأ ضباط الجيش والبحرية الايطاليين، مثل اللواء كارلو جين، النشر عن مشاكل الجيواستراتيجيا و الجيوبوليتيكا. وفى نوفمبر ١٩٩١، نشرت المجلة الثقافية اليسارية الايطالية "مايكروميجا" عدداً عن الجيوبوليتيكا، به أوراق من بعض أعضاء هيرودوت. فأثار ذلك اهتمامًا كبيرًا فى ايطاليا. حيث اتصل لوشيو كاراشيولو، الذى كان قد ساهم فى مايكروميجا، بميشيل كورينمان الذى كانت له صلات فى ميلانو. وقاما بتجميع مجموعة من الضباط العسكريين المؤثرين (كارلو جين) وعلماء السياسة والاقتصاديين والصحفيين وبعض الجغرافيين (جيتانو فيرو و ماريا باولا باجنينى). وفى مارس ١٩٩٣، أصدروا "لايمس، المرجع الايطالى للجيوبوليتيكا". وتناول العدد الأول الجيوبوليتيكا ثم تفكك حدود يوغسلافيا. ووصلت إلى جمهور عريض، حيث يرجع ذلك جزئيًا إلى انطلاقها من الإدانة الأخلاقية لكل أشكال القوة، وهو المبدأ الأساسى الذى اعتمدت عليه هيرودوت فى نسختها الإيطالية. وكانت تعتبر مجلة يسارية، ولكن بدون أية مساهمات ماركسية. وفى الحقيقة كان مؤلفوها ينتمون إلى خلفيات سياسية مختلفة. وكان أحد الانجازات الكبرى لمجلة "لايمس" يتمثل فى إعادة طرح فكرة الأمة كعنصر أساس فى المناقشات السياسية بين المثقفين اليساريين فى ايطاليا. وبدأ إصدار فرنسى سنوى من "لايمس" فى ١٩٩٦، ولكنها ظهرت أكثر افتعالاً من هيرودوت، ولم تحقق نجاحًا كبيرًا من حيث التأثير والتداول مثل نموذجها الإيطالى.

وقد نشر كروم هيلم فى ١٩٨٥ ترجمة انجليزية لمقالات هيرودوت أعدها جيروت وكوفمان (Girot and Kofman 1985) وقدم أويفند أوستيرود تقييماً مختصراً لهيرودوت فى الورقة التى كتبها عن "استخدام وإساءة استخدام الجيوبوليتيكا"(Osterud 1987) ومؤخراً، قدم المسح الجديد الذى أعده جيوفرى باركر على التقليد الجيوبوليتيكى الغربى تحليلاً دقيقًا للجغرافيا السياسية الفرنسية ودور هيرودوت(Parker 1998) ونتيجة لذلك، أصبح المسار الفكرى لهيرودوت مشهوراً تمامًا فى العالم الناطق بالانجليزية، واعترفت إسهامات حديثة فى الجيوبوليتيكا النقدية الأنجلوفونية بإسهام دراسة لاكوست للعلاقة بين الجغرافيا وقوة الدولة (ó Tuathail 1996) ومع ذلك، سيكون من العدل أن نذكر أن المشاركة النشطة فى الأدبيات التى ولدتها هيرودوت كانت محدودة نسبيًا فى الجغرافيا السياسية الأنجلوفونية، بالرغم من التأثير الفكرى الواضح للمفكرين الفرنسيين مثل فوكو ودريدا و بو دريلارد.

الخاتمة

كيف يلخص المرء التوجهات الرئيسة لهيرودوت وتأثيرها؟ لقد نجح لاكوست في إصدار مجلة دائمة واسعة الانتشار. ويعتبر جمهورها كبيراً بين الدارسين الفرنسيين في الجغرافيا ومدرسي المدارس الثانوية وجمهور عريض لديه توجهات يسارية. حيث ساهمت هيرودوت كثيراً في تحول اتجاهات اليسار: فبفضل تحليلاتها، لم تعد مزاعم العالم النامي مفرطة في التبسيط، ولم تعد الامبريالية المصدر الوحيد للشرور في الدول الفقيرة. فمنذ عشرين سنة مضت، كان معظم المفكرين اليساريين ينتقدون فكرة الأمة. ولكن نتيجة لتأثير لاكوست، أصبحت الأحكام أكثر تنوعًا الآن: حيث يعتقد كثير من الناس أن الأمة كانت، ويمكن أن تبقى، علامة مميزة للهوية والمواطنة.

ومع ذلك، هناك أيضًا أوجه قصور لدى هيرودوت. ففي السبعينات كان لاكوست ينتقد التركيز المفرط على العوامل الاقتصادية في العديد من منشورات تلك الفتره. ومع ذلك، يرجع جزء كبير من التقييم السياسي المعاصر للعالم إلى عوامل اقتصادية. فخلال ثلاث وعشرين سنة منذ صدورها لم تقدم هيرودوت تحليلاً للعولمة الاقتصادية وارتباطاتها السياسية. وكان لبروديل علاقات ودية مع لاكوست الذي كتب دراسة شيقة عنه (Lacoste 1990) إذ كان هذا المؤرخ العظيم يساند هيرودوت بشدة. ومع ذلك، لم تحقق الجيوبوليتيكا، التي تعتمد على فكرة الاقتصاد العالمي التي كان يساندها، أي نجاح في فرنسا. وفي مجال مماثل، قامت هيرودوت بتحليل القوى الكبرى في العالم في التسعينيات فقط. ويفسر انهيار الاتحاد السوفيتي عدد الدراسات التي أعدت عن الحدود والدول الجديدة التي ظهرت منذ ذلك الوقت داخل حدوده السابقة. وصدرت أعداد خاصة عن اليابان في ١٩٩٥، والولايات المتحدة في ١٩٩٦ . وفي الحالة الأخيرة

غطت المجلة فقط مشاكل الأقليات، والعنصرية والتوازن الداخلى للبلاد، وتجاهلت اتفاقية النافتا وآفاق الاتحاد الاقتصادى للرابطة الأمريكية. وبالنسبة لمنشور متخصص فى الجيوبوليتيكا، لا يوجد تقييم لدور الولايات المتحدة فى فترة ما بعد الحرب الباردة. وكذلك لم تخصص هيرودوت سوى صفحات قليلة للمشاكل الداخلية للصين وسياستها الخارجية.

ويمكن تفسير ندرة المعلومات عن هذه الأقاليم والمشاكل الهامة جزئيًا بتركيبة لجنة التحرير: فمعظم الأعضاء كانوا على دراية بأوروبا والبحر المتوسط والشرق الأوسط وأفريقيا وأمريكا الجنوبية أساسًا. وكانت .

العلاقات الفكرية للمجلة قائمة فى المقام الأول مع الدول الناطقة باللاتينية فى جنوب أوروبا وأمريكا اللاتينية، ومع المفكرين والجغرافيين المهرة فى اللغة الفرنسية فى شرق أوروبا والعالم العربى والشرق الأوسط وكانت علاقاتها مع ألمانيا تعتمد أساسًا على ميشيل كورينمان. وظلت العلاقات مع الجغرافيين الناطقين بالانجليزية نادرة حتى انضمام دارسين شباب تدربوا جزئيًا فى الولايات المتحدة إلى لجنة التحرير، مثل فريدريك دوزيت. وكان لاكوست يعرف تمامًا أنه لابد أن يقدم دراسات عن أمريكا الشمالية، ولكنه لم يجد متعاونين مهرة فى هذه المنطقة إلا مؤخرًا. ومع ذلك، كانت أسباب عدم التوازن أكبر من مجرد نقص الخبرات، لأن لاكوست كان لديه فى الأساس اتجاه للمبالغة فى التركيز على دور العوامل السياسية، وإهمال العمليات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية الأوسع فى العالم غير الفرانكوفونى.

ومع ذلك، لعبت هيرودوت دورًا حاسمًا فى نشر الجيوبوليتيكا فى فرنسا المعاصرة، حيث توقف العلم عن الارتباط بالامبريالية وسياسة القوة والتحيزات الأيديولوجية. وفى جامعة باريس-٣، أعد لاكوست برنامج دكتوراة فى الجيوبوليتيكا، ويعتبر من أنشط البرامج فى فرنسا، حيث جذب العديد من الجغرافيين والعلماء السياسيين المؤهلين جيدًا. وبهذه الطريقة أيضًا، ساهم فى رفع مستوى المناقشات

الجيوبوليتيكية المعاصرة فى فرنسا. فهناك العديد من الجغرافيين الفرنسيين يعملون الآن فى الجيوبوليتيكا، بالرغم من وجود قدر كبير من التنوع الفكرى. وقد طوروا علاقات جديدة مع العالم الناطق بالانجليزية (آندريه لويس سانجين، بول كلامال) وألمانيا (ريتشارد كلاينشماجر). وكذلك يهتم الكتاب الجيوبوليتيكيون الفرنسيون بمشاكل الأقليات والمواقف متعددة الثقافات (Sanguin 1993;Goetschy and Sanguin 1995) والدور المتزايد للمدن الكبرى على المشهد السياسى العالمى (Claval and Sanguin1997) والدور السياسى للمشتتين (Prévelakis1996) ويميلون إلى قضاء وقت طويل فى استكشاف جذور الفكر الجيوبوليتيكى الحديث Cla (val.1994; Muet1997; Raffestin, Lopréno and Pasteur 1995) بينما أحيا جورج بريفيلاكيس فكرة چين جوتمان عن علم الأيقونات iconography لكى يبنى نظامًا محكمًا للتفسير الجيوبوليتيكى.

وفى مكان آخر، "المؤسسة الوطنية للعلوم السياسية"، طورت مجموعة أخرى من الجغرافيين مجموعة من الاتجاهات المقارنة للجغرافيا السياسية والجيوبوليتيكا (Lévy1996; Durand, Retaillé and Lévy1992; Retaillé1997) حيث كانوا يشتركون مع هيرودوت فى تقوية الاحساس بالديموقراطية ومسئولية المواطنين من خلال الجيوبوليتيكا. وقد مارس الجغرافيا عدد متزايد من غير الجغرافيين. فكان منهم صحفيون (ChaliandandRageau1983;Chaliand1990) ولواءات Gal(lois1990;Poirier1985) وعلماء سياسة (Moreau-Desfarges,Lorot1995;Thual1996;Joyau1991-1993) ومن المؤكد أن بيرتراند بادى هو الأكثر أصالة من بين هؤلاء المؤلفين، وهو عالم سياسى حيث استكشف نتائج ضمور نوع الدولة القومية الذى ظهر أولاً فى أوروبا الغربية بعد القرن السابع عشر، ثم انتقل لكل مكان بعد ذلك Badie1996; and (Badie and Smouts1992 ولذلك ظهرت اتجاهات جديدة لا يمكن انكارها فى الجغرافيا السياسية فى فرنسا المعاصره، وكان لاكوست وهيرودوت المحرك الرئيس لتطورات هذا العلم منذ ١٩٧٦ . وفى هذا المجال، فإن لاكوست يستحق مكانًا خاصًا فى أى تاريخ لمصطلح "الجيوبوليتيكا".

شكر وتقدير

(يعرب المحرران عن عميق شكرهم لسيليفيا جراى لمساعدتها فى ترجمة وتحرير الاقتباسات الفرنسية من هيرودوت إلى الإنجليزية).

قائمة المراجع

Antonsich, M. (1996) 'Geografia politica e geopolitica in Italia dal 1945 ad oggi', *Quaderni del dottorato di ricerca in Geografia politica*, Trieste, 2: 19–53.

Anon. (1976) 'Des Cubains en Angola, mais aussi des Angolais à Cuba', *Hérodote*, 2: 23–9.

Atkinson, D. (1995) 'Geopolitics, cartography and geographical knowledge: envisioning Africa from Fascist Italy', 290–332 in M. Bell, R. A. Butlin and M. J. Heffernan (eds) *Geography and Imperialism, 1820–1940*, Manchester: Manchester University Press.

Badie, B. (1996) *La Fin des territoires*, Paris: Fayard.

Badie, B. and M.-C. Smouts (1992) *Le Retournement du monde. Sociologie de la vie internationale*, Paris: Presses de la Fondation Nationale des Sciences Politiques et Dalloz.

Châtelet, F. (1976) 'Hegel et la géographie', *Hérodote*, 2: 78–94.

Chaliand, G. (ed.) (1990) *Anthologie mondiale de la stratégie. Des origines au nucléaire*, Paris: Robert Laffont.

Chaliand, G. and J.-P. Rageau (1983) *Atlas stratégique: géopolitique des rapports de force dans le monde*, Paris: Fayard.

Claval, P. (1978) *Espace et pouvoir*, Paris: PUF.

——— (1994) *Géopolitique et géostratégie*, Paris: Nathan.

——— (1998) *La Géographie française depuis 1870*, Paris: Nathan.

Claval, P. and Sanguin, A. L. (eds) (1997) *Métropolisation et politique*, Paris: L'Harmattan.

Cohen, S. B. (1973) *Geography and Politics in a World Divided*, London: Oxford University Press.

Delmas, C. (1971) *Armements nucléaires et guerre froide*, Paris: Flammarion.

Durand, M.-F., Lévy, J. and Retaillé, D. (1992) *Le Monde. Espaces et systèmes*, Paris: Fondation Nationale des Sciences Politiques et Dalloz.

Foucault, M. (1976) 'Des questions de Michel Foucault a *Hérodote*', *Hérodote*, 3: 9–10.

Foucher, M. (1979–1980) 'Enquête au Nicaragua, I', *Hérodote*, 16: 5–35; 'Managua, ville éclatée, Enquête au Nicaraqua, II', *Hérodote*, 17: 32–51.

Foucher, M. (1983) 'Israël-Palestine: quelles frontières', *Hérodote*, 29–30: 95–134x.

Foucher, M. (1986) *L'invention des Frontières*, Paris: Fondation pour les Etudes de Défense Nationale.

Foucher, M. and Pichol, M. (1978) 'Territoire à prendre, territoire à défendre: le Larzac', *Hérodote*, 10: 91–115.

Gallois, P. M. (1990) *Géopolitique. Les voies de la puissance*, Paris: Plon.

Gentelle, P. (1980) 'Afghanistan: Russes et Asiatiques dans le piège', *Hérodote*, 18: 57–85.

Giblin-Delvallet, B. (1976) 'Elisée Reclus: géographie, anarchisme', *Hérodote*, 2: 30–49.

——— (1977) 'La nation-paysage', *Hérodote*, 7: 148–57.

Girot, P. and Kofman, E. (eds) (1985) *International Geopolitical Analysis. A Selection from Hérodote*, London: Croom Helm.

Goetschy, H. and Sanguin, A.-L. (eds) (1995) *Langues régionales et relations transfrontalières en Europe*, Paris: L'Harmattan.

Joyaux, F. (1991–1993) *Géopolitique de l'Extrême-Orient*, Brussels: Editions Complexes, 2 vols.

Korinman, M. (1984) 'Friedrich Ratzel, Karl Haushofer, "Politische Ozeanographie"', *Hérodote*, 32: 144–57.

—— (1990) *Quand l'Allemagne pensait le monde. Grandeur et décadence d'une géopolitique*, Paris: Fayard.

—— (1991) *Continents perdus. Les précurseurs de la géopolitique allemande*, Paris: Economica.

Lacoste, Y. (1976a) *La Géographie, ça sert, d'abord, à faire la guerre*, Paris: Maspéro.

—— (1976b) 'Enquête sur le bombardement des digues du fleuve Rouge (Viêtnam, été 1972)', *Hérodote*, 1: 86–117.

—— (1976c) 'A propos de Clausewitz et d'une géographie', *Hérodote*, 3: 65–75.

—— (1976d) 'Questions à Michel Foucault sur la géographie', *Hérodote*, 1: 77–85.

—— (1976e) 'Brader la géographie . . . brader l'idée nationale', *Hérodote*, 4: 9–55.

—— (1977) 'Fidel Castro et la Sierra Mestra', *Hérodote*, 5: 7–33.

—— (1978) *Crisi della geografia, geografia della crisi*, Milano: Feltrinelli.

—— (1979) 'A bas Vidal, viva Vidal !', *Hérodote*, 16: 68–81.

—— (1980) *Unité et diversité du Tiers Monde*, Paris: Maspéro, 3 vol.

—— (1984) 'Les géographies, l'action et la politique', *Hérodote*, 33–4: 3–32.

—— (1985) *Contre les anti-tiers-mondistes et contre certains tiers-mondistes*, Paris: La Découverte.

—— (ed.) (1986) *Géopolitiques des régions françaises*, Paris: Fayard, 3 vol.

—— (1990) 'Braudel géographe', in Y. Lacoste (1990) *Paysages Politiques*, Paris: Livre de poche, 83–149.

—— (1991a) 'Editorial: les territoires de la Nation', *Hérodote*, 62: 12.

—— (1991b) 'Editorial: Balkan et balkanisation', *Hérodote*, 63: 3–13.

—— (ed.) (1993a) *Dictionnaire de géopolitique*, Paris: Flammarion.

—— (1993b) 'Editorial: Démocratie et géopolitique en France', *Hérodote*, 69–70: 3–8.

—— (1996) '1976–1996, *Hérodote* à 20 ans', *Hérodote. Vingt ans de géopolitique 1976–1996*, May.

—— (1997) 'La République et la nation: quelques réflexions géopolitiques', *Géopolitique* 60: 60–5.

Lacoste-Dujardin, C. (1976) 'A propos de Pierre Bourdieu et de "l'Esquisse d'une théorie de la pratique"', *Hérodote*, 2: 103–16.

Lévy, J. (1996) *Le Monde pour Cité*, Paris: Hachette.

Lorot, P. (1995) *Histoire de la géopolitique*, Paris: Economica.

Maurel, M.-C. (1984) 'Pour une géopolitique du territoire, le maillage politico-administratif' *Hérodote*, 33–4: 131–43.

Moreau Defarges, P. (1994) *Introduction à la géopolitique*, Paris: Seuil.

Muet, Y. (1997) *Les Géographes et l'Europe. L'idée européenne dans la pensée géopolitique française de 1919 à 1939*, Geneva: Institut Européen.

Østerud, Ø. (1987) *The Uses and Abuses of Geopolitics*, Department of International Relations, Australian National University, Research School of Pacific Studies.

Ó Tuathail, G. (1996) *Critical Geopolitics*, London: Routledge.

Parker, G. (1985) *Western Geopolitical Thought in the Twentieth Century*, Beckenham: Croom Helm

—— (1998) *Geopolitics: Past, Present and Future*, London: Mansell.

Péchoux, P.-Y. (1976) 'Les dimensions géographiques d'une guerre localisée: Chypre 1974–1976', *Hérodote*, 3: 11–44.

Poirier, L. (1985) *Les Voix de la stratégie*, Paris: Fayard.

Prévelakis, G. (ed.) (1996) *Les réseaux de diasporas. The Networks of Diasporas*, Nicosia: Kykem Paris: L'Harmattan.

Raffestin, C. (1980) *Pour une géographie du pouvoir*, Paris: Litec.

Raffestin, C., Lopréno, D. and Pasteur, Y. (1995) *Géopolitique et histoire*, Lausanne: Payot.

Retaillé, D. (1997) *Le Monde du géographe*, Paris: Presses de Sciences Po, Paris.

Sangüin, A.-L. (1977) *La géographie politique*, Paris: PUF.

—— (ed.) (1993) *Les Minorités ethniques en Europe*, Paris: L'Harmattan.

Santibañez, R. (1977) 'Contrôle de l'espace et contrôle social dans l'Etat militaire chilien'. *Hérodote*, 5: 82–107.

Siegfried, A. (1913) *Tableau politique de la France de l'Ouest sous la III^{e} République*, Paris: A. Colin

Thual, F. (1996) *Méthode de la géopolitique. Apprendre à déchiffrer l'actualité*, Paris: Ellipses.

Varii Auctores (1991) *Autour de Raymond Guglielmo. Géographie et contestation*, Paris: CREV.

Varlin, T. (alias Michel Fouchet) (1977) 'La mort de Che Guevara. Le problème du choix d'un théâtre d'opérations en Bolivie', *Hérodote*, 5: 39–81.

الفصل الحادى عشر

جيوبوليتيكا اليسار

ييفز لاكوست وهيرودوت والجيوبوليتيكا الراديكالية الفرنسية

ليسلى هبل

تمهيد

فى عام ١٩٧٦ شهدت الجامعة التجريبية فى فانسان - وهى الجامعة الشهيرة بالأفكار الثورية وما بعد الماركسية، حدثا مدويا فى عالم الجغرافيا الفرنسية، وذلك مع ظهور دراستين مؤثرتين. نُشرت واحدة فى العدد الأول من مجلة "هيرودوت" صاحبة الاسم الغامض، ونشرت الثانية فى كتيب من تأليف ييفز لاكوست حمل عنوان "صناعة الحرب هدف الجغرافيا الأول" (Lacoste 1976a) وقد ظهر كتيب لاكوست فى حجم صغير وبغلاف أزرق مميز، وقام بنشره ماسبيرو المتخصص فى التحليلات اليسارية. واعتبر الكثيرون هذا الكتيب بمثابة بيان ثورى للجغرافيا، على غرار "الكتاب الأحمر الصغير" الذى ألفه ماو. حيث كتب مؤرخ الجغرافيا الفرنسية نوما بروك أن "جامعة فانسان تطلق قاذف لهب ("سفينة نار" سفينة إحراق، حرفيًا) على أحواض الزهور المنسقة للجغرافيا الجامعية" (Broc 1976) ويتذكر الكاتب الحالى استمتاعه فى مؤتمر فى مونبلييه فى ١٩٧٨ بقصة هؤلاء المناضلين فى فانسان ورؤية آثار الانفجارات، وهى مناسبة بدأت بعد عمل المجموعة بوقت طويل.

وكانت الفكرة الأساسية عند لاكوست ومجموعة هيرودوت – وهى الفكرة التى سندرسها بالتفصيل فيما يلى – تتمثل فى أن الجغرافيا كانت بمثابة أحد أشكال المعرفة الاستراتيجية والسياسية اللازمة للاستراتيجية العسكرية وممارسة القوة السياسية، ولكن هذا الخطاب الاستراتيجى أصبح متخفيًا وراء "ساتر دخان" الجغرافيا الأكاديمية. ولذلك يحتاج الجغرافيون إلى التخلى عن كل قيود "خطابهم المحير"، وأن يصبحوا مناضلين ومحللين ناقدين للاستراتيجية، وأن يعملوا على كشف التركيب الجغرافى للقوة، وأن يساعدوا فى تطوير استراتيجيات مضادة. وعلى عكس

العديد من الدعاوى والمواقف المتطرفة التى ظهرت فى العقد التالى لباريس ١٩٦٨، انتعش مشروع لاكوست - هيرودوت، وتوسع وتحول إلى مدرسة كبرى فى الجغرافيا والجيوبوليتيكا. ولا شك فى أن هذا المشروع طور نفسه، بل إن لاكوست نفسه تحول - كما تقول إحدى المقالات الحديثة - إلى "متمرد تحول إلى مسئول كبير فى الجيوبوليتيكا" (Duroy 1998) وازدهرت دورية هيرودوت حتى أصبحت أكبر مجلة جغرافية فرنسية تداولاً، وبعد ذلك بعشرين سنة، وصل المجلد الحالى إلى العدد ٩٢ (ربيع ١٩٩٩). وكتب لاكوست ومجموعة هيرودوت كتبًا عديدة أكاديمية وجدلية، وأصبحت فانسان قاعدة "مركز البحوث والتحليلات الجيوبوليتيكية" (CRAG)، مع منشورات وبرامج دكتوراه فى الجيوبوليتيكا(١).

واليوم تعتبر مجلة هيرودوت أكبر وأهم مرجع للتحليل الجيوبوليتيكى المعاصر فى العالم، وبالإضافة إلى الكتابات الأخرى للاكوست ومجموعة هيرودوت، فإنها تمثل تراثا جغرافيًا كبيرًا وشديد التماسك. بل إن تماسك وهوية هذا التراث قويان بما يسمح لنا بالإشارة إلى مؤسسة "لاكوست - هيرودوت" بالنسبة لمعظم (وإن لم يكن كل) كتابات المجموعة.

لاكوست - هيرودوت

يحلل هذا المقال المواقف والحجج الأساسية لمدرسة لاكوست - هيرودوت، ويحدد موقعها تمامًا بالنسبة إلى الأفكار والتطورات فى الجغرافيا والجيوبوليتيكا الأنجلوفونية. فحتى الآن كانت هذه العلاقات محدودة جدًا. حيث تميل المجتمعات الجغرافية الجيوبوليتيكية الأنجلوفونية إلى "معرفة" وجود مدرسة هيرودوت، دون أن تكون هناك مشاركة كبيرة فى أفكارها، أو إشارة إلى مصادر هيرودوت فى التحليلات الجيوبوليتيكية الواقعية. وتشتهر هيرودوت فى العديد من الأروقة بسبب مقابلة ميشيل فوكو فى العدد الأول (Foucault 1976a)، وهى المقابلة التى ظهرت فى ترجمة فى كتاب

فوكو واسع الانتشار "القوة/المعرفة (Foucault 1980) "Power/Knowledge وبالرغم من ترجمة مختارات من أوراق هيرودوت ونشرها فى شكل كتاب(Girot and Kofman 1987) وللأسف بدون مقالة تمهيدية تفسيرية) ووجود مسوح مختصرة فى مراجعات التقدم فى الجغرافيا الفرنسية (Buleon 1992; Clout 1985)، إلا أن التحليل النقدى الوحيد الذى يربط منظور هيرودوت بالمنظورات الأنجلوفونية الحالية هو تحليل أوتواتيل (ó Tuathail 1994, 1996)

ويبدو هذا الإهمال ملحوظًا عندما نبدأ فى رصد بعض ملامح مدرسة لاكوست - هيرودوت، وبصفة خاصة أعمال لاكوست المبكرة فى التراث الماركسى، وتركيب تحليل هيرودوت فى ثقافة فانسان الراديكالية بعد الماركسية (حيث عمل فوكو وديلوز مع غيرهما من المفكرين البارزين لفترات)، والمشاركة المباشرة مع فوكو فى الأعداد الأولى من هيرودوت (Foucault 1976a, 1976b; Bernard et al. 1977) وكذلك طور لاكوست - هيرودوت تجديداً نقدياً وراديكالياً للخطاب الجيوبوليتيكى، وذلك قبل عدة سنوات من البناء الأنجلوفونى "للجيوبوليتيكا النقدية" على يد دالبى وأوتواتيل وآجنيور تيلور وغيرهم. وكان هناك أيضًا تركيز على التعقيد والاختلاف والتشابك تجاه السرديات الميتافيزيقية، وذلك قبل أن تظهر مثل هذه الحجج فى الجغرافيا الأنجلوفونية، والاعتراف بالدور الأيديولوجى والاستراتيجى للإشراف الكارتوجرافى والجغرافى الذى ألقى بظلاله على أعمال هارلى وغيره بالأنجلوفونية. وفى السنوات الأولى من دورية "أنتيبود Antipode"، كان هناك بعض الاعتراف بملاءمة هيرودوت للحوارات الأنجلوفونية المعاصرة: حيث ظهرت، هناك نسخة من تحليل لاكوست لقصف النهر الأحمر فى فيتنام فى١٩٧٣ (Lacoste 1973b)، أعيد طبعها فى Lacoste 1977a ، وذلك قبل ثلاث سنوات من ظهور التحليل الأصلى باللغة الفرنسية فى العدد الأول من هيرودوت (Lacoste 1976b)، وظهر ملخص لكتاباته عن التأخر التنموى بعد ذلك بأربع سنوات (Lacoste 1977b) ومع ذلك، وبالرغم من كل هذا، ظلت هيرودوت محيرة لمعظم الجغرافيين الأنجلوفونيين.

ولكن ما الذى يفسر نقص الاهتمام بأعمال لاكوست - هيرودوت؟ يتمثل السبب الأول ببساطة فى قلة الجغرافيين الأنجلوفونيين الذين يقرؤون كثيراً عن الجغرافيا الفرنسية، أو أية مصادر بغير اللغة الانجليزية (للأسف): أى أن إهمال هيرودوت ليس عمداً، ولكنه جزء من إهمال أوسع. وبالرغم من أن النظرية الاجتماعية الفرنسية "مستقرة" فى الجغرافيا الأنجلوفونية، إلا أنها عادة ما تكون مترجمة. ولاشك فى أن هناك غطرسة وامبريالية لغوية فى هذا المجال - وهذا منظور سنراه لاحقًا فى المصطلحات الجيوبوليتيكية المباشرة - ولكن هناك أيضًا قصوراً فى المهارات اللغوية. ويتمثل السبب الثانى فى الإهمال - بالرغم من اعتماده على أدلة مروية - فى أنه عندما يستكشف الجغرافيون الأنجلوفونيون هيرودوت - خاصة الجغرافيين الراديكاليين الناقدين المهتمين بمنظورات الجيوبوليتيكا النقدية - فإنهم يجدون اتجاهها واهتمامها صعبًا على الإدراك. حيث تبدو هيرودوت إقليمية جداً فى تركيزها، وتدور حول دراسات الحالات التجريبية. وهى ذات منهج جغرافى محافظ، وقليلة المحتوى النظرى. وتظهر الفجوة أكبر من خلال تواريخ نشر كتب لاكوست: حيث ترجم كتابه الأزرق "صناعة الحرب هدف الجغرافيا الأول" الذى صدر فى ١٩٧٦ إلى الإيطالية والأسبانية والبرتغالية، وكثيراً ما يشار إليه فى الأوراق النقدية / الراديكالية حتى فى البرازيل والأرجنتين. ولكن لم تظهر له ترجمة بالانجليزية. وكذلك كتبه الأكثر بيعًا عن التأخر التنموى (Lacoste 1959, 1965) والطبعات الأخيرة فى (١٩٨٥ b, 1980) لم تنشر بالانجليزية، بالرغم من ترجمة العديد منها إلى عدد من اللغات الأخرى. وتمثل الطرق التى ظهر بها هذا التباين فى الرؤى، ومدى ما يعكسه من اختلافات حقيقية، موضوعاً سأعالجه فى جزء لاحق.

ومع ذلك، فإنه إذا كانت الجغرافيا الأنجلوفونية أهملت لاكوست - هيرودوت، فلا شك فى أن الإهمال كان متبادلاً. فمنذ البداية كانت دورية هيرودوت تركز على العالم الفرانكوفونى وحوارات الجغرافيا الفرنسية. وكانت الإشارة إلى المصادر الانجليزية قليلة (وأغلبها لمؤلفين من خارج مجموعة التحرير الأساسية)، ولم تكن هناك أية

إشارات إلى نمو الدراسات الجيوبوليتيكية والجيوبوليتيكا النقدية الأنجلوفونية من الثمانينات فصاعداً. وقد كتب عدد قليل من الجغرافيين غير الفرانكوفونيين فى هيرودوت: حيث ظهر بيكر وكلوت فى عدد عن الجغرافيا التاريخية (Baker 1994; Clout 1994)، وكذلك ساهم فيها أجنيو، ولكنه كتب عن جغرافية الانتخابات فى إيطاليا (Agnew 1998a) وليس عن الجيوبوليتيكا النقدية العامة التى اعتاد الكتابة عنها (Agnew and Corbridge; Agnew 1998b) وكذلك فإن تحليل لاكوست – هيرودوت لتطوير وتشكيل الجغرافيا والجيوبوليتيكا كان موضوعاً فى السياق الفرنسى تماماً (مع بعض الإشارات إلى التاريخ المبكر للجغرافيا الألمانية). وكذلك كانت الحوارات المعاصرة التى تشملها – مع ليفى عن الماركسية، وبرونت عن النماذج الهندسية المعروفة باسم الكرومات Chorémes، ورافشتاين عن الجيوبوليتيكا – بمثابة حوارات فرانكوفونية.

وهكذا كان نقص الاهتمام والمشاركة متبادلاً: فهناك مجتمعان يتناولان نفس الاهتمامات، ولكن بدون الإشارة إلى أعمال أو رؤى بعضهما. إلا أن نطاق وانجازات مدرسة لاكوست – هيرودوت كانت أكبر مما يسمح لهذا الإهمال بالاستمرار. ولذلك يتمثل أحد أهداف هذا المقال فى أخذ "المعرفة الموقفية" من لاكوست– هيرودوت وتفسيرها هى وسياقها الأكاديمى الفرنسى للجغرافيين الأنجلوفونيين. وكان الهدف الثانى يتمثل فى إظهار أن العديد من الحجج فى الجغرافيا الفرنسية ومنظور لاكوست – هيرودوت لا يمكن تقييمها إلا فى سياق دولى واسع متعدد اللغات. إذ إن الحجج والتطورات والحوارات – كتلك الموجودة فى تاريخ الجغرافيا والانتعاش الحديث للجيوبوليتيكا – غالباً ما تُعرض على أنها خاصة بالدوائر الفرنسية أو الفرانكفونية عند لاكوست – هيرودوت. ومع ذلك، نجد فى حالات عديدة أنها أكثر عمومية ودولية فى نطاقها، وأن البحث عن تفسيرات فرنسية بعينها قد يكون محدوداً جداً. ولن يستطيع المقال الحالى استكشاف الكثير من جوانب أعمال هذه "المدرسة"، ولذلك سأركز على لفت الانتباه لثراء التراث المعرفى الذى تركه لاكوست – هيرودوت وهو الذى يستحق الاهتمام المفصل والمتواصل من الجغرافيا الأنجلوفونية.

السياق: المؤسسة والعلم

لقد كان يبفز لاكوست فى الثلاثين، وكان جغرافيًا مرموقًا عندما أدخلته إصلاحات ما بعد ١٩٦٨ إلى جامعة باريس ٨ "التجريبية" فى فنسان. وكان لاكوست متخصصًا فى جغرافية التأخر التنموى ، ويتمتع بخبرة خاصة فى شمال أفريقيا. حيث ولد فى فاس بالمغرب، وكذلك كانت زوجته الإثنولوجية كاميليا دوجاردان متخصصة فى شمال أفريقيا. وكانت أعماله قبل التحاقه بفنسان تسير على التراث الماركسى الفرنسى الذى أرساه دريس وتريكارت وجورج، حيث كتب الجزء الخاص بالتأخر التنموى فى كتاب " الجغرافيا النشطة" والذى ألفه جورج وزملاؤه (George, Gugliel-no, Kayster and Lacoste 1964) وبعض النصوص الهامة عن التأخر التنموى (Lacoste 1959,1965; Lacoste, Nouschi and Prenant 1960)

وكذلك كتب لاكوست دراسة عن المؤرخ العربى بن خلدون، وظل هذا الكتاب الوحيد الذى كتبه لاكوست وترجم إلى الانجليزية (Lacoste 1966) ومن الطبيعى أن يقلل كتّاب اليمين واليسار من شأن التأثير الفكرى الماركسى على الجغرافيا الفرنسية فى هذه الفترة، والقول إنها تركت الممارسات الفيدالية المحافظة فى وضعها الأصلى. ومع ذلك، يعتبر هذا إفراطًا فى التبسيط: فقد كان للماركسية تأثير واضح فى عدد من المجالات، ومنها مجال دراسة قضايا التنمية. وكانت نصوص لاكوست عن التأخر التنموى تعكس رؤى ماركسية معاصرة عن التبعية، وقام مع زملائه مثل دريش بتطوير حجج هامة عن دور الهيكل الطبقى داخل الدولة النامية، وأهمية البرجوازية المحلية وملاك الأراضى فى التواطؤ مع الرأسمالية الاستعمارية العالمية. وكذلك ركز وزملاؤه الماركسيون على دور الرأسمالية الاستعمارية فى الآثار البيئية الضارة. وهنا أيضًا نجد أن هذه الأفكار والعلاقات لم يتبعها الجغرافيون الأنجلوفونيون إلا مؤخراً.

وفى فنسان وجد لاكوست جامعة فوضوية حاشدة بطلاب متحمسين، بل وجد أيضًا زملاء مثل فوكو (لفترة على الأقل) وديلوز، وشاتليت، وسيرس، وبولا ننزاس

(Eribon 1991) وكانت الحوارات والمناقشات مع الطلاب تواجه الاتجاهات الأكاديمية التقليدية (مثل الجغرافيا البشرية الفيدالية) وكذلك المعتقدات الماركسية. ففى أوائل السبعينات، عندما بدأت الجغرافيا البشرية الأنجلوفونية تتأثر بأفكار ألتوسير والماركسية البنيوية الفرنسية، كان لاكوست وزملاؤه فى فانسان ينتقلون إلى تحليل ما بعد الماركسية. ولذلك فإنه بالرغم من كونهم راديكاليين إلا أنهم اتجهوا نحو التشكك كثيراً فيما وراء السرديات الميتافيزيقية. وجاء أول بيان مطول لتحليل لاكوست الجديد فى إسهامه فى "الجغرافيا" فى "تاريخ الفلسفة" متعدد المجلدات، الذى حرره فرانسوا شاتيليت (Lacoste 1973a) حيث عرض فيه التحليل الأساس الذى ظهر لاحقًا فى كتابه فى ١٩٧٦، وذلك فى "النقد الذاتى" للطبعة الثالثة من كتاب "جغرافية التأخر التنموى" (Lacoste 1976e)، وفى العدد الأول من هيرودوت. وقد نشرت دار النشر اليسارية التى يديرها فرانسوا ماسبيرو كلاً من كتاب "صناعة الحرب هدف الجغرافيا الأول" ومجلة هيرودوت، وشكل لاكوست "مجموعة تحرير" أساسية من الزملاء والطلاب السابقين فى فانسان، خاصة بياتريس جبلين (تسمى الآن جبلين - ديلفالين) التى كانت عضواً بالمجموعة منذ تأسيسها، وهى الآن مديرة مركز البحوث والتحليلات الجيوبوليتيكية CRAG.

وتتمثل الفكرة الأساسية فى تحليل لاكوست والتراث الذى ظهر من هذه النصوص فى أن غياب "التفكير المعرفى" أعمى الجغرافيا الفرنسية عن الطرق التى سار فيها الموضوع بطريقة ضيقة وضعيفة. إذ يقول إنه كان هناك اتجاهان جغرافيان متميزان: اتجاه عسكرى وسياسى، واتجاه أكاديمى ومدرسى. ويقول لاكوست إن هذا "الانقسام للمعرفة الجغرافية" حدث عند نهاية القرن التاسع عشر مع تأسيس الجغرافيا كعلم جامعى ومدرسى. ويركز لاكوست - هيرودوت على أن إعداد الخرائط والمعارف الجغرافية العملية كان يمثل جوانب هامة فى الاستراتيجيات العسكرية والسياسية والاستعمارية والتجارية منذ وقت طويل يمتد من هيرودوت فى العصور القديمة حتى الوقت الحاضر، بل وفى جيوبوليتيكا القرن العشرين عند هوسهوفر

وماهان وماكيندر. ويقول لاكوست إن "الجنرال بينوشيه جغرافى أيضًا" (a : 10 ١٩٧٦) وذلك فى إشارة إلى دور الديكتاتور الشيلى كأستاذ للجيوبوليتيكا فى الأكاديمية العسكرية الوطنية ومؤلف كتاب بعنوان "الجيوبوليتيكا". وكذلك فإن تحليل لاكوست للقصف الأمريكى لشمال فيتنام يرى أن القنابل كانت موجهة استراتيجيًا لتدمير السدود لإغراق الإقليم المجاور بسكانه. ويظهر لاكوست وزملاؤه بهذه الأمثلة أن "التفسير الجغرافى" ظل يمثل جانبًا فعالاً وجوهريًا فى عمليات السياسة والحرب. وعلى العكس، كان نظام الجغرافيا الجامعية والمدرسية يستبعد تمامًا أى اعتراف بمثل هذه المعرفة السياسية. وبدلاً من ذلك، كانت الجغرافيا الأكاديمية تعتبر محدودة، غير سياسية، "عديمة الفائدة"، بل و"سخيفة" (ساذجة). ويرى لاكوست – هيرودوت أن هذا الدور كان أيديولوجيًا واضحًا، يعمل على تزويد المواطنين بالحقائق الجغرافية الأساسية عن دولتهم وعن العالم، بل ويعمل أيضًا على تمويه وإخفاء الدور "الأكبر" للجغرافيا كمعرفة سياسية إستراتيجية. وفى هذه العملية:

"كان الجغرافيون بمثابة أدوات لهذا الارتباك، ولكنهم ارتبكوا أيضًا أثناء هذه العملية. وما نسميه اليوم بأزمة الجغرافيا يقابل اكتشاف الجغرافيين التدريجى لمدى الارتباك الذى كانوا وسيلته وهدفه فى نفس الوقت" (Lacoste 1973a: 294-5)

وتتمثل "عقبة المفاهيم" الأساسية التى واجهها لاكوست – هيرودوت فى مفهوم الإقليم الفيدالى. وكان اهتمام لاكوست يرجع إلى أن التركيز على نطاق معين من "الإقليم"، والأساليب المستخدمة لدراسة المجتمع وشكل الأرض فى هذا النطاق، يساعد على ضمان تشويش وإزالة الفهم السياسى الاستراتيجى. وكانت جغرافية الأساتذة بمثابة "ساتر دخان". واشتكى لاكوست من أن هذا كان يوازيه تركيز على المكانة العلمية، (على عكس علم التاريخ) وكانت الجغرافيا تفتقر إلى الحجج الجدلية. ومع ذلك، يقول لاكوست – هيرودوت إنه لا الجغرافيا الماركسية، ولا "الجغرافيا الجديدة" الكمية التى بدأت تنتقل إلى فرنسا من المدرسة الأنجلوأمريكية فى أوائل السبعينات،

استطاعت توفير طريق حيوى للتقدم. إذ إن التنظير الماركسى أهمل المكان، وفرض نظريات غير مكانية على تنوع الأماكن الجغرافية. وهنا ابتعد لاكوست عن مواقفه السابقة (وانتقدها). حيث ساعدت خبراته الميدانية - التى امتدت من شمال أفريقيا إلى فيتنام وكوبا - على هذا التغير الذى انعكس بوضوح فى دراسته "الوحدة والتنوع فى العالم الثالث" (Lacoste 1980) وهكذا اعتقد لاكوست أن الجغرافيا الكمية والتطبيقية الجديدة كانت من صنع الدولة والقوى التجارية والبيروقراطية (وليس من التحليل النقدى لهذه القوى) وأنها كبتت التنوع الجغرافى فى تركيزها على النظام المكانى والنظرية الوضعية.

وكان برنامج لاكوست - هيرودوت يعتمد على هذا النقد، ولكنه كان يتضمن أيضاً تطوير شكل أكثر شمولاً للتفسير الجغرافى، بحيث استطاع التغلب على محددات كل من الأسلوبين التقليدى والحديث. وسوف ندرس هذا التفسير الجغرافى - الذى يعتمد على دراسة تقاطع الظواهر الجغرافية على مختلف نطاقات التحليل - بمزيد من التفصيل فيما يلى. ولكن لم تقتصر أهدافه على نقد جغرافيات القوة الموجودة، بل امتدت إلى إعداد استراتيجيات مضادة تقدمها المجموعات المناضلة المكبوتة. وكما يوضح عنوان الفصل الأخير من كتاب لاكوست الأزرق الصغير، يجب أن تكون الجغرافيا "معرفة كيف تفكر فى المكان لكى تعرف كيف تكون منظماً فيه، وتعرف كيف تحارب هناك" (Lacoste 1976a: 163)

ولكن التقسيم الأساس الذى وضعه لاكوست - هيرودوت بين "الجغرافيا الأساسية" والجغرافيا الأكاديمية لم يمر بدون اعتراض. فكانت استجابة بروك على العدد الأول من هيرودوت بأن تداخل القوة السياسية العسكرية والمعرفة الجغرافية قبل ١٩٠٠ كان أصعب كثيراً مما يعتقد لاكوست. حيث ادعى بروك أن الجغرافيين (أو الذين يستخدمون المعرفة الجغرافية) غالبًا ما يحاولون بدون نجاح إقناع الأقوياء فى المجتمع بفائدة الجغرافيا (Broc 1976) فهذا التاريخ المعقد للجغرافيا "كتقنية اجتماعية للقوة" (بتعبير أوتواتيل) يحتاج لمزيد من التنقيب. ولكن مجموعة لاكوست - هيرودوت عادت إليه فى ضوء ظهور وتشكيل الجغرافيا الأكاديمية الفرنسية. وقام لاكوست وجبلين بإعادة دراسة الكتابات الجغرافية للأثرى الاشتراكى إيليس ريكلوس، وركزا

على كيف أن أعماله - خاصة " الجغرافيا العامة" - ضمت كلاً من الجغرافيا والسياسة (Giblin 1981; Lacoste 1981a; Reclus 1982) حيث درس لاكوست الطرق التى جعلت نظرة ريكلوس الواسعة الشاملة للجغرافيا تضيق وتتقيد فى بناء الجغرافيا الأكاديمية. وادعى أيضًا أن فيدال دى لا بلاش "أبو الجغرافيا الفرنسية الحديثة" قدم كتابات سياسية (عن الالزاس واللورين) ولكن الجغرافيا الفرنسية ابتعدت عن السياسة بطريقة منتظمة فى الكتابات اللاحقة (ويستثنى من ذلك أعمال ريكلوس والبعد السياسى عند فيدال). ويقول لاكوست إن المؤرخين الذين يميلون إلى الدفاع عن مجالهم الفكرى، كان لهم أثر فعال فى تجريد الجغرافيا البشرية من السياسة، وإن لوسيان فيفر كان مشهوراً بدعوته إلى "جغرافيا متواضعة"(Lacoste 1979, 1985a) ولكن يجب أن نذكر أن هذه التفسيرات لتاريخ الجغرافيا الفرنسية لم تسلم من الاعتراض أيضًا، ويمكن فى ذلك مراجعة السيرة الذاتية وتحليل سانجين فيما يخص فيدال دى لا بلاش (Sanguin 1993)

وأدت إعادة تفكير لاكوست فى الافتراضات الجغرافية الأساسية إلى صياغة لفظتين جديدتين مفيدتين فى ذلك الوقت هما: "الجغرفة géographisme والنزعة الجغرافية géographicité حيث يشير المصطلح الأول إلى نوع من الخطاب يستخدم على نطاق واسع، حيث "يطلق المرء اسمًا مناسبًا على إقليم، كعامل من عدد معين من الأعمال السياسية أو العمليات الاقتصادية" (Lacoste 1993a: 685): وعلى سبيل المثال، صوتت باريس لصالح ميتران، أو يكافح إقليم اللورين ضد إغلاق المشروعات. ودرست الكتابات التالية الدعاوى الجيوبوليتيكة المتنافسة المغلفة فى مثل هذه المصطلحات (مثل Hérodote 14, 15, 1979 فى الجغرافية الأوروبية). بينما يعتبر الجغرافيون المصطلح الثانى هو الأكثر علمية ويستحق اهتمامهم" (Lacoste 1993a: 676) وذلك مقارنة بمصطلح النزعة التاريخية historicité وبالطبع فإن كل مشروع لاكوست عبارة عن دعوة إلى النزعة الجغرافية الموسعة، خاصة من حيث السياسة. وقد أثبت المصطلحان فائدتهما، ويمكن تبنيهما خارج الجغرافيا الفرانكفونية بصورة مثمرة. وكذلك يظهر كل منهما انطلاق هيرودوت الراديكالى من الفكر الجغرافى التقليدى.

إن اختيار اسم المؤرخ اليونانى القديم كعنوان للمجلة أمر غير متوقع، وبالرغم من أن العنوان الفرعى للمجلة تغير من "استراتيجيات وجغرافيات وأيديولوجيات" إلى "مرجع الجغرافيا والجيوبوليتيكا"، إلا أن العنوان الرئيس ظل ثابتًا. وكانت صفحات العناوين لكل أعداد هيرودوت تحمل صورة هيرودوت التى رسمها وياز(Wiaz انظر شكل ١٨).

وكما يقول لاكوست، فإن:

"رمز المجلة المرسوم من خلال الموهبة الفذة للرسام وياز، هيرودوت حسن الطباع. حيث يمسك أداة مضحكة تنطوى على مفارقة تاريخية: مسدس عليه كاتم صوت، ومجسم العالم، ونظرة هيرودوت المقلقة، لأنه يلاحظ أشياء لا يراها الآخرون" (Lacoste 1985a: 8)

شكل (١٨) رسم وياز لهيرودوت المستخدم فى صفحات عنوان مجلة هيرودوت منذ سبعينيات القرن العشرين.

وعادة ما يعتبر هيرودوت، مؤلف "التواريخ" أبو علم التاريخ، ولكن لاكوست يعتبره مؤسس الجغرافيا أيضًا، ويقول إنه من الأفضل إطلاق اسم "التحقيق" على عمل هيرودوت، لأن معظمه عبارة عن تجميع تلك المعارف السياسية الاستراتيجية التى يريد أن تستخلصها الجغرافيا. وهكذا يمثل هيرودوت تلك النظرة الأكثر شمولاً للتحقيق الجغرافى، وذلك عكس الجغرافيين القدامى التقليديين مثل بطليموس وسترابو. وهكذا يمثل هيرودوت شخصية عامة لدى لاكوست. ففى كتابه الحديث "سيرة الأرض" يبدأ لاكوست بهيرودوت:

"هيرودوت، تحياتى - لك هذا الابتهال الافتتاحى. لقد عمدك المؤرخون "أبو التاريخ"، ويضع كثير من الإثنولوجيين أنفسهم تحت رعايتك. أما أنا فأؤكد أنك الجغرافى الأول المعروف فى تاريخ الإنسانية، وأنك جغرافى من الدرجة الأولى لا تزال أفكارك ومفاهيمك عن العالم تحرك أفكارنا"(Lacoste 1996a: 5)

ويسيطر هيرودوت ورؤاه على الصفحات المائة الأولى من الكتاب. وكما كان لاكوست يعتبر هيرودوت "ضابط استخبارات"، فإنه يرى الآن صلة بين تحقيقات هيرودوت (العامة) والديموقراطية (المحدودة) لليونان القديمة:

"من المحير أنه يسمح لنا بتقديم فرضية أن ظهور التفسير الجغرافى مع هيرودوت لا ينفصل عن الأوضاع السياسية لديموقراطية أثينا"(Lacoste 1996a: 43)

جيوبوليتيكا هيرودوت

إعادة ميلاد الجيوبوليتيكا و"إعادة تصنيف" هيرودوت

لا شك فى أن أعمال وعروض لاكوست - هيرودوت مرت بتغير هام فى أوائل الثمانينات، وهو التركيز على استخدام مصطلح "الجيوبوليتيكا". ولا يوجد أى استخدام موجب للكلمة فى أى من التحليلات السابقة: وبالنسبة إلى راتزل وهوسهوفر وماكيندر، فإنها تعتبر ببساطة أحد أشكال الجغرافيا الاستراتيجية فى الخطاب العسكرى

السياسى الذى يحتاج إلى عرض وتوضيح. ومنذ ١٩٤٥ "لم يكن من المناسب الإشارة إلى الجيوبوليتيكا" (Lacoste 1976a: 9) ومع ذلك، أصبحت هيرودوت "مرجع الجغرافيا والجيوبوليتيكا" فى ١٩٨٣، وكان لاكوست - هيرودوت "يميز" أو يسمى معظم أعماله بالجيوبوليتيكك (Lacoste 1983) وحملت الطبعة الخامسة من كتاب "جغرافية التأخر التنموى " العنوان الفرعى الجديد "جيوبوليتيكا الأزمة"(Lacoste 1982b)، وكذلك الطبعة المنقحة من كتاب "صناعة الحرب هدف الجغرافيا الأول" التى صدرت فى١٩٨٥ (Lacoste 1985a) شملت فصلاً هامًا عن "شبح أو طيف الجيوبوليتيكا". فما الذى حدث وأدى إلى هذا التحول بعد أن كان ينتقد الجيوبوليتيكا فى السبعينات كشكل جزئى وأيديولوجى من التفسير الجغرافى؟

لقد قدم لاكوست نفسه الإجابة على هذا السؤال (Lacoste 1993a: 14-15; 1998: 27-34) فقبل نهاية السبعينات، أدى الصراع الفيتنامى الكمبودى إلى تركيز الاهتمام على السياق الجغرافى للحرب. وبدأ الصحفيون الفرنسيون استخدام كلمة "جيوبوليتيكا" بطريقة لا إزدرائية لوصف العوامل والسياقات الجيوبوليتيكية للحرب. وأصبحت الكلمة تستخدم كثيرًا فى الصحافة، وتعرّض ارتباطها السابق بألمانيا النازية للنسيان إلى حد بعيد. وكان هناك عامل آخر، بالرغم من أن لاكوست لم يناقشه، هو تأسيس المعهد الدولى للجيوبوليتيكا فى باريس فى ١٩٨١، بالإضافة إلى مجلته الفصلية "الجيوبوليتيكا". وكان هذا المعهد - تحت قيادة الجنرال بيير جالوى - مؤسسة محافظة سياسيًا، تضم كوكبة من الشخصيات العسكرية والدبلوماسية الفرنسية والأمريكية والبريطانية "كأعضاء مؤسسين". وأدى إحياء كلمة "جيوبوليتيكا" إلى ظهور ساحة خطابية فى الحياة العامة الفرنسية لم تكن موجودة قبل ١٩٧٨، ولكن هذه الساحة احتلها غير الجغرافيين. وحدثت ظروف مماثلة بالنسبة للكلمة فى اللغة الانجليزية وغيرها من اللغات (Hepple 1986) فإذا تم استبعاد الجغرافيين من هذه الساحة الخطابية الجديدة والحوارات والتحليلات السياسية المطروحة فيها، فإن ذلك سيؤكد ويقوى تجريد الجغرافيا من السياسة، وهذا هو ما كان يشكو منه لاكوست - هيرودوت. ولذلك يحتاج الجغرافيون إلى تأكيد مشاركتهم فى هذه الساحة، وهنا يمكن

أن نعتبر حركة لاكوست وهيرودوت انتهازية بصورة مستحسنة (بالرغم من أن بعض الجغرافيين الفرانكوفونيين لا يوافقون على ذلك كما سنرى).

ومنذ أوائل الثمانينات، بدأ لاكوست وهيرودوت استخدام مصطلح "جيوبوليتيكى" لوصف نمط التحليل الجغرافى السياسى الذى كانوا يتبعونه طوال عقد تقريبًا. وقالوا إن المشكلة فى التحليل الجيوبوليتيكى الألمانى المنسوب إلى راتزل لم تكن فى خلطه بين السياسى والجغرافى، ولكن المشكلة فى الطريقة المشوهة والصبغة الأيديولوجية التى تمت بها عملية الخلط والتشكيل.

الجيوبوليتيكا الراديكالية وجذور الانتعاش الجيوبوليتيكى

هناك الكثير من أوجه الشبه بين الانتعاش العام للجيوبوليتيكا فى فرنسا من خلال صحافة المجلات، والانتعاش الذى شهدته الكتابات الصادرة باللغة الانجليزية، كالتركيز على القضايا العالمية والإقليمية، وبعض الإشارات إلى التراث الجيواستراتيجى من ماهان وماكيندر، ولكن ليس هناك الكثير من الاعتراف أو الاستكشاف للأصول الأكاديمية أو اللغوية للجيوبوليتيكا. ففى الجيوبوليتيكا الأنجلوفونية، لم يبدأ البحث الجاد فى أصول الجيوبوليتيكا إلا مع ظهور البحث التاريخى الألمانى الجديد فى الثمانينات، وبصفة عامة كانت الحوارات السابقة تتقبل الثنائية بين الجيوبوليتيكا العالمية (الأنجلوأمريكية) "الجيدة" والجيوبوليتيكا (الألمانية النازية) "السيئة" المستقرة فى نصوص الحرب العالمية الثانية. ورغم أن هذا تغير الآن، إلا أن هذا التسلسل يساعد على التمييز بين أعمال مجموعة هيرودوت.

ومن المؤكد أن لاكوست وهيرودوت لم يتعقبا أعمالهما حتى الجيوبوليتيكا العالمية الناطقة بالانجليزية عند ماهان وماكيندر. ففى الحقيقة لم يكن عند لاكوست وقت يكفى، ولا أعطى الاهتمام اللازم، للأعمال القديمة الأنجلوأمريكية الجيواستراتيجية. حيث ذكر فى ورقة نشرت بالانجليزية فى ١٩٨٤:

"تعتمد نظريات ماهان وماكيندر – التى يمنحها جيوبوليتيكى اليوم أهمية كبيرة – على ذكريات تاريخية، وليس على تفكير استراتيجى دقيق، وتقوم على استعارات

جغرافية مبالغة عن الأرض والبحر. وبالرغم من أن هذه النظريات تنقصها القيمة العلمية، إلا أن دورها الوجدانى لا خلاف عليه" (Lacoste 1984b: 214, ترجمة نشرها S. Kenne).

وهذا مدح غير مناسب فى الحقيقة! حيث يرى لاكوست أن انتعاش "الجيوبوليتيكا" فى حوارات الصراع الفيتنامى الكمبودى نتج مباشرة عن انهيار التقسيمات الثنائية الكبرى فى السياسة الدولية (القوة الأرضية مقابل القوة البحرية، وقلب الأرض مقابل الهلال البحرى، وروسيا مقابل أمريكا)، وأظهر الحاجة إلى تحليل دولى أكثر إقليمية وحساسية جغرافية.

وبدلاً من ذلك، فإن لاكوست وزملاء هيرودوت، خاصة بياتريس جبلين والأخصائى الألمانى ميشيل كورينمان، أرجعوا أصول الجيوبوليتيكا إلى أعمال راتزل (Korinman 1983) وأسلافه الألمان (Korinman 1991) وكل تاريخ الجيوبوليتيكا الألمانية(Korinman 1990) وفى كل هذه الأعمال، نجد أن كيلين الذى صاغ مصطلح "الجيوبوليتيكا" (بالسويدية) أصلاً، لا يذكر إلا قليلاً، ولكن أعمال راتزل الجغرافية وضعت فى مرحلة مركزية، ونظراً لوضعها الصراعات بين الدول (خاصة الدول القومية) فى سياقاتها الجغرافية، فإنها تعتبر أصل التحليل الجيوبوليتيكى. وكذلك وضع لاكوست – هيرودوت سوابق بولوتيكية أخرى فى الأعمال الفرنسية التى قدمها ريكلوس وفيدال دى لا بلاش (Lacoste 1979) وأعمالاً أخرى فى الفترة من ١٩١٨ إلى ١٩٣٠ قبل أن يفرض المؤرخون "الجغرافيا المتواضعة" (Lacoste 1985a: 91-114) ويقول كورينمان إن الرفض الكامل للجيوبوليتيكا الألمانية أدى إلى صمت خطير، خاصة عدم التفكير فى القضايا الهامة فى الجغرافيا والقوة السياسية، أى تلك القضايا التى ركزت عليها دورية هيرودوت تحديداً. ويقول إن الأجزاء الأيديولوجية والدعائية فى أعمال راتزل يجب ألا يسمح لها بتشويه وإزالة:

"تلك الأجزاء التى تشكل وسائل فعالة لتحليل أنواع معينه من المشاكل، خاصة تلك التى لها أهمية إستراتيجية. أى أن المواجهة الراديكالية للأنواع الأولى لا تتضمن رفض أو عدم إدراك الأنواع الأخرى" (Korinnan 1923:136)

ويصف لاكوست أوروبا فى الفترة من ١٩١٨ إلى ١٩٣٣ بأنها فترة حوار جيوبوليتيكى نشط، لم يعرقله سوى ظهور النازية فى ألمانيا، والاستبعاد التدريجى للفكر الجيوبوليتيكى من الجغرافيا الفرنسية. بل إنه يدعى أن فرنسا كان يمكن أن تكرر الثورة الألمانية فى الكتابة الجيوبوليتيكية بعد ١٩١٨ لو سارت الحرب بطريقة مختلفة:

"لو كانت فرنسا هزمت فى ١٩١٨ (لو لم يتدخل الأمريكيون) لكان من المحتمل أن تظهر الحركة الجيوبوليتيكية الأولى فى باريس، لأن خصائص المجتمع الفرنسى لم تكن مختلفة كثيراً"(Lacoste 1993 a:19)

وهذه الآراء لم تقابل باستحسان من كل الجغرافيين الفرنسيين، فلا يزال بعضهم يرفض إحياء مصطلح "الجيوبوليتيكا". وكان كلود رافشتاين أكثرهم حدة، حيث يعتبر تأريخه للجيوبوليتيكا أن هذا المصطلح ورؤاه يرتبط ارتباطًا مطلقًا بماضيه الفاشى والقومى والتوسعى (Raffestin , Lopreno and Pastear 1995) وسوف ندرس هذا النقد بالتفصيل فيما يلى.

التفسير الجغرافى

يضع لاكوست وهيرودوت "التفسير الجغرافى" فى صميم أعمالهم. ولا يقتصر هذا التحليل الجغرافى على التحليل الجيوبوليتيكى، إذ إن تطبيق هذا التفسير على المواقف الجيوبوليتيكية يمثل إسهامهم فى الجيوبوليتيكا. ولم تتغير الملامح الرئيسة لهذا التفسير الجغرافى منذ مقال لاكوست فى ١٩٧٣ . ولابد من مراجعة ذلك. فأولا، من الطريف أن نذكر أن لاكوست لا يقول إن الجغرافيا لديها "موضوعًا" تدرسه. ولكن إسهام الجغرافى يكمن فى أسلوب ونمط التفسير الذى يستخدمه. ولا يقدم موضوعًا جديداً بديلاً عن إقليم فيدال، ولا يطرح دعاوى تركيبية كبيرة للجغرافيا، باستثناء أنها نمط خاص من التفسير يعتمد على عناصر محددة من علوم أخرى. ويعرض هذا الاتجاه احتمال التفسير الجغرافى كشكل من "الممارسة الفكرية العميقة"، وهذا ما سأعود إليه لاحقًا.

ويكمن جوهر التفسير الجغرافى فى تحليل "تفاعل المجموعات المكانية والمستويات المختلفة من التحليل المكانى". ولكن التفسير الجغرافى فى هيرودوت لا يفضل أى معيار (وكان ذلك أحد أخطاء الجغرافيا الإقليمية الفرنسية التقليدية)، ولا يدعى دراسة أية ظاهرة معينة عبر المكان (كما تقوم علوم عديدة بدراسة التوزيعات المكانية لظواهرها). ولكنها تدرس تعقيد السياقات الجغرافية بالانتقال بين مستويات التحليل. وأحياناً يستخدم لاكوست شكلاً بيانيًا لشرح هذا (شكل ١٩) بحيث ويوضح الشكل توزيعات نظرية متقاطعة على أربعة مقاييس مكانية (١٠ كم، ١٠٠ كم، ١٠٠٠ كم و١٠٠٠٠ كم).

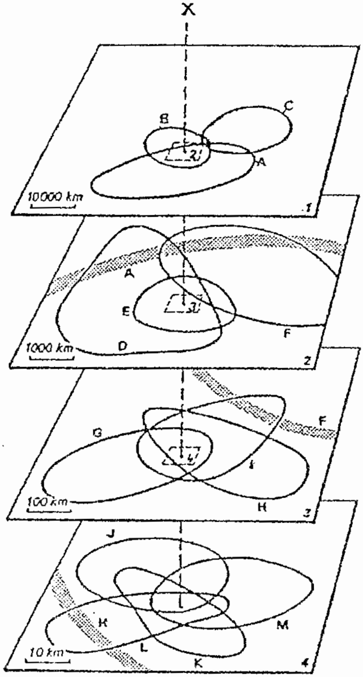

شكل (١٩) ويعرض طريقة لاكوست فى ربط "التفسير الجغرافى" بين مقاييس ومستويات مختلفة من التحليل المكانى.

وفى ذلك يقول لاكوست :

"يوضح الشكل طريقة التفكير فى المكان بناءً على توليفة من أسلوبين للتحليل المكانى – فمن ناحية، هناك التمييز المنهجى بين مختلف مستويات التحليل حسب المراتب المختلفة للحجم، وحسب الأبعاد التى تأخذها المجموعات المكانية المتعددة فى الواقع. ومن ناحية أخرى، نجد أنه عند كل من هذه المستويات هناك الدراسة المنهجية للتقاطعات بين الخطوط المتساوية للمجموعات المكانية المختلفة ذات نفس الحجم أو الرتبة.

ويمضي لاكوست قائلا:

... إن الخصائص الجغرافية لمكان معين، أو تفاعل الظواهر الذى يجب مراعاته للعمل فى هذا المكان – والذى يتمثل فى هذا الرسم فى النقطة X التى يمكن أن نجدها فى مركز كل شكل – لا تتحدد إلا بالرجوع إلى تقاطعات المجموعات المختلفة عند مستويات التحليل المختلفة. ومن الناحية الإستراتيجية، فإن كل مجموعة تقابل عاملاً مواتياً أو غير موات للعمل المطلوب" (Lacoste 1985a: 72)

وكقاعدة عامة، فإن معظم هذا يثير الإعجاب، بالرغم من أن نبرته الهندسية يجب أن تحذرنا من الافتراضات الداخلية. أما من ناحية كونها منهجية أكثر تحديداً، فإنها تثير قضايا الموضوعية والمنظور والهيكل الاجتماعى، وهذه كلها قضايا ناقشها لاكوست (وليس بالضرورة تحت هذه العناوين). ويؤكد لاكوست – هيرودوت على أن هذا التفسير الجغرافى يقدم "اتجاهًا علميًا" فى الجيوبوليتيكا، وهو اتجاه يسمح ويسهل التحليل الموضوعى للمواقف الجيوبوليتيكية:

"يسمح التفسير الجغرافى ببناء صورة أكثر اكتمالاً وموضوعية لكل موقف جيوبوليتيكي، مقارنة بتلك التى تقدمها الأطراف الرئيسية المتورطة فى التنافس الإقليمى المطروح (بأسلوب متناقض يجب أخذه فى الحسبان). وفى الحقيقة فإن

الجيوبوليتيكا كاتجاه علمى لا تقتصر على تحليل الدعاوى المتناقضة، بل يجب أن تكافح من أجل تقديم دعوى أكثر شمولاً وموضوعية للمواقف المختلفة، لكى تقدم حلولاً للمواجهات القائمة، بل وتحاول أيضًا أن تتنبأ بمسارات تطور الأمور. وهذا مشروع دقيق وخطير جداً يتطلب اللجوء إلى اتجاه المؤرخين (Lacoste 1993a:32)

وكما يقول أوتواتيل، فإن هذا الاتجاه عند لاكوست – هيرودوت يعطى أولوية للمنظور الديكارتى "النظرة من اللامكان"، وهى النظرة الموضوعية المستقلة، وقد لفت النظر إلى استخدام لاكوست الهام للوحة آلتدورفر "معركة الاسكندر" على غلاف كتاب "مسائل فى الجيوبوليتيكا" فى ١٩٨٨ (ó Tuathail 1994,1996; Lacoste 1988) وكذلك يستخدم لاكوست هذه الصورة كأول توضيح يملأ صفحة فى "سيرة الأرض" قائلاً:

"يتتبع هذا المشهد، الذى رسم فى عصر غزو العالم الجديد، الصلة بين الاستكشافات العسكرية الكاملة للاسكندر الأكبر، وتلك التى قام بها الغزاة الأسبان. ولا شك أنها تتعلق بالدعوى الأولى لامتلاك هذه الآفاق الشاسعة: عراك صاخب، قوات تتحرك حول مدينة محاصرة، جزيرة ذات منحدرات عميقة، وفى الأفق قارة غامضة، وتحت السحب التى تقطعها الشمس الساطعة، مساحات شاسعة تشد البصر، بينما يلوح قوس الأرض فى الأفق" (Lacoste 1996a : s)

إن المنظور الاستراتيجى الواسع يستفيد من تعقد المشهد. ويظل لاكوست – هيرودوت بعد المرور على ما بعد الماركسية، غير متأثرين بالشكوك التى تدور حول الموضوعية التى شهدتها كتابات ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة فى كل من النظرية الاجتماعية الفرنسية والعلوم الأنجلوفونية (ومنها الجغرافيا البشرية) ويكمن هذا الفرق وراء الكثير من صعوبة المقارنة بين الاتجاهات الأنجلوفونية والفرانكفونية فى الجيوبوليتيكا.

ومع ذلك يعتبر اتجاه لاكوست – هيرودوت أكثر بساطة مما تتضمنه اللغة الهندسية للمجموعات المتقاطعة.فأولاً، هناك اعتراف بأن تحديد المقاييس المناسبة للتحليل ثم المجموعات المكانية المرتبطة بها هى عبارة عن قضايا ومفاهيم. وثانياً، نجد

أن العديد من هذه المجموعات تمثل أشياء مجردة، خاصة تلك الخاصة بالمقاييس المكانية الكبيرة: " من الضرورى أن نذكر أنه فى معظم الحالات (باستثناء الصحارى) كلما كان للمجموعات أبعاد أكبر، كلما زاد تأثرها بدرجة أكبر من التجريد، وهذا هو الحال خاصة بالنسبة للمجموعة العالمية التى تسمى "العالم الثالث" التى تشمل أكثر من أربعة بلايين نسمة. فهذه مسألة تجريد، ولكن من المفيد أن نناقش حدودها المحددة نسبياً على الأرض.

وليس من السهل إن نفصل علمياً أى عرض يشكله التجريد إلى حد بعيد، وتعتبر المجموعة ذات الأبعاد الأصغر أكثر دقة، نتيجة لهذه الحقيقة Lacoste 1993a: 31-2 ومع ذلك، نجد أن العديد من المجموعات الكائنة على مقاييس أصغر- مثل الهويات العرقية والمجموعات الثقافية- هى أيضًا بمثابة تجريدات وهياكل اجتماعية. بل إنه حتى مع الظواهر الأكثر دقة، نجد أن إعداد الخرائط وتحديد المدى المكانى يتضمن تجريداً فى أشكال العرض والقياس، وحتى فى "تعريف خطوط التساوى والانقطاع". ولا يجب أن نعتبر الصورة الهندسية كمنتج نهائى قطعى: فيجب أن تكون الخريطة قابلة للرسم على الخرائط، أى أن يكون المرء قادراً على التعرف على الاختلافات الهامة على سطح مجسم الأرض (Lacoste 1985a:108) وهكذا يستطيع المرء تحديد ودراسة التباين المكانى بدون القدرة على رسمه على خريطة بأية درجة من الدقة، ومع ذلك يمكن أن يكون جزءاً لا يتجزأ من التفسير الجغرافى.

وبهذه الطريقة يكون تفسير لاكوست – هيرودوت أكثر مرونة وشمولاً مما يبدو عليه مبدئياً. ومع ذلك، هناك مرونة أو تكيف أقل تجاه الفكرة المجردة "للنظرية" فى مثل هذا التفسير الجغرافى. فالأسلوب الموضح يقدم طريقة لفهم التعقيد الحقيقى للمواقف الجغرافية الدقيقة. ولكن لاكوست – هيرودوت لا يقدم مناقشة (أو تشجيعاً) لدور أكبر للنظرية أو الأسلوب الرسمى. وهنا يتضح الانحياز للتاريخ كممارسة أكاديمية، مقابل الكراهية لنظرية العلوم الاجتماعية.

وفى ١٩٧٦، قام لاكوست بالمقارنة بين مقاييس التحليل الجغرافى والتاريخ، مشيراً إلى كتاب ألتوسير "قراءة رأس المال" : "يوجد لكل نمط إنتاج وقت وتاريخ مناسبين... وتاريخ مناسب للهيكل العلوى السياسى... وهكذا يمكن التمييز بين خصائص هذه الأزمنة والتواريخ، لأن ذلك يعتمد على العلاقات المتميزة الموجودة بين المستويات المختلفة (Althausser 1965: vol.2, 47) ويقدم لاكوست (Lacoste 1976a: 69) اقتباساً أطول، ويبدى لاحقًا إعجابه بكتابات فيرناند برودل عن اختلاف فترات التاريخ (La-coste 1986a) وهكذا يرى لاكوست وجود ارتباط بين "الفترات الطويلة" واستقرار النطاقات الجيوبوليتيكية الأكبر (وهى الارتباطات التى يمكن مقارنتها بما فى التفسيرات الجيوبوليتيكية باللغة الانجليزية لدى بيتر تيلور (Taylor 1990)

وقد يكون من المفيد هنا أن ننظر إلى "التفسير الجغرافى" "كممارسة فكرية" فعندما يكتب لاكوست عن تطور المهارات الجيوبوليتيكية نجده يقول:

"من ناحية، يجب أن يدرب المرء الباحثين أصحاب المهارات الكبيرة من خلال التحليل المنهجى الدقيق لعدد كبير من الحالات، وفى الميدان، من خلال هيكل من البحث فيما بين العلوم، وهذه واحدة من مهام منتجى هذا القاموس، وذلك فى إطار "برنامج الدكتوراه فى الجيوبوليتيكا" (بجامعة باريس ٣) (Lacoste 1993a: 35)

ولكن لا يمكن تحديد مهارات المحلل الجيوبوليتيكى بالنظريات أو المنهجيات الرسمية، إذ إنها ستكون مثل "الممارسات الفكرية" عند الفيلسوف الأمريكى يوى، أو "وصفات" الفيلسوفة ليزا هيلدكى (Heldke 1992) فهى ممارسات ذات توجهات فكرية انعكاسية، ولكنها عمليات يوجهها أيضًا الخبرة والأحكام والممارسة العملية. فالخبرة والأحكام تتراكم خلال دراسة "الحالات"، ولا يمكن اختصار هذه الخبرة فى قواعد أو نماذج نظرية. فالطب "ممارسة فكرية" من هذا النوع. ويمكن أن تكون هذه المهارات حقيقية جداً، ولا شك أن تعبير لاكوست "التفسير الجغرافى" يستحق مزيدا من البحث فى هذا الضوء.

ولاشك أن الميل إلى تحاشى النظرية يرتبط بطريقة ما بعلم التاريخ: أى الرغبة فى جعل الكتابة (الجغرافية أو التاريخية) متاحة لجمهور عريض من المواطنين والسياسيين. ولكن صعود الدقيق والمعقد والخاص والمحدد (فى هذين العلمين) يترتب عليه استبعاد المفاهيم والتحليلات المجردة والعامة والمنظمة والنظرية للعلوم الاجتماعية والإنسانية. وأنا أعتقد هنا أن دورية هيرودوت تميل إلى تحديد إمكاناتها. فهنا تكون رؤى علم السياسة (مثل "النماذج" المشتقة من السياسة المقارنة للأدوار المختلفة للجيش فى الأنظمة السلطوية) مفيدة للتحليل الجيوبوليتيكى (كما فى أمريكا اللاتينية). فهذه النظريات والنماذج مبنية من خليط من التعميمات التجريبية المقارنة (أساس معظم عمل راتزل فى الجغرافيا السياسية فى ١٨٩٧) والتفسير الاستنباطى والاستطرادى. وتعتبر العلاقة الوثيقة لمعظم التحليل الجيوبوليتيكى الأنجلوفونى بهذا العمل أحد أوجه قوته، فى حين أن غياب هذه الرؤية يمثل احد أوجه ضعف هيرودوت. وسوف نستكشف هذه المسائل المتعلقة بدور (وطبيعة) النظرية فى التحليل الجيوبوليتيكى فيما يلى.

- الأفكار والنظرية والسياسة
- الأفكار الجيوبوليتيكية
- الأفكار والمعالجة

لقد حان الوقت للنظر إلى الممارسات الجيوبوليتيكية الفعلية الواردة فى هيرودوت. فعندما غيرت المجلة عنوانها الفرعى، ذكرت جبلين أن النية كانت تهدف إلى تخصيص حوالى عددين فى السنة للتفكير فى الجغرافيا وعددين للجيوبوليتيكا (Giblin 1985) ومع ذلك، طغت الجيوبوليتيكا على الجغرافيا. ففى السنوات الأخيرة، تم تخصيص أعداد قليلة للحوارات الجغرافية "الداخلية"، كالعدد المخصص لقضايا الكرومات chorémes وتعتمد معظم أعداد الأفكار على الأقاليم، ولا يوجد تحليل عام (أو نظرى) صريح. وقد رصد كلافال (١٩٩٩) Claval تطور الموضوعات التى تمت تغطيتها، وفيما يلى أحدث تسلسل لها:

- المسألة الصربية (عدد ٦٧، عام ١٩٩٢)

- المسألة الألمانية (٦٨، ١٩٩٣)

-الديمقراطية والجيوبوليتيكا فى فرنسا (٧٠/٦٩، ١٩٩٣)

-الهند والمسألة القومية (٧١، ١٩٩٣)

-الأمة، والأمم، والأممية (٧٣/٧٢، ١٩٩٤)

- الجغرافيا التاريخية (٧٥/٧٤، ١٩٩٤)

- الجغرافيون والعلم والوهم (٧٦، ١٩٩٥)

- رفض أم قبول الإسلاميين؟ (٧٧، ١٩٩٥)

- اليابان والجيوبوليتيكا (٧٩/٧٨، ١٩٩٥

- الأخطار الجيوبوليتيكية فى فرنسا (٨٠، ١٩٩٦)

- جيوبوليتيكا القوقاز (٨١، ١٩٩٦)

- أفريقيا الجنوبية الجديدة (٨٣/٨٢، ١٩٩٦)

- محيط سمرقند (٨٤، ١٩٩٧)

- الأمم المتحدة: العنصرية مقابل الأمة (٨٥، ١٩٩٧)

- جيوبوليتيكا أفريقيا الوسطى (٨٧/٨٦، ١٩٩٧)

- اندونيسيا، شرق الإسلام (٨٨، ١٩٩٨)

- ايطاليا والمسألة القومية (٨٩، ١٩٩٨)

- البحر الأبيض المتوسط: أمم متصارعة (٩٠، ١٩٩٨)

- المسألة الاسبانية (٩١، ١٩٩٨)

- الصحة العامة وسماتها الجيوبوليتيكية (٩٢، ١٩٩٩)

وقد كان تنظيم هيئة تحرير هيرودوت يضمن الدقة والالتزام بالهيكل المتراكم من العمل الذى لا يمكن أن تنافسه مجلة نمطية: فكانت المجموعة تبنى كل عدد حول موضوع، وتدعو المساهمين وتضمن درجة معينة من التوافق بين الاتجاه والنمط. وكان لاكوست يكتب معظم المقالات الافتتاحية بنفسه. ولاشك في أنه مع تغير مجموعة المؤلفين لابد أن يحدث تنوع فى كل من اتجاه التحليل ونمط الكتابة، ولكن ذلك يقل كثيراً عما هو سائد فى مجلة نمطية يقودها المساهمون مثل "تاريخ الجغرافيا" أو "المجال الجغرافى". وخلال العشرين سنة الأخيرة، أدى تراكم أعداد هيرودوت إلى تكوين "جغرافيا عامة" حقيقية (و"جغرافيا عامة" تتبع خطوات ريكلوس أكثر من الصيغة التى قدمها جب ريكلوس (GIP - RECLUS) وهذا انجاز كبير حققه لاكوست ومجموعة هيرودوت. ومع ذلك، نجد أن الرقابة المركزية على المجلة تجعلها أقل تقبلاً للاتجاهات الجديدة غير المتوقعة المتناقضة والعرضية، مقارنة بالمجلة النمطية.

وعند القيام بأى استكشاف لمحتويات هيرودوت لابد أن يحدث ارتباك حقيقى بسبب الوفرة، ولذلك سيقتصر هذا المقال على مراجعة مختصرة لمثال أو اثنين من هذا الكنز. ونظراً للإغراء الموجود فى جيوبوليتيكا الإسلام و"محيط سمرقند" - وقيام هيرودوت بتقديم دراسة لكل مجموعة القضايا الجيوبوليتيكية التى تثيرها الأصولية الإسلامية، والتى لا تنافسها فيها أية كتابة انجلوفونية - فسأقتصر على مناقشة موضوعين فقط هنا: رؤية لاكوست - هيرودوت للعالم وقضايا الجغرافيا الاقتصادية، إضافة الى تحليل لاكوست - هيرودوت للأمة ودورها كمفهوم جيوبوليتيكى.

العالمى والوطنى

على مدى أكثر من تسعين عدداً من هيرودوت، وطوال أكثر من عشرين سنة، لم يكن هناك اهتمام مباشر كبير بالتحليلات الجيواستراتيجية والجغرافية الاقتصادية على

النطاق العالمى. ويتناقض هذا كثيراً مع الأعمال الأنجلوفونية فى الجيوبوليتيكا النقدية، حيث كانت الاستراتيجية العالمية والصراع بين أمريكا وروسيا ومحاولات ما بعد ١٩٩٠ لإقامة "نظام عالمى جديد"، تمثل موضوعات جوهرية وتشكل معظم محتويات دورية "مختارات جيوبوليتيكية" (ó tuathail, Dalby and Routledge 1998) وفى الحقيقة فإنه بعد مرور عشرين سنة، فى ١٩٩٧، صدر عدد من هيرودوت يركز مباشرة على الولايات المتحدة، وذلك على موضوع "العنصرية مقابل الأمة"، وليس على قضايا الاستراتيجية الجيوبوليتيكية العالمية للولايات المتحدة. فلماذا هذا الاختيار - الذى يبدو مقصوداً - لرفض التحليل العالمى؟

وينبع هذا الاختيار أساسًا من تفسير لاكوست - هيرودوت لطبيعة وتاريخ الجيوبوليتيكا. ولاكوست ليس غريبًا على التحليل العالمى. إذ إن أعماله السابقة فى التأخر التنموى، المليئة بإشارات نقدية إلى قصص ونظريات التبعية عند أمين وفرنك وغيرهما، وهجومه على " أعداء العالم الثالث Contre les anti-Tiers-Mondiestes، وعضويته فى مجلس هيئة تحرير " المرجع الفرنسى للجغرافيا الاقتصادية" (الذى بدأ نشره فى ١٩٩٧)، كل هذا يوضح معرفته بهذه القضايا. وبالرغم من كل هذا، فقد رفضها كأسس للتحليل الجيوبوليتيكى أو كقضايا جيوبوليتيكية جارية مهمة. وتتضح كراهية لاكوست - هيرودوت لمنظورات العولمة وفكرة "جيوبوليتيكا الجغرافيا الاقتصادية" الشائعة فى الكتابات الأمريكية فى نقده لعمل جاك ليفى، الذى يؤكد على وجهات النظر الجغرافية الاقتصادية. حيث أكد ليفى أن "العالم سيتجرد من الجيوبوليتيكا" بعد نهاية الحرب الباردة، وأن "التقدم فى البناء السياسى وتجريد العالم من الجيوبوليتيكا يبدو لاجدال حوله" (Durand, Lévy and Retaille 1992: 189) ولكن لاكوست يضع فى مقابل هذا نمو الحركات الجيوبوليتيكة (الانفصالية والقومية) فى أعقاب الحرب الباردة، فى دول مثل أسبانيا وإيطاليا وحتى فرنسا، فضلاً عن العالم الإسلامى وغير الأوروبى (Lacoste 1993c) وهكذا رفض لاكوست وهيرودوت الكثير من أفكار العولمة وانهيار الدولة القومية، التى كانت قوية فى الأعمال الجيوبوليتيكية

الأنجلوفونية الجارية. وهم لا ينكرون انتشار الآثار الاقتصادية العالمية، ولكنهم يقولون إن هذه الآثار غالبًا ما تولد (أو تنشط) استجابات سياسية وثقافية محلية وقومية تحد من أى منظور عولمة فى الجيوبوليتيكا[٢].

ويركز منظور لاكوست – هيرودوت، المبنى على تفسير التراث الجيوبوليتيكى من راتزل وريكلوس إلى فيدال دى لا بلاش، على سياقات جغرافية (عند مستويات مختلفة) أدنى من المستوى العالمى، ويعتبرون مستوى الدولة بمثابة المقياس الأساسى. ومن المؤكد أن هذا لا يعنى القول إن هذا هو المستوى الوحيد للتحليل – فهذا يتعارض مع أسلوب "التفسير الجغرافى" تمامًا – ولكنه يعكس مركزية الدولة كعامل سياسى والمركزية الجيوبوليتيكية للصراعات الخارجية بين الدول والصراعات الداخلية على السيطرة على الدول. وهكذا فإن جبلين – ديلفاليه تقول فى مقالها الافتتاحى للعدد الخاص بالولايات المتحدة إن جيوبوليتيكا السياسة الخارجية للولايات المتحدة نوقشت فى أعداد عديدة من هيرودوت من حيث تأثيرها الإقليمى على دول ومناطق معينة من العالم (Giblin - Delvallet 1997)

وعلى مستوى الدولة القومية الذى تفضله دورية هيرودوت، كانت الاهتمامات الرئيسة تتمثل فى الأهمية الجيوبوليتيكية للثقافة والقومية، وخاصة الأدوار الحيوية التى تلعبها اللغة والدين. وكانت هيرودوت تهتم بهذه العوامل منذ السبعينات، ولكن التغيرات السياسية منذ ١٩٨٩ ساعدت على زيادة قوة هذا المنظور.

وكانت هيرودوت تولى اهتمامًا كبيرًا بالأشكال المختلفة للقومية: الانفصالية والديمقراطية والتوسعية. ووصل تحليل هيرودوت للقومية إلى المستوى العالمى، ولكن أكثر الدراسات تفصيلاً قد تكون تلك التى تتناول القوميات والتوترات فى ألمانيا الجديدة ويوغسلافيا السابقة، وداخل فرنسا ذاتها(Lacoste 1992, 1993b, 1994) وأصبحت التوترات الناتجة عن جيوب دينية أو لغوية أو عرقية هامة جدًا فى السنوات الأخيرة. وفى ضوء الاهتمام الذى أولته هيرودوت لهذه التوترات الجيوبوليتيكية فى

أجزاء عديدة من العالم (منها فرنسا ذاتها) يجب ألا نندهش من أن العدد رقم ٨٥ من الدورية والخاص بالولايات المتحدة (٨٥، ١٩٩٧) خصص لدراسة جوانب التوترات العرقية، الأقليات الإثنية، الهجرة، وأزمة الهوية الأمريكية.

ويرى لاكوست – هيرودوت أن الدولة (القومية) محصورة بين قوى خارجية عالمية وقوى داخلية إقليمية محلية تؤدى إلى الانقسام. وعلى هذا المستوى من العمومية، فإن معظم الكتاب الجيوبوليتيكيين الأنجلوفونيين لن يختلفوا عن هذا التحليل. ومع ذلك، لا يقتصر الأمر على أن لاكوست – هيرودوت لا يتوقع الانهيار السريع للدولة (القومية)، بل إنهم يقاومونها أيضًا. وهذه منطقة سياسية وفكرية خطيرة نوعًا ما: فعلى عكس معظم الكتابات اليسارية فى كل من فرنسا وأمريكا الانجليزية، لا يعتبر لاكوست – هيرودوت الدولة (القومية) رجعية سياسيًا بالضرورة، كديناصور نهايته مرغوبة. ويقول لاكوست: "إن الأمة حسب تفكيرى، هى المفهوم الجيوبوليتيكى الأساسى، ليس على المستوى النظرى فحسب، بل أيضًا بسبب الأصول السياسية الكبيرة التى ترتبط بها"(Lacoste 1996b: 207)

ويؤدى هذا الخلاف حول الدولة إلى فجوة بين لاكوست ورافشتاين. فعند لاكوست يمكن أن يكون للدولة، وتراث التحليل الجيوبوليتيكى المبنى عليها، شرعية وقيمة سياسية، فى حين أنه عند رافشتاين يرتبط هذا التحليل الجيوبوليتيكى القائم على الدولة بماضيها الفاشى والامبريالى الرأسمالى، والبرنامج الدولى البروليتارى هو الوحيد الذى يمكن أن يكون شرعيا. أنظر فى ذلك: (Raffestin, Lopreno and Pasteur 1995, and Lacoste 1996b)

وبينما يعكس تطور مقالات هيرودوت المواقف المعقدة والمتشابكة عن الأمة والقومية فى الجيوبوليتيكا، فإن كتاب لاكوست الحديث "تحيا الأمة" يعبر عن الدور السياسى النشط الذى يمكن أن يلعبه هذا التحليل. ويمثل هذا الكتاب إسهامًا فى الحوار الفرنسى الجارى حول المواطنة والهجرة والعرق، وغالبًا ما تكون "الأمة" فى هذا الحوار

بمثابة رمز المنافسة التى ينشدها اليمين المتطرف. ويعتبر عنوان لاكوست ذاته مثيراً فى الحوارات الوطنية الفرنسية، بل يمكن أن يكون أكثر من ذلك فى المملكة المتحدة والولايات المتحدة، ويصعب تخيل وجود جغرافى أنجلو فونى يكتب مثل هذا الكتاب. حيث أخذ الكتاب عنوانه من صيحة القوات الفرنسية فى فالمى فى ١٧٨٩، ويقول لاكوست إن فرنسا فى حاجة إلى إعادة تشكيل نفسها حول نظرة أكثر وضوحًا للأمة، الأمة التى يوحدها التسامح اللغوى والمدنى، وقد أخذ هذا القول أيضًا إلى صفحات المجلة المنافسة "الجيوبوليتيكا" (Lacoste1997) فى عددها المخصص لمشكلة "الجمهورية". وبالتفكير فى التحليلات السابقة فى هيرودوت، يرى لاكوست فكرة الأمة الفرنسية مهددة بالقومية المصابة بالخوف من الأجانب عند لوبان، وبانفصال الأقليات من بعض المجموعات الإقليمية، وبالتعددية الثقافية (التى يعتنقها كل من الجماعات الإسلامية والعديد من الراديكاليين) التى لن تدمج العرب فى اللغة والمجتمع الفرنسيين. ويرى لاكوست خطورة خاصة فى المجموعات التى لا تتحدث الفرنسية. ويحدد لاكوست تهديداً آخر: وهو احتمال ضياع الهوية الفرنسية فى مجتمع أوروبى تسيطر عليه المصالح العالمية الأنجلوأمريكية. وكما يقول :" إن فرض فكرة الأمة فى فرنسا وألمانيا وفى دول أوروبا اللاتينية هو فقط الذى يستطيع صد هذا الاتجاه الأنجلوساكسونى المسيطر".(.(Lacoste 1998, 152-3ويرى لاكوست أن الأمة فقط هى القادرة على مقاومة ضغوط العولمة هذه، وأن أى تحرك نحو كيانات إقليمية ومحلية أصغر سوف ينهار أمام هذه الضغوط فى غياب الأمة. وتعتبر دراسة تحيا الأمة دراسة مثيرة ومتحدية، تستخدم التحليلات العقلية المستقلة المطورة فى هيرودوت للهجوم والحوار فى الحياة السياسية الفرنسية، وهو الهجوم الذى جذب اهتماماً كبيراً فى الإعلام الفرنسى (Cas-sen 1998; Olive 1998)

مقارنات مع الجيوبوليتيكا الأنجلوفونية

ما علاقة اهتمامات هيرودوت والتحليلات الجيوبوليتيكية بالبحوث الأنجلوفونية؟ هل هى مكررة فى الأعمال الأنجلوفونية، حتى إذا كانت تحت عناوين مختلفة نوعًا ما؟ فهنا لابد أن نقوم بالتمييز داخل الكتابة الجيوبوليتيكية الأنجلوفونية، وخاصة بين الأعمال

"التقليدية" والتجريبية القوية، والأعمال النظرية فى الجيوبوليتيكا النقدية والجغرافيا البشرية النقدية. ولكن هذا تقسيم سطحى ومفرط فى التبسيط، إلا أنه مفيد لتحقيق الأغراض الراهنة.

ويوجد فى الفئة الأولى قدر كبير من الأعمال على موضوعات مشابهة لتلك التى غطتها هيرودوت، والتى كتبها جغرافيون وأخصائيون فى العلاقات الدولية. ويستطيع المرء أن يجد فى الدوريات الجغرافية (وخاصة فى دوريات الجغرافيا السياسية) الكثير من الدراسات السياسية الإقليمية، وفى دوريات الشئون الدولية (مثل "الدراسات الاستراتيجية" أو "الشئون الدولية") والمجلات الثقافية السياسية الإقليمية (مثل المرجع السلافى، ومجلة دراسات أمريكا اللاتينية) دراسات مماثلة كتبها أخصائيون فى مجالاتهم. وبعض هذه الدراسات جيوبوليتيكى بصورة واعية، مثل دراسات "مركز البحوث الجيوبوليتيكية" (SOAS/ GRC) فى جامعة لندن، كما فى دراستهم لمشاكل البلقان (Carter and Norris 1996)، أو دراسة أوسلو التى حررها Tunander ,baev and Einagel (1997) ومع ذلك فإن معظم الأدبيات المناسبة- خاصة الأعمال الخاصة بالقوميات والحركات العرقية والانفصالية الإقليمية- لن توضع تحت عنوان "الجيوبوليتيكا".

وهذه الأعمال متفرقة ومنتشرة فى مختلف المجالات والمنشورات. ومعظمها "سياسى إقليمى" وليس جغرافياً صرفًا، وهناك نسبة صغيرة فقط تتناول تفاعل مختلف المستويات والسياقات بالأسلوب الذى يميز "التفسير الجغرافى" عند لاكوست- هيرودوت. وعلى العكس يتمثل أحد أوجه قوة هيرودوت فى هيكل الأعداد الخاصة بالموضوعات الإقليمية، والنمو التراكمى لهذا القدر الكبير من التحليل الجيوبوليتيكى المتكامل. وقد زادت هذه قوة بسبب التسهيل المتزايد لهيرودوت لتقديم خبرة "جيوبوليتيكية" وليس تخصصات أخرى لكتابة المقالات، وهذا تسهيل يتضح بصورة خاصة منذ إنشاء "مركز البحوث والتحليلات الجيوبوليتيكية"CRAG، بحيث يتحقق

اتساق أكبر فى التحليل. ففى مناسبات عديدة قدمت هيرودوت رؤى وتحليلات يصعب وجود مثلها فى الأدبيات المكتوبة بالانجليزية. (خاصة فى التاريخ الذى ظهرت فيه دورية هيرودوت). وأية قائمة لابد أن تكون انتقائية وشخصية. فخلال الحرب الروسية الأفغانية، عندما كانت هناك مخاوف من "الوصول إلى الهاوية"، كانت ورقة دريش فى (نقاط ساخنة) (العدد ١٨،١٩٨٠) هى التى وضحت سياق الجغرافيا الطبيعية ووجود صحراء لوط التى لا تجتازها المدرعات (Dresch 1980)، وكان هذا يوضح الأبعاد التى تتجاهلها الدراسات التقليدية. وقدمت هيرودوت أيضًا دراسات مبكرة جداً عن كوسوفو (Roux 1982)، والرؤى الجيوبوليتيكية للنظام الروسى الجديد(Vichnevski 1994)، وجيوبوليتيكا إزالة الغابات وأوضاع البيئة فى إندونيسيا (Durand 1998) وغير ذلك من الأمثلة الكثيرة.

إن الاختلافات بين جيوبوليتيكا لاكوست - هيرودوت ورؤى الجيوبوليتيكا النقدية الأنجلوأمريكية محيرة ومعقدة. فهناك الاختلافات المذكورة سلفًا من حيث الاهتمام النسبى، وتقييمات الدولة القومية والجيوبوليتيكا العالمية. وهذه مهمة جداً، مثل الاختلافات من حيث المواقف من دور النظرية فى التحليل الجغرافى والجيوبوليتيكى. فمن منظور الجيوبوليتيكا النقدية الأنجلوأمريكية، يعتبر موقف هيرودوت مناهضًا للنظرية، وهذا يؤدى إلى فجوة بين "المدرستين" ومع ذلك كانت نقاط البداية الأساسية للمدرستين متشابهة جداً، من حيث السياسة الراديكالية والتحليل الفكرى : فالنقد الذى قدمه لاكوست - هيرودوت فى السبعينات، وتطويره للجيوبوليتيكا الراديكالية فى الثمانينات، تكرر فى العمل الأنجلوأمريكى فى الجيوبوليتيكا النقدية والجغرافيا البشرية النقدية. ولذلك تحتاج الاتجاهات المختلفة جداً من النظرية بعض الدراسة، وهو ما سنعرضه لاحقا.

وينادى لاكوست - هيرودوت والجيوبوليتيكا الأنجلوفونية بارتباط أوثق بين السياسى والجغرافى، وإزالة الحواجز "الغامضة" أمام البحث الفكرى والتحليل

السـياسى. ومع ذلك، ينظر لاكوست - هيرودوت نظرة تقليدية إلى السـياسى والجيوبوليتيكى بتوسع ليشمل منظوراً داخلياً أوسع من الدولة، ولكن الاهتمام يظل أساسا بسياسات الدولة والسياسات الإقليمية واختلافاتها وضوابطها. ولم يكن هناك ارتباط قوى بجوانب "السياسة الثقافية" الشائعة فى الجغرافيا الأنجلوفونية (وفى التحليل الاجتماعى والثقافى الباريسى أيضًا) ويعتبر رفض لاكوست المبكر للقوة الصغرى عند فوكو (التى سنناقشها فى الجزء التالى) بمثابة المؤشر هنا، ولم تركز هيرودوت على قضايا سياسة النوع أو الهوية، والتى تعتبر جوهرية فى معظم الأعمال الأنجلوفونية. وقد تمت دراسة "سياسة الاختلاف" الواردة فى التعددية الثقافية، خاصة فى "تحيا الأمة"، والتى عُدت مشكلة تنتظر الحل، وليست اتجاهاً يجب اعتناقه.

السياسة والنظرية

ويظهر من هذا التحليل ونقد جيوبوليتيكا لاكوست - هيرودوت قضيتان متشابكتان. فأولاً، هناك قضية سياستها : أى إلى أى حد تظل هيرودوت تمثل منظوراً يسارياً راديكاليًا فى الجغرافيا والجيوبوليتيكا؟ وثانيًا، هناك قضية دور النظرية: أى لماذا يختلف لاكوست - هيرودوت والجيوبوليتيكا النقدية الأنجلوفونية على قيمة "النظرية" ولماذا تبدو هيرودوت غالبًا (لدى الأنجلوأمريكيين) محافظة جغرافيًا وليست راديكالية؟ ولا شك فى أن هذه القضايا، بالإضافة إلى البعد الهام للجمهور والتأثير الشعبى لعمل لاكوست - هيرودوت تحتاج إلى الدراسة.

سياسة هيرودوت The politics of Hérodote

بدأت هيرودوت فى ١٩٧٦ "كطفل مشاكس" للجغرافيا الراديكالية الفرنسية، وكانت تنتمى إلى ما بعد الماركسية، ولكنها كانت مناهضة للمؤسسة سواء فى الجغرافيا أو السياسة. فماذا عن تطور جيوبوليتيكا هيرودوت طوال أكثر من عشرين

سنة : هل لا تزال تمثل "جيوبوليتيكا اليسار" فعلاً؟ إن الحاجة إلى طرح السؤال، ثم الحاجة إلى قدر من الاهتمام لتقديم إجابة، يوضحان تطور وربما عدم تسييس المجموعة. لقد أظهر بروك تراجعًا فى الرؤية مبكراً : حيث كان العدد الأول من هيرودوت بعنوان "هيرودوت على صفيح ساخن" (حرفيا هيرودوت فى الصلصة الحارة) (Broc 1976)، ولكن بعد سبع سنين من إعادة التقييم، ظهر العدد الثالث والعشرون فى ١٩٨٢ بعنوان "هيرودوت فى الماء الدافئ" (حرفيا هيرودوت فى ماء الورد Broc 1983 إن هيرودوت وضعت الماء فى الخمر، وتراجعت أنياب الأسد ، ووضع المحارب القوزاقى الجسور سيفه فى غمده. فأين الإهانات. وأين اللعنات، وأين الإدانات؟

(Broc1983:108) . ويبدو أن هذا المسار ازداد قوة بالتركيز على "الاتجاه العلمى" فى التحليل الجيوبوليتيكى الذى قدمه التفسير الجغرافى (Boyer1986;Giblin1985)

وهناك قدر من الحقيقة فى هذا المنظور، فالكثير من المساهمين فى هيرودوت لم يكن لهم ارتباط بأية نظرة سياسية محددة، ويصعب تحديد نبرة سياسية واضحة لهيرودوت، مقارنة بمجلة "أنتيبود" الأنجلوأمريكية، التى تحتفظ بأجندة يسارية أكثر صراحة. ومع ذلك، يحافظ العديد من أعضاء المجموعة الأساسية فى هيرودوت (ومنهم لاكوست نفسه) على سياستهم اليسارية، ولكن ذلك يظهر فى سياق تغير كثيراً منذ السبعينات، دوليًا وداخل فرنسا. فقد ولى الموقف "الثورى" ولكن يظل هناك الموقف اليسارى فى إطار السياسة الفرنسية داخل الحزب الاشتراكى فى فرنسا. وعلى صفحات هيرودوت التى تركز على "الاتجاه العلمى" للتحليل الجيوبوليتيكى، نلاحظ أن السياسة الصريحة أصبحت أقل وضوحاً من ذى قبل، وتظهر "جيوبوليتيكا اليسار" عند لاكوست أكثر صراحة فى كتابه الحديث "تحيا الأمة".

ويمكن تتبع السياسة اليسارية فى عنصرين آخرين عند لاكوست – هيرودوت: أولهما ارتباط التحليل الجيوبوليتيكى بالديموقراطية، وسياق التركيز على دور (الأمم) ككيانات جيوبوليتيكية. فهنا يركز لاكوست – هيرودوت على أهمية التحليل

الجيوبوليتيكى للمواطنين فى الديموقراطية، لأنه فى الديموقراطية يجب أن يفهم الجميع العلاقة التى تربط القوة/ المعرفة بالجغرافيا والدولة، وذلك على عكس المجتمعات فيما قبل ١٩٠٠ . ويتضح الكشف النقدى عن "جغرافية القوة"- باستخدام تعبير أوتواثيل(ó Tuathail 1996) الذى ظهر فى كتابات لاكوست - هيرودوت المبكرة، من خلال إيمان تحررى بالديموقراطية العلمية. وهذا هو التراث اليسارى الرئيسى، باستثناء المواقف المحددة التى يتبناها بعض أفراد المجموعة فى القضايا السياسية الفرنسية. أما فى السياق الأوسع لشكل ما بعد الحداثة، فإنه يمكن اعتبار إيمان لاكوست - هيرودوت هنا جزءً من تراثها الماركسى (المرفوض)، وتحتفظ المجموعة بموقف تنويرى وتحررى واضح.

أما العامل الثانى فهو أكثر تعقيداً. حيث هاجم أشد نقاد لاكوست - هيرودوت(رافشتاين) ما يعتبره تركيزاً رجعيًا على الأمة والقومية فى هيرودوت، مستنتجًا أنه "لا يمكن أن يكون هناك شك فى أن جيوبوليتيكا هيرودوت هى فى ذاتها علم وطنى فرنسى" (Raffestin, Lopreno and Pasteur1995:294) وهناك الكثير من التضليل فى هذا التعليق. ولكن قد يكون له بعض القوة فى أحد الجوانب التى قد لا يقصدها رافشتاين. حيث يرى لاكوست - هيرودوت ظهور أشكال معينة من القومية (وبعض تعريفات الأمة) على أنه أفضل أشكال التعبير السياسى المتاحة للمجتمع والمجموعات فى أماكن كثيرة من العالم. ولكن يمكن إساءة فهم واستخدام هذه العروض، وإن كانت تمثل أيضًا طرقًا لتنظيم ومقاومة السيطرة الأوسع. ويفسر لاكوست - هيرودوت "الهوية القومية" على أنها مقاومة للعولمة (وللإسلام الأصولى الدولى)، وكانعكاس مباشر لهذا، فإنهم مستعدون لدعم فكرة "الأمة الفرنسية" ضد ما يسمونه "الهيمنة الأنجلوأمريكية" فى أوروبا. ولا شك فى أنهم سينكرون أن هيرودوت مثلت "علمًا قوميًا فرنسيًا"، ولكنهم قد يقبلون أن "العلم" كان أحيانًا ينعكس من خلال رؤية فرنسية للعالم. إلا إنهم قد يرون أيضًا أى تحيز فرنسى فى هذا المجال بمثابة طريقة لتشجيع "مقاومات" مماثلة على المستوى العالمى. وبهذا المعنى يشجع لاكوست -

هيرودوت استراتيجيه جيوبوليتيكية لعولمة تناهض (الأمريكيين)، وهذا أيضًا يمثل جزء من أصول هيرودوت اليسارية. ويمكن أن نعتبر (ربما توهمًا) أن المشروع الفكرى الكامل لدى هيرودوت يمثل إستراتيجية جيوبوليتيكية فى حد ذاته، أى أنه عمل فرانكوفونى لمقاومة مد الامبريالية الفكرية الأنجلوفونية- مع اعتبار أن إهمال الرؤى الأنجلوفونية يمثل جزءًا مقصودًا من المقاومة- وبناءً لتحالف دولى بديلا عن "الرؤى القومية" ضد رؤى العولمة. ولكن هذا الوصف فى حد ذاته- بافتراضه أن الرؤى الأنجلوفونية تمثل "الوضع العام" وأن الأعمال الفرانكفونية من أعمال المقاومة (المحلية) - يمكن اعتباره مثالاً على امبريالية فكرية شديدة تجب مواجهتها. فلا شك أن الجيوبوليتيكا موضوعية وسياسية، وينطبق هذا على كل من التحليلات والممارسات الجيوبوليتيكية.

الراديكالى والمحافظ: دور النظرية

لقد اشتمل العدد الأول من هيرودوت على مقابلة مع ميشيل فوكو عن "أسئلة حول الجغرافيا"(Foucault 1976a) فكان هذا الاتصال المباشر الوحيد لفوكو بالجغرافيا، ونظرًا لأنه ترجم ووضع فى مقالات مجمعة (Foucault 1980)، فإنه يمكن أن يكون أشهر مقالات هيرودوت فى العالم الناطق بالانجليزية، وفى ١٩٧٦ نشر فوكو "المراقبة والمعاقبة" كما نشر نص المقابلة التى أجريت معه بخصوص الكتاب السابق (ومعها دور جيوبوليتيكا القوة) وكتابه الآخر "نظام الأشياء". فضلا عن عرضه لمكانة الجغرافيا فى تاريخ المعرفة. وكانت المقالة مخيبة للآمال من عدة وجوه : فقد أراد فوكو من الجغرافيين القيام بكتابة "تاريخهم" الخاص، بالرغم من أنه صرح، رافضًا نوعًا ما، بأهمية المكان (ومن ثم الجغرافيا) فى قوة/ المعرفة. أما الأقل شهرة فى العالم الأنجلوفونى فهو حقيقة أن فوكو وجه بعض الأسئلة ثانية إلى هيرودوت (Foucault1976) وحصل على استجابات مستفيضة[٢] (Bernard et al.1977) ويوضح هذا النشاط التباين بين فكر فوكو والمنظورات الجيوبوليتيكية لدى مجموعة هيرودوت، قبل

أن يؤثر فوكو على تكوين الجيوبوليتيكا النقدية الأنجلوفونية على أيدى والبى وأوتواتيل وغيرهما فى السنوات الأخيرة.

وقد ركز لاكوست (1976a) وهيرودوت على بعد واحد فى قوة/ المعرفة عند فوكو، وهو الدور الكاسح لقوة الدولة (بما فى ذلك قوة الطبقة) وتأثيرها على البنيات المعرفية والأكاديمية والسياسية. فقد ركز لاكوست – هيرودوت وفوكو على مفهوم "القدرة".

ولكن لاكوست – هيرودوت اعتبر أن أفكار القوة الأوسع عند فوكو (ومنها القوة الصغرى) أقل ملاءمة لاهتماماتهم السياسية، لأنه دائماً ما تكون القوة فى تحليلهم جوهرية وتمارسها السياسة أو الجيش أو المصالح التجارية. وقد ظهرت هذه الاختلافات عندما راجع لاكوست كتاب رافشتاين "من أجل جغرافية القدرة" (١٩٨٠). حيث نشر رافشتاين أشكالا هندسية ومفاهيم فوكو فى تحليله الجزئى للقوة والمكان، شاملة العلاقات الأسرية بين الرجل والمرأة، مقتبساً عبارة فوكو "السلطة تأتى من أسفل" (Foucault1978:127) ولم يكن لدى لاكوست وقت للسلطة التى تعتمد على الخلط بين الأنماط المختلفة للقوة (القوة الجنسية وقوة الدولة) وعلى الخلط بين مستويات التحليل (العلاقات بين فردين، ودور جهاز الدولة بالنسبة لآلاف أو ملايين الأفراد) (Lacoste1981b:157) فهذا التقسيم بين السياسة على المستوى التقليدى ومستويات سياسة الهوية والجنسية والموضوعية يميز عمل هيرودوت بصورة واضحة.

إن التفاعل المبكر مع فوكو لم يصل إلى أعماق هيكل المفاهيم أو النماذج لدى لاكوست – هيرودوت. ولم يتكرر هذا النوع من التفاعل مع النظرية الاجتماعية، ونادراً ما كانت هيروبوت تدخل فى الأشكال الأخرى العديدة للنظرية الاجتماعية الفرنسية. فبعد المرحلة الأولية لعملية "التفكير المعرفى" التى أدت إلى ظهور هيرودوت، كان لاكوست – هيرودوت يشك فى الحاجة إلى المزيد من التفكير المنهجى، وكان معادياً لدور النظرية فى التحليل الجغرافى. ولا شك فى أن كلاً من هذه الجوانب يستحق المناقشة.

لقد كان التفكير المعرفى المبدئى عند لاكوست المدخل الرئيسى للتساؤل ثم إزالة الحواجز المصطنعة (والأيديولوجية) بين ما هو "سياسى" وما هو "جغرافى". حيث استخدم بول كلافال- فى إحدى دراساته لتاريخ الجغرافيا (Claval1976)تعبير "توسيع الماضى" للدعوة إلى تاريخ أكثر شمولاً وسياقية للجغرافيا. ويحقق التفكير المعرفى عند لاكوست، ومطالبته بالنزعة الجغرافية ,كل هذا. ومع ذلك، كان لاكوست وزملاؤه فى هيرودوت (انظر التحليل فى (Giblin 1985دائمًا ما يعرضون هذا على أنه مهمة اكتملت : لقد أنجزت هذه المهمة، ولابد من تطبيق الأسلوب الآن. فلم يكن تفكيرهم فى الأسلوب عملية نقد مستمرة متواصلة، ومع ذلك نجد أنهم لا يبررون هذا الموقف أبداً.

ويعتمد موقف لاكوست - هيرودوت من "النظرية" على تجربة الماركسية، ويتأثر بأشكال النظرية (الوضعية) التى قدمتها "الجغرافيا (الكمية) الجديدة". ولا شك فى أن هذه الرؤية للنظرية قد زادت قوة بسبب الحوارات الحديثة مع برونت وزملائه حول الاستخدام السياسى "للنماذج" الهندسية المعروفة باسم الكرومات Chorémes Lacoste 1993c,1955; Giblin-Devallet 1995, وملخص الفصل العاشر فى هذا المجلد). فعند مناقشة النظرية والنماذج، دائمًا ما تعرضها هيرودوت بأسلوب مقتضب كما لو كانت تحاول اختزال الحياة الاجتماعية فى نظام وقوانين علمية، وذلك فى مقابل تعقيد وتنوع وتفرد التحليل الجغرافى. ومع ذلك لا يزال لاكوست - هيرودوت يؤكد أن أسلوب التفسير الجغرافى يقدم اتجاهًا علميًا : "كل هذا التفسير هو موضوع اتجاه علمى دقيق، بدون الحاجة إلى نظام ونماذج" (Lacoste1995:18) ويرى العديد من الجغرافيين الأنجلوفونيين أن هذا الإيمان "بالاتجاه العلمى" فى التحليل الجيوبوليتيكى والجغرافى يحتاج إلى قدر من البحث على الأقل. فهذا "التفسير الجغرافى" لا يقتصر على الاعتماد على الحقائق الحساسة جدًا لجمع وتقييم الأدلة بعناية (ونقد ذاتى)، وعلى الممارسة الدقيقة جداً لدمج السياقات والنطاقات المكانية المختلفة، بل يشير أيضًا إلى أن الممارسة الحالية يمكن أن "تتخطى" مواقفنا وسياقاتنا لتحقيق "تحليل موضوعى". وعندما يصاغ هذا فى لغة "تحليل أكثر موضوعية" يكون الأمر أكثر قبولا وقد يكون

مجرد مسألة بلاغة إلى حد ما. ولكن البلاغة نادرًا ما تكون "مجرد بلاغة". حيث يمكن تشجيع دعاوى العلم والموضوعية بالمصطلحات الأكاديمية، ولكنها يمكن أن تحد أو تعيق أو تشوه التحليل. إلا أن هناك مخاطرة حقيقية فى تنقيح أو إخفاء الكثير من الجوانب السياسية، بما فى ذلك الجوانب السياسية فى منظور وأسلوب المرء. وهنا تبدو دعاوى لاكوست – هيرودوت الأصلية "بمعرفة تخيل المكان" أكثر فائدة.

ويبدو أن المنظّر الاجتماعى الوحيد الذى ناقشه (ومدحه) لاكوست هو روبرت فوسيرت، حيث قدم لاكوست فى دورية هيرودوت (Lacoste1978,1982a) مراجعة لكتاب فوسيرت متعدد المجلدات "المجتمع" (Lacoste1978,1982a) (Fossaert 1977:84) وكذلك كتب فوسيرت لهيرودوت (Fossaert 1979) وساهم فى "قاموس" العلاقات بين العلوم الاجتماعية والجيوبوليتيكا. وتتمثل ميزة عمل فوسيرت فى تحليله الجمعى. حيث يعتمد تحليل فوسيرت– مثل لاكوست– على خلفية ماركسية، ولكن فوسيرت يرفض الأساس الاقتصادى للماركسية. وينادى بثلاثية السياسة والاقتصاد والأيديولوجيا فى التكوين الاجتماعى، وبتقرير دقيق عن المجتمعات المختلفة يراعى التباينات فى المكان والنطاق. وقد منح تركيزه غير العادى على هذين العنصرين جاذبية كبيرة لأفكاره خاصة من قبل لاكوست. ومع ذلك، نجد أن الحماس للعلوم الاجتماعية عند فوسيرت يحظى بتعبير قليل فى الممارسات الفعلية لدى لاكوست– هيرودوت.

ولكن لماذا هذا؟ يترتب الأمر هنا على الموقف الذى اتخذه لاكوست – هيرودوت من النظرية، والذى يعتبر شديد الاختزال من المنظور الماركسى أو الوضعى. ومع ذلك لا تحتاج النظرية فى العلوم الاجتماعية إلى اتخاذ هذا الشكل، فمعظم النظريات الاجتماعية عبارة عن أمور متواضعة، ومحاولات للتعميم، وتحقيق الرؤى بتجريد محدود، وهى غامضة وجزئية فى تطبيقها. فإذا كان العالم شديد التنوع والتعقيد، فإن أى تحليل لابد أن يكون جزئيًا– وليس التحليل النظرى فحسب– ويجب علينا أن نستخدم المركبات النظرية والتجريدات للنظر من خلال خضم التفاصيل. ولذلك هناك

حاجة إلى "نظرية" من هذه الأنواع للإبحار فى هذه الأمواج المتلاطمة، أو لتغيير الاستعارة، لرؤية الغابة من خلال الأشجار. ومعظم النظريات فى العلوم الاجتماعية من هذا النوع ولا تثير الادعاءات الكبرى للماركسية التقليدية أو العلوم الاجتماعية الوضعية.

وهكذا فإن دور النظرية هو الحد الفاصل بين الجيوبوليتيكا الأنجلوفونية ولاكوست – هيرودوت. ويبدو أنه من الصعب اجتياز هذه الفجوة. فبالنسبة للأنجلوفونيين، يبدو إهمال الجغرافيين الفرنسيين لمنظريهم الاجتماعيين المحليين فيما بعد البنيوية أمرًا سلبيًا، ومن ناحية أخرى، يتشكك المرء فى أن لاكوست – هيرودوت سعيد بهذا الوصف للمنظرين الاجتماعيين الفرنسيين. الذين يعتبرونهم منعزلين فى برج عاجى عن التحليل الجيوبوليتيكى الجاد. (وربما عن السياسة الجادة أيضًا). ولكن هناك علاقات محتملة على مستويات نظرية أدنى فى العلوم الاجتماعية، مثل الأدبيات المستفيضة عن أشكال القومية، والنظريات الانفصالية، ودعاوى الهوية الثقافية والعرقية، التى تناسب اهتمامات لاكوست – هيرودوت، وترتبط أيضًا بالرؤى النقدية الأنجلوفونية الحديثة (óTuathail and Dalby 1998;Dükinkl 1996) وتحتاج هذه الموضوعات إلى مزيد من الاهتمام ومعالجة بحثية مستقلة، ولكننا نشير إليها هنا كنقطة بداية.

وستظل كتابات هيرودوت ولاكوست مزيجًا مربكًا من الراديكالية والمحافظة، ويبدو أن هذا المزيج لا يعكس الموقف الفكرى لمجموعة لاكوست – هيرودوت فحسب، ولكنه يمثل استجابة للسياق الخاص بالجغرافيا الفرنسية والحياة الأكاديمية فى السبعينات. فبالنسبة للناظر من الخارج، يعتبر نجاح النزعة الجغرافية عند لاكوست – هيرودوت و"الجغرافيا كمعرفة سياسية" راديكاليًا، بينما يعتبر التفسير الجغرافى محافظًا ودفاعيًا. وقد يكون أحدهما بمثابة المكون العملى للآخر: ففى الجامعات والمدارس الفرنسية فى السبعينات والثمانينات كان على الجغرافيا أن تدافع عن موقعها

الأكاديمى (Lacoste 1986c)، وكان الاتجاه الجغرافى المحدد والمميز بوضوح، الذى يبتعد عن العلوم الاجتماعية والبيئية خاصة، يعتبر إستراتيجية ضرورية. ومن المؤكد أن لاكوست – هيرودوت لن يجدا موازنة مفيدة بهذه الطريقة، ولكن ذلك يمكن أن يكون جزءاً من التفسير. ففى السياقات المتعارضة للأكاديميين الأنجلوأمريكيين، يكون الجغرافيون أقل حاجة للدفاع عن الجغرافيا، ويتخذون موقفاً أقل تشدداً بشأن طبيعة الجغرافيا نظراً لرضاهم (وثقتهم) باستكشاف تقاطعات المكان مع كل من العلوم الاجتماعية والطبيعية : ومن المؤكد أن لاكوست سيعتبر الاحتكاك بين الجغرافيا البشرية والطبيعية ثمناً يجب دفعه مقابل ذلك، وهذا الثمن قد يهدد المستقبل المؤسسى للجغرافيا.

جمهور هيرودوت ونطاق مشروع لاكوست

لابد أن يأخذ أى تفسير للمشروع الفكرى للاكوست (وهيرودوت) نطاقه وطموحه فى الحسبان. فبالرغم من أنه موجه أساساً إلى العالم الجغرافى الأكاديمى الفرانكوفونى فى الجامعات والمدارس، إلا أنه كان يتطلع أيضاً إلى الجمهور العام الأوسع وإلى الثقافة السياسية فى فرنسا. بل إن هيرودوت ذاتها، من خلال شكلها القوى المتمثل فى تخصيص عدد لكل موضوع، ومبيعاتها فى المكتبات، وليس عن طريق اشتراكات المجلات التقليدية، كانت تصل إلى جمهور عام أكبر كثيراً من القراء المعتادين لمجلة أكاديمية، وتزداد قوتها بأنها تسوق على أنها مجلة للجيوبوليتيكا والجغرافيا. وكذلك تنشر كتب لاكوست وأعضاء جماعة هيرودوت الحاليين والسابقين رسالة التحليل الجيوبوليتيكي الحريص (Foucher 1986, 1988; Lacoste (ed.)1986b; Loyer 1997) وبالإضافة إلى ذلك، شارك لاكوست والمتعاونون مع هيرودوت فى عدد من مشروعات النشر الأصلية. حيث نشر لاكوست مع كل من فرانسوا جيز والفريد فالاداو سلسلة "استكشاف ماسبيرو" عن "حالة العالم" والحولية الاقتصادية والجغرافية العالمية (Geze, Lacoste and Valladão1981) وكما يشير العنوان فهذه عبارة عن مرجع

سنوى لأحداث العالم الاقتصادية والسياسية الثقافية، مع حقائق وخرائط وسياقات حديثة. ومع مشاركة لاكوست – هيرودوت، وكما يشير العنوان الفرعى، كانت "حالة العالم" تركز على الجغرافيا والجيوبوليتيكا. وأدى هذا المشروع إلى ظهور مطبوع "حالة فرنسا" السنوى، والذى ظهرت منه طبعات للصغار المبتدئين، وأصبح متاحًا على أقراص مدمجة. وظهرت طبعات أقل انتظامًا عن أقاليم أخرى عديدة، مثل "حالة المغرب" بقلم كاميليا وييفز لاكوست. وهكذا انتشرت أفكار واتجاهات هيرودوت خارج الأبراج العاجية للأكاديميين. وكذلك كتب لاكوست أعمال "مناظرات" كإسهامات فى الجدل السياسى، وكان أشد الجغرافيين الفرنسيين المعاصرين مناصرة لمصطلح "المفكر العام". وساهم فى مجلات وصحف مختلفة، وأجرى مع الصحافة مقابلات، وكان يظهر مع الأدباء والمثقفين البارزين فى سلسلة الفيديو "ملتقى الأشغال" الذى أنتجته المدرسة الوطنية العليا لفنون الزخرفة (حيث يظهر لاكوست فى ترتيبهم تحت ١٩٩١ بعد جاك دريدا). وقد كتب كتابان لهذه الحوارات العامة تحديداً. وكتب لاكوست "ضد مناهضى العالم الثالث وضد بعض أنصار العالم الثالث" (Lacoste1985b) فى استجابة مباشرة على دراسة باسكال بروكز "نحيب الإنسان الأبيض" ودراسات أخرى هاجمت فكرة العالم الثالث وحاجته للمساعدة الاقتصادية. ويمثل عمله الحديث "تحيا الأمة" مصير فكرة جغرافية (Lacoste1998) إسهامًا فى الحوارات الجارية فى السياسة الفرنسية. ويجب أيضًا أن نذكر كتاب لاكوست الأخير "سيرة الأرض" (Lacoste: 1996a) إذ يبدو كأنه كتاب "تسلية" به توضيحات هامة، وفى نفس سلسلة فلاماريون، مثل كتاب "سيرة الملائكة" الذى كتبه ميشيل سيريس. ومع ذلك، فإن هذا الكتاب (مثل كتاب سيريس) أكثر من مجرد تسلية للقارئ العادى، لأنه يدعو بشدة إلى نظرة شاملة للجغرافيا والأرض، ويتابع المنظور الجيوبوليتيكى من عصر هيرودوت فصاعداً، ولكنه يدعو أيضًا إلى دور "الحساسية أو وجهة النظر الجغرافية" بمعناها الأوسع، خاصة نحو المعرفة والاهتمام البيئى.

ويعكس اتساع مجال كتابات لاكوست أهداف وطموح مشروعه. إذ أن تحليلات لاكوست وهيرودوت لا تستهدف قراء الجامعات والمدارس فحسب (كما هو حال الكثير

من الكتابات الأنجلوفونية عن الجيوبوليتيكا النقدية)، ولا عالم أخصائيى السياسة العامة والخارجية) (مثل معظم التحليل الجيوبوليتيكى الأنجلوفونى والفرانكوفونى)، ولكنه يستهدف الجمهور المتعلم العريض فى مجال الحوار السياسى. وغالبًا ما توصف الكتابة لمثل هذه المجموعات العريضة، خاصة فى الجغرافيا باللغة الانجليزية، بأنها مجرد "تبسيط للعامة". وقد يعنى هذا خلط الفئات (واختصار هذه الكتابة فى نموذج ضيق "للتبسيط العلمى") : ولكن هذه الكتابة مختلفة، فالحجج الفكرية (والسياسية) الهامة غالبًا ما تظهر فى مثل هذا النوع من الكتابة. وأية محاولة لتغيير مفاهيمنا عما هو "جيوبوليتيكى" لابد أن تشمل المهنى العام والأكاديمى والسياسى، كما قال لاكوست.

وإذا كان استبعاد هيرودوت "للنظرية" كمكون للتفسير الجغرافى يمثل الحاجز الكبير بين اتجاهها واتجاه الجغرافيين الأنجلوفونيين، فإن المجال الواسع لإسهامات لاكوست – هيرودوت، وتكامله، وتفصيله الإقليمى داخل الإطار العالمى، وكبر أعداد القراء – خارج حدود الجغرافيا عند الأكاديميين، وخارج المجال الأكاديمى ذاته – والمشاركة المباشرة فى الحوارات السياسية، كل هذا يرفع من شأنها كنموذج. ولكن هل هذا يعنى أن الجغرافيا الأنجلوفونية يجب أن تقدم نظيرًا لهيرودوت ,مع أن "التراث يمثل أصدق صور المراهنة"؟ إذ إن نجاح مثل هذا المشروع يتطلب تحديد واستغلال السياق الخاص للأنجلوفونية اليوم، مثلما ظهر وتطور لاكوست وهيرودوت فى سياق فرنسى محدد. ولا شك فى أن أى مشروع أنجلوفونى كهذا يتطلب استكشاف النظرية بصورة أكثر مباشرة ووضعية مما فعلته هيرودوت، ويجب عليه أيضًا أن يخصص أعدادًا لعدد أكبر من القراء : فقد ساعد الشك فى تجريدات النظرية الاجتماعية على جعل هيرودوت متاحة لهذا الجمهور العريض. وسيكون من الطريف أيضًا أن نرى كيف يمكن أن يعبر مثل هذا المشروع عن موقفه السياسى الراديكالى، ومدى تكامله.

الاستنتاجات

تشمل أعمال ييفز لاكوست ومجموعة هيرودوت أهم وأكمل عمل فى التحليل الجيوبوليتيكى المعاصر. حيث أصبح نطاق إسهامات مدرسة هيرودوت منذ السبعينات هائلاً. وقد عرضنا فى هذا المقال جوانب قليلة بدون تفصيل. فمدرسة هيرودوت تستحق الكثير من الدراسة، خاصة من خارج العالم الفرانكوفونى. وهناك اختلافات عديدة بين الاتجاه الجيوبوليتيكى لهيرودوت واتجاهات الجغرافيين والمحللين الجيوبوليتيكيين النقديين الأنجلوفونيين، ولدى كل مجموعة منهما فرصة كبيرة للتعلم من الأخرى، وهذا لا يعنى الدعوة إلى الاندماج، ولكنه يدعو إلى حوار نقدى وبناء. وقد عرض المقال الحالى بهذه الروح. ففى الوقت الذى يمثل فيه احترام الاختلاف قيمة يدعو إليها كل الجغرافيين الفرانكوفونيين والأنجلوفونيين، يحتاج الطرفان إلى إبداء المزيد من الاهتمام بعمل بعضهما البعض. ومن المحتمل ألا يوافق لاكوست - هيرودوت على العديد من الحجج المطروحة هنا، ولكن فتح الحوار سيكون مفيداً، وسيكون من الطريف أن نرى هيرودوت تراجع الأعمال الحديثة فى الجيوبوليتيكا النقدية الأنجلوفونية. ومن المؤكد أن التحليل الجيوبوليتيكى الأنجلوفونى يحتاج إلى تحديد مسار نحو اهتمامات تراث لاكوست - هيرودوت، وتناول الاختلافات معهم والتعلم منهم. فالاختلاف مقبول فى حد ذاته، ولأنه يكشف أيضًا لجميع الأطراف فرديتهم وخصائصهم واتجاهاتهم نحو التغير والنمو.

الملاحظات

كل النصوص من الفرنسية قمت بترجمتها بنفسي، وأنا مدين في مراجعتها لمساعدة جين هبل.

الهوامش

(١) إن مركز "البحوث والتحليلات الجيوبوليتيكية"((CRAG له موقع على الانترنت، وعنوانه الحالى: www.univ-Paris8.fr/geopolitique/ أو www.multimania.com/geopolitique/ وتحتوى صفحات الموقع تفاصيل عن برنامج دكتوراه المركز، ومحتويات هيرودوت، وتفاصيل رسالة المركز ومنشوراته، بالإضافة إلى نسخ قابلة للتحميل من بعض الأوراق البحثية الحديثة التى يصدرها المركز.

(٢) تعتبر دراسة دوزيت الحديثة عن كيف "أدى الانترنت إلى جيوبوليتيكية العالم" (Douzet 1997) مثالاً جيداً. حيث يدرس كيف أن الوصول إلى الانترنت شديد التأثر بالجغرافيا والجيوبوليتيكا، وكيف أن السيطرة الأنجلوفونية تفرض مشاكل على المجموعات الفرانكفونية واللغوية الأخرى، وكيف أن الشبكة يمكن أن تقدم أيضًا روابط فعالة للمقاومة الوطنية والمحلية، باستخدام حالة المجموعات المناهضة لميلوسيفيتش فى صربيا كمثال. وتوضح إشارته إلى تمرد زاباتسينا فى ولاية شياباس المكسيكية. والعرض الفعال جدًا لهذه الحالة على الانترنت، وبعض التقارب مع الأعمال الحديثة فى الجيوبوليتيكا النقدية الأنجلوفونية، خاصة ورقة (1997) ó Tuathail (1998), Routledge عن نفس هذه الحالة، ودور الجيوبوليتيكا الاليكترونية.

(٣) كانت أسئلة فوكو تتعلق بطبيعة مشروع هيرودوت: كيف تخطط هذه المجموعة من الجغرافيين لتحليل فكرة القوة، والإستراتيجية، والعلاقة بين الاستراتيجية والحرب، والقوة والسيطرة؟ وهل كان يمكن إنشاء جغرافيات للطب؟ وهذا سؤال محير فى ظل تطور اهتمامات فوكو، وتناول واحد منها فقط بمصطلحات جيوبوليتيكة فى إحدى رسائل مركز البحوث والتحليلات الجيوبوليتيكية CRAG أعدتها أوليفر لاكوست ونشرت فى صورة كتاب.(O.Lacoste1995) وتساءل فوكو أيضًا: إذا كنت أفهمك جيداً، فأنت تحاول بناء معرفة المكان. فهل من الضرورى بالنسبة لك أن تبنى ذلك فى صورة علم؟.(Foucault 1976b) وجاءت الاستجابات من ثلاثة عشر جغرافيًا. وبالرغم من تنوعها، إلا أن فحواها العام هو الذى عرضه لاكوست فى ١٩٧٦ (Lacoste1976a) والأعداد الأولى من هيرودوت.

قائمة المراجع

Agnew, J. (1998a) 'Territoire et politique dans l'Italie de l'après-guerre', *Hérodote* 89: 105–6

——— (1998b) *Geopolitics. Re-visioning World Politics*, London: Routledge.

Agnew, J. A. and Corbridge, S. (1995) *Mastering Space: Hegemony, Territory and Internationa Political Economy*, London: Routledge.

Althusser, L. (1965) *Lire le Capital*, Paris: Maspero.

Baker, A. R. H. (1994) 'Evolution de la géographie historique en Grand-Bretagne et e Amérique du Nord', *Hérodote* 74/75: 70–86.

Bernard, O. *et al.* (1977) 'Des réponses aux questions de Michel Foucault', *Hérodote* 6: 5–30

Boyer, J.-C. (1986) '*Hérodote*: dix ans, l'âge de raison?', *L'Espace Géographique* 4: 297–301

Broc, N. (1976) '"*Hérodote*" à la sauce tartare', *Annales de Géographie* 85: 503–6.

——— (1983) '*Hérodote* à l'eau de rose', *Annales de Géographie* 92: 708.

Buleon, P. (1992) 'The state of political geography in France in the 1970s and 1980s' *Progress in Human Geography* 16 (1): 24–40.

Carter, F .W. and Norris, H. T. (eds) (1996) *The Changing Shape of the Balkans*, London UCL Press (SOAS/GRC Geopolitics series).

Cassen, B. (1998) 'La nation contre le nationalisme', *Le Monde Diplomatique*, March 199 (Internet edition).

Claval, P. (1976) *Essai sur l'evolution de la géographie humaine*, Paris: Les Belles Lettres.

Clout, H. (1985) 'French geography in the 1980s', *Progress in Human Geography* 9: 473–90

——— (1994) 'La reconstruction de la campagne de la France, 1918–30', *Hérodote* 74/75 111–26.

Dijkink, G. (1996) *National Identity and Geopolitical Visions, Maps of Pride and Pain*, London Routledge.

Douzet, F. (1997) 'Internet géopolitise le monde', *Hérodote* 86/87: 222–33.

Dresch, J. (1980) 'Le desert du Lout en Iran. Un desert absolut est-il franchissable?' *Hérodote* 18: 46–56.

Durand, F. (1998) 'Les forêts indonésiennes à l'orée de l'an 2000, un capital en péril' *Hérodote*, 88: 62–75.

Durand, M.-F., Lévy, J. and Retaille, D. (1992) *Le Monde, Espaces et Systemes*, Paris: Dallo et les Presses de la Fondation nationale des sciences politiques

—— (1980) *Power/Knowledge. Selected Interviews and Other Writings 1972–1977* (edited by C. Gordon), New York and London: Harvester Wheatsheaf.

Foucher, M. (1986) *L'Invention des Frontières*, Paris: Fondation pour les Études de Défense Nationale.

—— (1988) *Fronts et Frontières. Un Tour du Monde Géopolitique*, Paris: Fayard.

George, P., Guglielmo, R., Kayser, B. and Lacoste, Y. (1964) *La Géographie Active*, Paris: Presses Universitaires de France.

Geze, F., Lacoste, Y. and Valladão, A. (1981) *L'État du Monde 1981, Annuaire économique et géopolitique mondial*, Paris: Éditions La Découverte.

Giblin, B. (1981) Elisée Reclus et les colonisations, *Hérodote* 22: 56–79.

—— (1985) '*Hérodote*, une géographie géopolitique', *Cahiers de Géographie du Quebec* 29: 283–94.

Giblin-Delvallet, B. (1995) 'Les effets de discours du grand chorémateur et leurs conséquences politiques', *Hérodote* 76: 22–38.

—— (1997) 'Le racisme contre la nation', *Hérodote* 85: 3–8.

Girot, P. and Kofman, E. (eds) (1987) *International Geopolitical Analysis. A Selection from Hérodote*, London: Croom Helm.

Heldke, L. M. (1992) 'Foodmaking as a thoughtful practice', in Curtin, D. W. and Heldke, L. M. (eds) *Cooking, Eating, Thinking. Transformative philosophies of food*, 203–29, Bloomington and Indianapolis, Ind.: Indiana University Press.

Hepple, L. W. (1986) 'The revival of geopolitics', *Political Geography Quarterly* vol. 5 supplement: 21–36.

Korinman, M. (1983) 'Friedrich Ratzel et la Politische Geographie', *Hérodote*, 28: 128–40.

—— (1990) *Quand l'Allemagne Pensait Le Monde*, Paris: Fayard.

—— (1991) *Continents Perdus: Les Précurseurs de la Géopolitique Allemande*, Paris: Economica.

Lacoste, O. (1995) *Géopolitique de la Santé. Le cas du Nord-Pas du Calais*, Paris: Recherches.

Lacoste, Y. (1959) *Les Pays Sous-Développés*, Paris: PUF.

—— (1965) *Géographie du Sous-développement*, Paris: PUF.

—— (1966) *Ibn Khaldoun. Naissance de l'Histoire, Passé du Tiers Monde*, Paris: Collection 'Textes a L'Appui' (2nd edition, 1981).

—— (1973a) 'La Géographie', 242–302 in F. Chatelet (ed.) *La Philosophie des Sciences Sociales (Histoire de la Philosophie, tome 7)*, Paris: Hachette-Litterature.

——. (1973b) 'An illustration of geographical warfare: bombing of the dikes on the Red River, North Vietnam', *Antipode* 5 (2), 1–13.

—— (1976a) *La Géographie, ça sert, d'abord, à faire la guerre*, Paris: Maspero (1st edition).

—— (1976b) 'Enquête sur le bombardement des digues du fleuve Rouge (Vietnam, été 1972). Méthode d'analyse et reflexions d'ensemble', *Hérodote* 1: 86–117.

—— (1976c: 3rd edition) *Géographie du Sous-développement*, Paris: PUF.

——— (1977a) 'An illustration of geographical warfare: bombing of the dikes on the Red River, North Vietnam', 244–61 in R. Peet (ed.) *Radical Geography*, London: Methuen.
——— (1977b) 'Self-critical reflections and critique of "A Geography of Underdevelopment"', *Antipode* 9 (3), 117–24.
——— (1978) 'Robert Fossaert, *La Société*', *Hérodote* 10: 155–9.
——— (1979) 'À bas Vidal. . . Viva Vidal!', *Hérodote* 16: 68–81.
———(1980) *Unité et Diversité du Tiers Monde. Des Représentations Planétaires aux Stratégies sur le Terrain*, Paris: Hérodote (Maspero).
——— (1981a) 'Géographicité et géopolitique: Elisée Reclus', *Hérodote* 22: 14–55.
——— (1981b) '*Hérodote* à lu: . . . Pour une géographie du pouvoir', *Hérodote* 22: 149–57.
——— (1982a) '*Hérodote* à lu: Robert Fossaert: les tomes 3–4–5 de *La Société*', *Hérodote*, 25: 152–6.
——— (1982b: 5th edition) *Géographie du Sous-développement*, Paris: PUF.
——— (1983) 'Editorial', *Hérodote* 28: 3–5.
——— (1984a) 'Les géographes, l'action et le politique', *Hérodote* 33–4: 3–32.
——— (1984b) 'Geography and foreign policy', *SAIS Review* 4: 213–27.
——— (1985a) *La Géographie, ça sert, d'abord, à faire la guerre*, Paris: Éditions La Découverte (3rd edition).
——— (1985b) *Contre les anti-Tiers-mondistes et contre certains Tiers-mondistes*, Paris: Éditions La Découverte.
——— (1986a) 'Braudel géographe', *Hérodote* 40: 161–5.
——— (ed.) (1986b) *Géopolitiques de la France* (3 volumes), Paris: Fayard.
——— (1986c) 'Penser et enseigner la geographie', *L'Espace Géographique* 1: 24–7.
——— (1988) *Questions de Géopolitique*, Paris: Le Livre de Poche.
——— (1990) *Geographie und politisches Handeln. Perspektiven einer neuen Geopolitik*, Berlin: Verlag Klaus Wagenbach.
——— (1992) 'Editorial: la question serbe et la question allemande', *Hérodote*, 67: 3–48.
——— (ed.) (1993a) *Dictionnaire de Géopolitique*, Paris: Flammarion.
——— (1993b) 'La question allemande', *Hérodote* 68: 3–17.
——— (1993c) 'Debat: chorématique et géopolitique', *Hérodote* 69/70: 224–59.
——— (1994) 'Nation, nations, nationalistes', *Hérodote* 72/73: 3–8.
——— (1995) 'Les géographes, la Science et l'illusion', *Hérodote*, 76: 3–21.
——— (1996a) *La Légende de la Terre*, Paris: Flammarion.
——— (1996b) '*Hérodote* à lu: Claude Raffestin, Dario Lopreno, Yvan Pasteur, *Géopol-itique et Histoire*', *Hérodote* 80: 204–8.
——— (1997) 'La République et la Nation: quelques réflexions géopolitiques', *Géopol-itique* 60: 60–5.
——— (1998) *Vive la Nation: Destin d'une Idée Géopolitique*, Paris: Fayard.
———, Nouschi, A. and Prenant, A. (1960) *L'Algerie, Passé Present*, Paris: Editions Sociales.

Loyer, B. (1997) *Géopolitique du Pay basque. Nations et nationalismes en Espagne*, Paris: L'Harmattan.

Oliva, J.-C. (1998) 'Nation: une idée neuve pour un vieux monde', *Regards*, April 1998 (Internet edition).

O'Loughlin, J. (ed.) (1994) *Dictionary of Geopolitics*, Westport, Conn.: Greenwood Press.

Ó Tuathail, G. (1994) 'The critical reading/writing of geopolitics: re-reading/writing Wittfogel, Bowman, Lacoste', *Progress in Human Geography* 18,3: 313–32.

——. (1996) *Critical Geopolitics*, London: Routledge.

——. (1997) 'Emerging markets and other simulations: Mexico, the Chiapas revolt and the geofinancial panopticon', *Ecumene* 4: 300–17.

Ó Tuathail, G. and Dalby, S. (eds) (1998) *Rethinking Geopolitics*, London: Routledge.

Ó Tuathail, G., Dalby, S. and Routledge, P. (eds) (1998) *The Geopolitics Reader*, London: Routledge.

Parker, G. (1998) *Geopolitics. Past, Present and Future*, London: Pinter.

Raffestin, C. (1980) *Pour une Géographie du Pouvoir*, Paris: Litec.

Raffestin, C., Lopreno, D. and Pasteur, Y. (1995) *Géopolitique et Histoire*, Paris: Payot.

Reclus, E. (1982) *L'homme et la terre*, Paris: Maspero/La Découverte. 2 volumes (Edited with introductory essay by B. Giblin).

Routledge, P. (1998) 'Going global. Spatiality, embodiment, and mediation in the Zapatista emergency', in G. Ó Tuathail and S. Dalby (eds) *Rethinking Geopolitics*, 240–60 London: Routledge.

Roux, M. (1982) 'Le Kosovo: développement regional et integration nationale en Yougoslavie', *Hérodote* 25: 10–48.

Sanguin, A.-L. (1993) *Vidal De La Blache. Un genie de la géographie*, Paris: Editions Belin.

Taylor, P. J. (1990) *Britain and the Cold War. 1945 as Geopolitical Transition*, London: Pinter.

Tunander, O., Baev, P. and Einagel, V. I. (eds) (1997) *Geopolitics in Post-Wall Europe. Security Territory and Identity*, Oslo and London: PRIO (International Peace Research Institute) and Sage.

Vichnevski, A. (1994) 'Le nationalisme russe: à la recherche du totalitarisme perdu' *Hérodote* 72/73, 101–18.

الفصل الثانى عشر

المواطنة والهوية والموقع

الخطاب المتغير للجيوبوليتيكا فى إسرائيل

ديفيد نيومان

المقدمة

لا تحتل إن الدول مكاناً واحداً فى بناء جيوبوليتيكى لا يتغير. فالتصور الجيوبوليتيكى للنخب السياسية والمقيمين والمواطنين وغيرهم من المجموعات التى يرتبط مصيرها بمصير الدولة، تعكس مواقع بديلة داخل الوضع الإقليمى والعالمى. وبقدر ما يمثل التصور الجماعى للدولة هوية جماعية كلية لمكوناتها المتنوعة، فإنه هو فى حد ذاته مركب من التصورات الفردية للمقيمين والمواطنين فى الدولة. وتحدد درجة ارتباط الفرد بروح الدولة، ونظرته لنفسه كمواطن عادى، وعضو فى جماعات أغلبية أو أقلية، وعضو فى القرية العالمية، فضلا عن طريقة إدراكه لموقع الدولة كجزء من مجتمع عالمى متغير (Soysal 1996; Yuval - Davis 1997) وكلما زادت درجة التجانس الداخلى لسكان الدولة وهوياتها البديلة، كلما قل تنوع التصورات الجيوبوليتيكية. وكلما قل تجانس السكان، كلما زاد تنوع الأشكال المختلفة من الهويات المحلية والإقليمية والوطنية، وبالتالى تحديد الموقع داخل النظام العالمى. ويصبح الوضع أكثر تنوعاً مع انفتاح الحدود الاجتماعية والمكانية، ومع انتشار المعلومات من خلال النظم الفضائية والأقمار الصناعية، وتسهيل قيود السفر، ومع ارتباط سكان الشتات بسكان "أرض الوطن" ومع تزايد أعداد العمال المهاجرين الذين يصلون ويحتلون مكانهم فى النظام الاقتصادى الاجتماعى (Brunn, Jones and Purcell 1994; Morley and Robins 1995; Soysal 1996)

وبينما يمكن تحديد التصور الجيوبوليتيكى للدولة من الداخل، فإن موقعها الفعلى داخل النظم العالمية والإقليمية يتحدد أساساً من الخارج. حيث يدرك المجتمع الدولى والقوى الكبرى الإقليمية الأجزاء المكونة الأخرى للدولة حسب تصوراته الجغرافية الخاصة، ويحدد مدى استعداده لدخول دول أخرى فى الاتحادات الاقتصادية و السياسية. فالمفاهيم العامة للعالم و"الآخر" تنتج عن أجيال من التنشئة القومية التى يرى فيها المجتمع نفسه ثقافة عليا، وسببا لتحضر الآخرين، بحيث يعرف ويحدد كل

الآخرين حسب تعريفه داخل نظام هرمى عالمى. وتعتبر قوة الهوية القومية شيئًا من المسلم به، فهى مجتمع متصور، يحاول إعادة إنتاج نفسه فى مكان آخر من خلال سلسلة من الممارسات الأيديولوجية (Anderson 1983; Billig 1995) وتعتبر مفاهيم الشرق أوسطية والنزعة الإفريقية والهياكل المكانية للشرق والغرب أمثلة جيدة على كيفية دخول مفاهيم معينة للعالم – الذى تمثل فى الهوية القومية للذات نقطة انطلاقه– فى التشكيل التاريخى للتصور الجغرافى، وتكون مسئولة عن ترتيب النظام السياسى العالمى فى أية لحظة زمنية (Said 1979; Lewis and Wigen 1997) وهكذا تعتبر حدود الاشتمال والاستبعاد، وتعريف من هو "داخل" الجماعة ومن هو "غريب" عنها بمثابة مفاهيم مناسبة للدول داخل النظام العالمى، كما هى مناسبة للجماعات العرقية والاجتماعية المقيمة داخل الدولة (Newman and Passi 1998) وقد يتعارض التصور الجيوبوليتيكى لسكان دولة أو النخب السياسية مع الوضع الجيوبوليتيكى لتلك الدولة من منظور الدول الأخرى داخل النظام، مما يؤدى إلى توتر بين الدول من ناحية، ومحاولات تحقيق التقبل من ناحية أخرى. وتعتبر قوة الآخرين مهمة فى هذا المجال، حيث تقوم الدول القوية أو التجمعات الإقليمية – مثل الولايات المتحدة أو الاتحاد الأوروبى – بتحديد مدى إمكانية دخول الدول الأخرى – جزئيًا أو كليًا – إلى نواديها الجيوبوليتيكية الخاصة بها.

وتهتم الجيوبوليتيكا النقدية بالطبيعة المتغيرة للمناورات الجيوبوليتيكية وطريقة عرض ومناقشة تحديد المواقع العالمية. ويقول أجنيو وكوربريدج Agnew and Corbridge (1995) إن الهوية ومصالح الدول تتشكل من خلال التفاعل مع بعضها. ولكن هذا التفاعل ذاته ينبع من مجموعة من النظرات الواقعية لدى النخبة والقادة السياسيين المهتمين بالنظام العالمى، ومن المصالح المحلية للسكان أيضًا (Telhami 1996) وتتمثل إحدى الحجج الرئيسية فى هذا الفصل فى أنه لكى نفهم الوضع الجيوبوليتيكى لأية دولة، يجب فهم الخطاب الداخلى لهوية مواطنى تلك الدولة. وهذا اتجاه ينظر إلى الجيوبوليتيكا من أسفل، من داخل الدولة، وليس من منظور النظام العالمى.

ويوفق هذا الاتجاه بين جغرافيات النطاق السياسى، والتى تكون الدولة فى كل منها بمثابة المحور المؤسس المركزى (Cox 1998) ويسمح لنا بفهم دور الدولة فى النظام العالمى من خلال تحليل متتابع للمكونات الداخلية التى تؤلف تلك الدولة. ويتزايد تأثر السياسة المحلية بعمليات العولمة الاقتصادية والمعلوماتية، بينما يتأثر تحديد الموقع العالمى بالمصالح الداخلية والمحلية بنفس القدر (Smith 1998) وهكذا يحدث الإنتاج الاجتماعى للخطاب الجيوبوليتيكى على مستويات تكوين الهوية المحلية والإقليمية والقومية، وذلك بدرجة يستحيل معها فهم السابق بدون اللاحق. إذ إن سياسة الهوية هى التى تحدد وتنتج المعرفة الجيوبوليتيكية و مفاهيم نخبة الدولة (Morley and Robbins 1995; Dalby and ó Tuathail 1996)

ويتغير الخطاب الجيوبوليتيكي لأية دولة بمرور الزمن، لأن كلاً من الهويات الداخلية للسكان والوضع العالمى للدولة – الذى يمثل صورة من الهوية الجماعية الكلية – يمران بتغير مستمر. وهذان العاملان مرتبطان طالما أن الهويات القومية المتصورة للأفراد ستؤثر على طريقة رؤية النخبة السياسية لدور الدولة فى الشئون الإقليمية والعالمية. ومع ذلك، فإن الوضع الجيوبوليتيكى للدولة فى مواجهة بقية العالم قد يمثل فقط بعض الأجزاء المكونة للسكان، أى المجموعات الأقرب لمتخذى القرارات والنخبة السياسية. وهكذا فإن بعض الطروحات التى تقدمها جماعات الأقليات لا تنعكس فى الاهتمام الجيوبوليتيكى الواسع للدولة. ويفترض هذا أن السياسة الخارجية للدولة تعتمد جزئيًا على الأقل على تأثير المصالح المحلية، وليس على منظور حقيقى لتحليل موضوعى لدور الدولة فى النظام العالمى (Telhami 1996) وفى هذا المجال تقدم إسرائيل دراسة حالة طريفة لدولة ذات وضع جيوبوليتيكى متنوع ومرت بتغيرات عبر الزمن، ولكنها تظهر دائمًا مكونًا هامًا من المصالح المحلية: فهى دولة تكونت حديثًا أسسها المهاجرون الأوروبيون فى منطقة تسود فيها الثقافة الإسلامية، بناءً على علاقتها مع يهود الشتات فى العالم كمركب أساس للهوية الجماعية وكوسيلة للمساندة. وتعتبر أيديولوجية تكوين الدولة لدى المتمسكين بها بمثابة أيديولوجية للمقاومة الوطنية

والتحرر بعد قرون من حياة الأقلية والانتشار الجغرافى، بينما يراها خصومها فى نفس الوقت كأحد أشكال الاستعمار الذى أدى إلى اقتلاع السكان المحليين وترحيلهم نتيجة للهجرة الأوروبية. وكان الخطاب الجيوبوليتيكى الإسرائيلى التقليدى يعتمد على فكرتين متصلتين. فأولاً، إن دولة إسرائيل دولة يهودية، وبالتالى تحتفظ بخصائص ثقافية ودينية تعتبر فريدة بالنسبة للسلوك المعيارى للدولة ومواطنيها اليهود. وتسمح أيضًا بسلوك تفضيلى لأعضاء الشعب اليهودى على مستوى العالم، من حيث الهجرة والمواطنة وحقوق شراء الأراضى وبناء مستوطنات جديدة. وثانيًا، ترى إسرائيل نفسها معزولة ومحاصرة فى منطقة مليئة بالعداء ضد إسرائيل. ويتمثل التهديد الوجودى الذى يواجه الدولة ومواطنيها جزءً من التصور الجيوبوليتيكى الذى يجب أن تظل فيه الدولة قوية عسكريًا لإقناع القوى العالمية الكبرى، خاصة الولايات المتحدة، بالاستمرار فى مساندة "الديموقراطية الوحيدة" فى الشرق الأوسط. وهذا هو الخطاب التقليدى الذى أصبح محل تساؤل الآن، من خلال طريقة تعريف الدولة من الداخل لدى مواطنيها، ومن الخارج لدى أعضاء المجتمع الدولى الآخرين.

وتجد إسرائيل نفسها - فى عالم فتحت فيه الكثير من الحدود وحلت فيه بعض الصراعات العرقية والإقليمية -جزءً من نظام معلومات واقتصاد عالمى، ولكنه لا يزال حبيس دائرة من الصراع والتجزئة العرقية. وبينما تظل فكرة وجود مجتمع قومى متصور فكرة قوية، بسبب عمليات البناء الاجتماعى أساسًا (Anderson 1983; Doty 1996) ، فإن الطبيعة المتغيرة للهوية الجماعية داخل إسرائيل وبين يهود الشتات كانت تعنى أن هناك صورًا متنوعة وبديلة للوضع الجيوبوليتيكى لإسرائيل بدأت فى الظهور، وذلك فيما يتعلق بتصور المواطنة والهوية ومسألة "من هو الإسرائيلى" من ناحية، وفيما يتعلق بقضايا الموقع النسبى ومسألة "أين إسرائيل" من ناحية أخرى. وهاتان القضيتان معقدتان ويجب فهمهما فى سياق طبقات متعددة ومتداخلة، لا يوجد فيه هوية جماعية واحدة أو موقع محدد للدولة، بالرغم من تقديم نفسها على أنها دولة يهودية موحدة داخليًا. وتعتبر مسائل الزمان والمكان متشابكة، مع استجابة مسائل

الهوية الفردية والجماعية للتغيرات الاجتماعية والسياسية التى تغمر إسرائيل وتحولها إلى مجتمع غير متجانس بصورة متزايدة. وأصبحت الحدود التى تفصل المجموعة "الداخلية" عن "الآخر" غير واضحة كما كانت فى الماضى. بينما أصبحت أفكار الاشتمال والاستبعاد متعددة الأبعاد.

من هو الإسرائيلى؟ قضايا المواطنة والهوية

يمثل سؤال من وما هو الإسرائيلى سؤال هوية معقد. فعلى أبسط مستوى، الإسرائيلى هو الشخص الذى لديه مواطنة إسرائيلية، نتيجة ولادته فى الدولة أو هجرته من مكان آخر وحصوله على المواطنة. ولكن مسألة الهوية الإسرائيلية مرتبطة أيضًا بالعلاقات اليهودية العربية وحالة الأغلبية – الأقلية، بالإضافة إلى عدد من الاعتبارات الأيديولوجية والثقافية / الدينية (Yuval - Davis 1997) ويعتمد التصور الجيوبوليتيكى ووضع الدولة إلى حد بعيد على طريقة تحديد وفهم الهويات الفردية، داخليًا (لدى المقيمين بالدولة) وخارجيًا (لدى الدول الأخرى فى النظام العالمى). وتعتبر حقيقة أن عددًا متناقصًا من مواطنيها يرتبط بروح الصهيونية القومية المتشكلة اجتماعيًا شاهدًا على حقيقة أن إسرائيل أصبحت مجتمعًا أقل تجانسًا من ناحية، وحرجًا بصورة متزايدة فى بحثه عن أشكال بديلة للمعنى والهوية (Shefer 1996; Ram 1998a, 1998b) وهذا بدوره سيغير طبيعة الهوية الجماعية الجيوبوليتيكية للدولة كطرف داخل النظام العالمى.

دولة لليهود أم دولة لمواطنيها: خطاب ما بعد الصهيونية

إن إسرائيل كدولة معرفة ذاتيًا بأنها دولة (يهودية) قومية، ووطن للشعب اليهودى، ودولة ديموقراطية يتساوى فيها كل المواطنين أمام القانون، وإن لم يزد ذلك عن كونه حبرا على ورق. أما فى الواقع فقد أثبت هذا التعريف المزدوج طوال خمسين سنة أنه

ينطوى على تناقض بنيوى. إذ إن منح وضع خاص للأغلبية اليهودية وكل المهاجرين اليهود، جعل الأقلية العربية التى تمثل ٢٠٪ من المجتمع، محرومة من المشاركة الكاملة فى ثمار الديموقراطية والمساواة. ويتضح هذا من تدنى مستويات التنمية الاقتصادية الاجتماعية، والتوزيع غير العادل للموارد العامة النادرة بين العرب واليهود، ومن حقيقة أن القادة والنواب العرب لا يتمتعون بنفس القدرة على الوصول إلى أروقة السلطة مثل نظرائهم اليهود، ولم يصبح أحدهم عضواً كاملاً فى مجالس الوزراء الإسرائيلية.

ويرجع سبب وجود "الدولة"- كما يعبر عنه من خلال الصهيونية كأيديولوجية لتكوين الدولة- فى الحاجة إلى وطن يهودى قوى ومستقل. ويرتبط هذا بدوره بالمفاهيم المثالية "للعودة إلى الأرض"، وإنشاء تعاونيات ريفية قائمة على المساواة، وإحياء الحياة القومية الساكنة. وكانت رموز الدولة يهودية وصهيونية فريدة، بينما كانت أفكار ضم الأراضى والاحتكار المكانى جزءً هامًا من عملية التعليم والتنشئة الاجتماعية التى تشجعها الدولة خلال خمسين سنة من وجودها.

وهكذا يجب على المقيمين اليهود فى إسرائيل تعريف أنفسهم فى ضوء ثلاث هويات :

إسرائيلى، ويهودى، و/ أو صهيونى. ومما يجعل مشكلة الهوية هنا أكثر تعقيداً هو حقيقة أنه لا يوجد معنى وحيد لأى من هذه المكونات الثلاثة للهوية. حيث تفسر المجموعات المختلفة داخل المجتمع الإسرائيلى كل مكون بطريقة مختلفة. فبالنسبة للبعض يعنى كون المرء يهودياً الالتزام الحرفى بقوانين الشريعة اليهودية، بينما يرى البعض الآخر أن كون المرء يهودياً يعنى أحد أشكال الارتباط الثقافى الذى لا يتطلب الإيمان المطلق بالدور الإلهى أو الالتزام بالعادات والطقوس الدقيقة. وكذلك تعرف بعض الجماعات الصهيونى بأنه عضو فى نادٍ خاص اختار أن يعيش فى إسرائيل. ويلتحق بجيشها ولا يناقش القرارات السياسية التى تتخذها الدولة بشأن طبيعة الصراع العربى الإسرائيلى. ويرى البعض أن الرغبة فى الحفاظ على السيطرة على كل شبر من

الأراضى المحتلة يمثل خداعًا للتقليد الصهيونى المتمثل فى التوافق من أجل مستقبل آمن.

وحتى بين الذين يعرفون أنفسهم على أنهم صهاينة- وهم الغالبية العظمى من السكان- ظهرت هويات فرعية جديدة. وهذه تشمل هويات الأشكيناز (اليهود من أصول أوروبية) والمزراح (يهود شمال أفريقيا والشرق الأوسط)، ومشاعر التمييز الاجتماعى والاقتصادى التى يشعر بها يهود المزراح (Yiftachel 1997a,1997b) وبدأت هويات النوع والتمكين فى الظهور، بالرغم من أنها لا يعبر عنها من خلال نفس شكل التعبئة السياسية التى كان يمارسها جزئيًا كل من المزراح والجماعات اليهودية الدينية (Fogiel-Bijaoui 1997; Dahan-Kalev 1997; Fenster 1997)

ويرى الكثير من اليهود المتدينين أن الهوية اليهودية تشمل كل ذلك، بينما تعتبر الصهيونية مجرد مكون فرعى واحد من هذه الهوية الثقافية/ الدينية، فى حين يعنى الإسرائيلى توافق المكان والزمان. وبالنسبة للجماعات الدينية المتشددة، فإن مجرد فكرة دولة يهودية أصولية ليست خاضعة لحكومة دينية تعتبر غير مقبولة، مما يؤدى إلى الرفض الكامل للصهيونية كأيديولوجية لتكوين الدولة المناسبة للشعب اليهودى. وهناك مجموعات دينية أخرى- خاصة مستوطنى الضفة الغربية- تبنت موقفًا صهيونيًا جديدًا يركز على أيديولوجية تعتبر تحرير الأرض قيمة عظمى. ولذلك يتمثل اللغز هنا فى أن بعض الجماعات الدينية تعتبر الصهيونية مقدسة، بينما تعتبرها جماعات أخرى تجديفًا وتدنيسًا. أى أن التفسيرات الذاتية لكل منها للتاريخ والثقافة المشتركة وطريقة ربطها بالأهمية المعاصرة تختلف فيما بينها.

وبالنسبة لبعض الإسرائيليين العلمانيين، الذين يمثلون غالبية المقيمين بالمجتمع، تمثل الصهيونية محاولة لخلق وتشكيل الهوية اليهودية الجديدة، والتى لا ترتبط بتقاليد الماضى، ولكنها تمثل جزءً لا يتجزأ من العالم الحديث المتحرر. ولكنهم فى نفس الوقت يواجهون معضلة هويتهم الخاصة بهم عندما يرفضون الارتباط التاريخى والدينى من

ناحية، مع عدم الاستعداد لتقبل الصيغة البديلة لكونهم مجرد مثال آخر من المستعمرين الأوروبيين الذين يستوطنون فى موقع بعيد ويتسببون فى الترحيل الجزئى للسكان الأصليين. وهكذا فإن بحثهم عن الهوية يرتبط بالبحث عن منطق يبرر وجودهم فى هذه المنطقة (نيومان تحت الطبع).

وتتداخل هذه الأشكال المتنوعة للهوية المتعددة بينما يقضى الإسرائيلى كثيراً من وقته محاولاً الوصول إلى تحديد هويته. فعلاقتهم مع العالم الأوسع ووضعهم الجيوبوليتيكى هو فى حد ذاته نتيجة للعبة الهوية هذه. إذ يرى البعض أن الهوية الفريدة لإسرائيل تعمد على بقائها مختلفة ومعزولة عن كل الدول الأخرى، بينما يرى البعض أن الوضع العادى للدولة فى النظام العالمى لا يتحقق إلا بأن تصبح جزءً من ذلك النظام. وهكذا ترتبط الهويتان اليهودية والصهيونية بالصراع بين الخصائص العامة والخاصة لكل منهما، مما يعكس وجود أشكال متنوعة من المواطنة من ناحية، والتصور الجيوبوليتيكى من ناحية أخرى.

وتتكاثر هويات الأقليات التى لا تتوافق مع الروح الصهيونية المتجسدة فى دولة واحدة داخل إسرائيل (Peled 1992; Kook 1996; Yiftachel 1997a, 1997b) وهذه الأقليات تتراوح من المقيمين العرب الفلسطينيين الذى يشكلون حوالى ٢٠٪ من سكان الدولة، والجماعات الدينية المتشددة التى لا تعترف بشرعية دولة صهيونية علمانية، والهويات غير اليهودية، خاصة بين مئات الآلاف من المهاجرين الروس الذين وصلوا إلى إسرائيل خلال الجزء الأول من التسعينات، وحوالى ربع مليون عامل مهاجر - من أماكن بعيدة مثل الفلبين ورومانيا وأفريقيا - جاءوا مؤخراً لشغل العديد من الوظائف البسيطة التى كان يعمل فيها السكان الفلسطينيون من الضفة الغربية وقطاع غزة (Peled 1992) حيث بدأت هذه المجموعات فى تكوين نويات تجمعات صغيرة ولكنها نشطة فى جنوب تل أبيب، مما قد يشير إلى نمو أحياء مغلقة محاصرة عرقيا مستقبلاً فى هذه المدينة، وهذا العنصر لم يكن معروفاً من قبل فى المشهد الحضرى الإسرائيلى.

وتصل أهمية هذه الهويات متعددة الطبقات للتصور الجيوبوليتيكى إلى أن بعض هذه الجماعات تربط نفسها أولاً وأخيراً بالدولة، بينما تربط جماعات أخرى نفسها بتجمعات بعيدة عن الدولة. حيث يدعى الخطاب ما بعد الصهيونى - الذى ظهر فى السنوات الأخيرة - أنه حتى تعمل الدولة فى ظروف عادية، يجب عليها أولاً أن تمر بعملية إعادة تعريف، بحيث تتحول من دولة تضع دورها كدولة يهودية بمثابة الشكل الرئيسى لهويتها، وبالتالى تستبعد مجموعات كبيرة من المقيمين من "سبب وجودها" الوحيد هنا، إلى دولة أخرى، بأنها دولة لجميع مواطنيها (Cohen 1989; Peled and Shafir 1996; Ram 1998a,1998b; Silberstein 1999) إذ يقال إن الشكل الأخير فقط هو الذى يمكن أن يصبح ديموقراطية تشاركية. أما بالنسبة للنخبة السياسية، فإن هذا يعتبر نفياً لعملية تكوين الدولة، ويعتبر مناهضاً للصهيونية فى توجهها، ولا يعتبر ما بعد -post الصهيونية. فمثل هذا التحول سيؤدى بالضرورة إلى تغيير التوجهات الجيوبوليتيكية من جانب النخبة السياسية.

ويتمثل أحد ألغاز تاريخ إسرائيل الحديث فى حقيقة أن الحكومة اليمينية التى وصلت للسلطة فى ١٩٩٦، مثل كل الحكومات اليمينية فى العالم، والتى تعتبر نفسها أكثر ولاءً لمفاهيم القومية الوطنية، هى الأقرب إلى حكومة ما بعد الصهيونية طوال خمسين سنة من تاريخ "الدولة". فهى تعتمد على تأييد المتدينين المتشددين المناصرين (أو المناهضين) للصهيونية، وعلى الأحزاب الصهيونية اليمينية الجديدة. وبينما كانت حكومة نتنياهو غير مستعدة لاختيار سياسيين من الأحزاب العربية (مثل حكومة العمل السابقة أيضاً) حتى خروجها من السلطة فى ١٩٩٩ كان بها ممثلون أكثر من الأحزاب التى لم تقبل روح الدولة المشكلة اجتماعياً للصهيونية العلمانية.

وتؤدى فكرة أن إسرائيل دولة لكل مواطنيها، وليس دولة صهيونية، إلى إعادة تعريف أساس الصراع العربى الإسرائيلى. إذ توضح المسوح العامة باستمرار أن الحل الأقل قبولاً للصراع لدى العرب واليهود يتمثل فى كيان ديموقراطى واحد ثنائى

القومية. ونظراً لأن التطلع للدولة يعرف من خلال السيادة القومية، يفضل كل من العرب واليهود إنشاء دولتين قوميتين مستقلتين، وليس دولة واحدة ثنائية أو متعددة القومية. إذ إن نظرة كل مجموعة قومية "للآخر" على أنه يمثل التهديد الأساسى لوجودها "الذاتى" يمثل جوهر المخاوف الأمنية التى تطرحها النخب السياسية. والتى تمكن من خلق ملامح الوحدة الوطنية المتشكلة اجتماعيًا، والذى يمثل الحد الأدنى للهوية الجماعية، أى الخوف من الأغراب (الأغيار). ونظراً لأن الأغيار يمثلون تهديداً، يترتب على ذلك أنه لا يستطيع التمتع بالمساواة، لأنه لا يمكن الثقة فيه. ولذلك يتمثل الحل فى إنشاء دولتين منفصلتين متجانستين عرقيًا، حيث تتحدد المواطنة فيهما بالهوية القومية، أو استمرار الوضع الذى تسيطر فيه مجموعة قومية واحدة عسكريًا واقتصاديًا على المجموعة الأخرى، وهذا لا يعبر عن المواطنة "الحقيقية" من خلال الحقوق المتساوية لكل المجموعات. وبينما يهدف إعادة تعريف الدولة فى ضوء كل مواطنيها إلى خلق نوع غير أيديولوجى وغير استبعادى لارتباط المواطنين بدولتهم، فإنه يهدف أيضًا إلى تقديم وسيلة تساعد على حل الصراع الإسرائيلى الفلسطينى داخل الإطار الإقليمى القائم ككيان ثنائى القومية. ومع ذلك، نجد أن هذا الحل مرفوض لدى الغالبية العظمى من الإسرائيليين والفلسطينيين على السواء، فكل منهما يفضل وجود كيان قومى مستقل.

الأمن كهوية قومية

لقد كان الحوار الجيوبوليتيكى فى إسرائيل طوال الخمسين سنة الماضية يدور حول أفكار الأمن والأمان الجماعى. وبالتركيز على التهديد الوجودى - الحقيقى أو الوهمى - الذى يواجه إسرائيل من الجيران العدوانيين، استخدم هذا الخطاب الداخلى كوسيلة لخلق إجماع قومى وفى تنشئة أجيال من الشباب الإسرائيلى المستعد للحرب - بل وتقديم روحه - للدفاع عن الوطن. ومع النمو فى التنوع الداخلى والاستقطاب الأيديولوجى داخل المجتمع الإسرائيلى اليهودى، أصبح الصراع الإسرائيلى الفلسطينى والتهديد الأمنى يمثل الشئ الوحيد الذى يجمع هذه الشرائح المختلفة معًا (Shain 1997)

وكانت فكرة أن إسرائيل تمثل الملاذ الآمن الوحيد من محرقة ثانية، وأن كل مواطنيها (اليهود) يجب أن يظهروا ولاءً مطلقًا لصراع الدولة من أجل البقاء في مواجهة منطقة معادية، فكرة جوهرية في عمليات التنشئة في الدولة خلال الخمسين سنة الماضية. وهناك موضوعان كبيران في هذا الخطاب. حيث يتمثل الأول في أن المحرقة وتذكرها يوضحان ما حدث، وما يمكن أن يحدث ثانية، عندما كان الشعب اليهودي بلا دولة وغير قادر على الدفاع عن نفسه. ويتمثل الأمر الثاني في الحاجة إلى دولة يهودية مستقلة تتمتع بردع عسكري قوي لضمان عدم حدوث مثل ذلك الحدث "أبدًا". وأصبحت زيارات الآلاف من أطفال المدارس الإسرائيليين إلى مواقع الفظائع النازية في أوروبا الشرقية، برعاية وزارة التعليم الإسرائيلية، بمصاحبة رفع العلم الإسرائيلي وظهور رموز قومية إضافية، وسيلة قوية لنقل هذه الرسالة المزدوجة. وفي حالات عديدة أصبح هذا أقوى عامل يربط الطفل بمصير الدولة ويفرض عليه الإحساس بالحاجة إلى الدفاع عن الدولة ضد كل التهديدات الخارجية، الحقيقية أو المتصورة.

وعادة ما كانت إسرائيل تعتبر نفسها طرفًا وحيدًا ومعزولاً على المسرح العالمي. ومن حيث الخطاب التاريخي، يرجع ذلك جزئيًا إلى التجارب المريرة لمجتمعات يهود "الشتات" عبر القرون، والتي وصلت إلى ذروتها في فظائع الهولوكوست خلال الحرب العالمية الثانية. وتطور هذا المفهوم أيضًا كجزء من حقيقة الدولة، فخلال هذه الفترة خاضت الدولة خمسة حروب كبرى، كان معظمها يعتبر حروبًا دفاعية ضد عدوان خارجي، وهي التي ضمنت استمرار وجود الدولة في إقليم عدواني. وكذلك ترى إسرائيل نفسها معزولة داخل المحفل الدولي الرئيسي - الأمم المتحدة - حيث يدين تصويت تلو الآخر إسرائيل لاستمرار احتلالها للضفة الغربية والمنطقة الأمنية التي كانت تحتلها في جنوب لبنان. وأدى التصويت على "مساواة الصهيونية بالعنصرية" الذي صدر في منتصف السبعينات، والذي ألغي بعد ذلك في أوائل التسعينات، إلى زيادة الشعور بالعزلة، بالرغم من حقيقة أن إسرائيل تستمد حقها القانوني الرئيسي

فى السيادة من قرار الأمم المتحدة للتقسيم فى نوفمبر ١٩٤٧ . ويتلخص السياق الفلسفى الرئيسى خلف هذا النوع من العزلة الجيوبوليتيكية فى كتاب الدبلوماسى الإسرائيلى السابق جاكوب هيرتسوج، بعنوان "شاهد شعبًا يعيش وحيدًا"، وهذا العنوان مأخوذ من وصف النبى "بلعام" للشعب اليهودى فى الكتاب

المقدس (Herzog 1975) وتتلخص المظاهر السياسية المعاصرة لهذا الخطاب فى مؤلف كتبه أخو هيرتسوج، الذى أصبح الرئيس السادس لدولة إسرائيل، حاييم هيرتسوج. فعندما كان سفيرًا فى الأمم المتحدة وقت التصويت على "مساواة الصهيونية بالعنصرية" قام علانية بتمزيق الورقة التى طبع عليها القرار، مما يظهر ازدراءه لمجتمع دولى لم يعترف بخصائص "النبالة" و"تكوين الدولة" للصهيونية، بالمقارنة بالخصائص "الاستعمارية" والاستغلالية التى ركز عليها منتقدوها (Herzog 1978)

وتتمثل المضامين السياسية لهذه العزلة المدركة ذاتيًا فى أن الدولة لا تستطيع الاعتماد إلا على نفسها، من خلال وضع عسكرى قوى، وأنه يجب الحفاظ على سياستها الخارجية مستقلة بدون تدخل خارجى (حتى من الولايات المتحدة) فى صنع قراراتها الأمنية. وأصبح الدفاع عن الوطن ضد كل الغرباء بمثابة الشكل النهائى للبطولة، وأصبحت التضحية النهائية تتمثل فى الرغبة فى الموت دفاعًا عن الدولة، وهى الظاهرة التى أصبحت تعرف باسم "عقدة الماسادا"، حسب الانتحار "البطولى" للمحاربين فى قلعة ماسادا فى مواجهة محاولات الرومان لإخماد عصيانهم فى القرن الأول الميلادى. وغالبًا ما يؤخذ الجنود الإسرائيليون الصغار إلى قمة تل ماسادا المطل على البحر الميت لأداء طقوس القسم، حيث يعلنون فى تناغم "ماسادا لن تسقط ثانية" (Zerubavel 1996) ويأتى اليهود من أنحاء العالم إلى هذا المكان لإحياء المناسبات العائلية، خاصة طقس "بار- متزفاه"، بسبب ارتباطه بالبطولة اليهودية، وبالتالى المسئولية الملقاة على عاتق الشباب لإحياء هذه المشاعر للدفاع عن شعبهم ودولتهم.

وفى التـاريخ الإسـرائيلى المعـاصـر، يتسـاوى هذا مع الإعـلان الأسطورى عن جندى عبقرى يهودى، جوزيف ترومبلدور، الذى قتل أثناء الدفاع عن قاعدة مستوطنة جديدة، تل أبيب، فى العشرينات. بينما كان مستلقيًا يموت، اشتهر بأنه صاح "من الجميل أن أموت من أجل بلدى"، حيث أصبح هذا الشعار يستخدم مع شعار ماسادا للتركيز على الشجاعة والبطولة العسكرية، وذلك غالبًا ما يكون على حساب الرسائل الاجتماعية والثقافية والأخلاقية الأخرى.

ويتجسد التعبير عن الولاء للهدف المشترك من خلال دور الجيش، أو كما هو معروف "قوات الدفاع" التى كانت تعتبر عادة العامل الشامل والموحد داخل المجتمع الإسرائيلى (Popper 1998) وتعتبر فكرة أنه كانت هناك حروب خاضتها إسرائيل خلال خمسين سنة من تاريخها ولم تكن مفروضة على الدولة كعمل من أعمال الدفاع عن الذات، موضوع جدل ساخن. فبينما تعتبر "حرب الاستقلال" فى ١٩٤٨، و"حرب الأيام الستة" فى ١٩٦٧، "وحرب يوم الغفران" فى ١٩٧٣، بمثابة أعمال مشروعة للدفاع عن النفس، لا ينطبق نفس الوضع على اجتياح لبنان فى ١٩٨٢، ولا على استمرار احتلال الصفة الغربية طوال الثمانينات والتسعينات. وأصبح الجيش نفسه أكثر تسيبًا بمرور الوقت، بالرغم من أنه لا يزال يمثل مؤسسة الإجماع الكبرى. والشباب الذين ينهون خدمتهم العسكرية كانوا عادة يتمتعون بالحق فى العديد من المزايا المالية، كالحصول على أفضل صكوك الرهن العقارى، مقارنة بمن لم يلتحقوا بالخدمة.

وتساعد هذه السياسات على استبعاد المواطنين العرب وغيرهم فى البلاد، ومعظمهم لا يلتحق بالجيش، ولا تطلب منهم الدولة القيام بذلك خشية من تدفق هذه المجموعة الكبيرة من الناس المشكوك فى ولائهم الأساسى للدولة.

وقد أدت أحداث العقد الماضى، خاصة الانتفاضة الفلسطينية، وحرب الخليج فى ١٩٩١ التى أتت بالصواريخ العراقية إلى قلب المدن الإسرائيلية، ومحاولات حل الصراع مع مصر والأردن والفلسطينيين على التوالى، إلى زيادة قوة هذا الخطاب

الأمنى التقليدى (Newman 1997, 1998a) حيث استخدم كل حدث منها كجزء من رسالة ذات صياغة اجتماعية لإظهار أن إسرائيل مهددة ويجب أن تتخذ إجراءات للدفاع عن نفسها، وتم توجيه هذه الرسالة سواء للمواطنين الإسرائيليين فى الداخل أو المجتمع الدولى أيضاً (Falah and Newman 1995; Bar-Tal, Jacobson and Klieman 1998)

ويتمثل اللغز الأساسى فى هذا الإحساس المستمر بالهوية الأمنية فى حقيقة أن إسرائيل تستعرض تفوقها وقوتها العسكرية الواضحة، بينما تركز فى نفس الوقت على التهديد الأمنى كجزء من الخطاب القومى الهادف إلى تبرير الأعمال والسياسات التى لا يساندها المجتمع الدولى عادة. وهكذا تفسر القوة العسكرية الإسرائيلية، واستمرار احتلالها لمعظم الضفة الغربية ومرتفعات الجولان والمنطقة الأمنية فى جنوب لبنان، ومطالباتها بالمساعدات الدولية، على أنها نتيجة لضعفها البنيوى، وليس أساساً لدولة قوية، كما يفهمها معظم العالم. فلكى تكون قوياً يجب أن تصور نفسك ضعيفاً داخلياً وخارجياً. فعندما تعرض الدولة نفسها على أنها مهددة ومعزولة، فإنها تستطيع تكوين رادع عسكرى قوى بمساعدة مباشرة من معظم السكان الذين يرتبطون بالحاجة إلى الدفاع الجماعى ضد التهديد المحتمل. وتعنى حقيقة أن التهديد المدرك يعتمد على الحقيقة الموضوعية للحروب منذ نشأة الدولة فى ١٩٤٨ أن التفسير الذاتى لهذا الموقع يعنى أن الدولة ستظل تواجه تهديداً لوجودها إلى الأبد. وبالرغم من حقيقة أن التهديد الذى يواجه المجموع يختلف عن التهديد الذى يواجه الفرد فى حالة الهجوم الإرهابى، إلا أن ذلك لم يعد موجوداً بعد حرب الأيام الستة فى ١٩٦٧، وخاصة بعد تطبيق اتفاقيات السلام الإسرائيلية المصرية فى أوائل الثمانينات. وبالرغم من أن صواريخ سكود فى ١٩٩٠، والتفجير الإرهابى للمراكز المدنية داخل إسرائيل، لم تستبعد التهديد تماماً، إلا أنها لا تمثل نوع التهديد الذى يمكن أن يزيل الدولة من الوجود. ولكنها تساعد على تذكير الشعب الإسرائيلى ببيئة التهديد التى يعيش فيها، مما يجعله يشك فى أية تحركات نحو عملية سلام يمكن، أو لا يمكن، أن تضع حداً لمناخ العنف المستمر. وهكذا يرتبط الكثير من الخطاب اليومى بالصراع والتهديد والأمن، والذى لا

يمكن أن يتفق لدى معظم الإسرائيليين مع مفهوم إسرائيل ما بعد الصراع، حيث تبتعد الأجندة الاجتماعية والسياسية الرئيسية عن قضايا الدفاع والأمن، وتحول اهتمامها إلى المشاكل الاقتصادية والثقافية والرفاهية الملحة التى تواجه المجتمع من الداخل.

ومن ناحية السياق، فقد تعرضت الحكومة الإسرائيلية لضغوط قوية من الداخل فى ١٩٩١، للرد على الصواريخ العراقية التى أطلقت على قلب المراكز الحضرية الإسرائيلية، وليس الإذعان للولايات المتحدة بعدم اتخاذ أى إجراء. وكان ذلك يعتبر بمثابة قضية أيديولوجية، كما أنها كانت قضية عسكرية بحتة. فمن ناحية، ظهر أن إسرائيل تنحنى للضغط الخارجى ولا تتخذ قراراتها المستقلة فيما يتعلق بأولويات دفاعها. وكذلك، يرى كثيرون أن الدولة اعترفت بضعفها للعالم الخارجى، بمعنى أنها هوجمت بالصواريخ ولم تكن قادرة على الرد، ربما لخوفها من عدم النجاح فى مهمتها. ولكن عندما تجدد التوتر بين الولايات المتحدة والعراق لفترة قصيرة فى أوائل ١٩٩٨ حول قضية مفتشى أسلحة الأمم المتحدة، كان هناك شعور قوى داخل إسرائيل بأنه إذا أطلقت العراق صواريخها عليها ثانية، يجب على الحكومة ألا تتردد فى الرد، ولو كان ذلك لإثبات أن الدولة كانت قادرة على اتخاذ قراراتها الخاصة، وأنها كانت قادرة على شن الهجوم، سواء كان مثل هذا الهجوم سيخدم الأهداف الأمنية طويلة الأجل للدولة أم لا.

وتلعب كل من الجغرافيا والديموجرافيا دورًا فى التركيب الاجتماعى للخطاب الأمنى. حيث يعتبر الحجم الصغير للدولة، مقارنة ببقية دول الشرق الأوسط، مكونًا جغرافيًا إقليميًا هامًا فى هذا الخطاب. إذ تستخدم فكرة إسرائيل الصغيرة من حيث الأرض والسكان كوسيلة لتقديم صورة الأمة المعزولة المحاصرة. وللأغراض الدعائية، غالبًا ما توضع خريطة إسرائيل على أى من ولايات أو مقاطعات أمريكا الشمالية للتركيز على هذه الرسالة (Newman 1997, 1998a) وداخليًا أيضًا، كانت الأبعاد المكانية

للمساحة الصغيرة ووجود سكان عدوانيين فى مناطق مرتفعة، تشرف على المدن الإسرائيلية والمراكز السكانية، وسيلة هامة أخرى لاستخدام خطاب الخوف والتهديد فى محاولة لصنع هوية موحدة قومية فريدة حول فكرة الأمن.

ومن الناحية السكانية، تصور إسرائيل والشعب اليهودى على أنهم أمة صغيرة محاطة بالسكان العرب العدوانيين الذين يحققون معدلات نمو سكانى طبيعى سريعة. ففى إسرائيل و"المناطق المحتلة"، يصل معدل اليهود إلى العرب حوالى ٦٥: ٣٥، ويتغير إلى ٨١: ١٩ داخل حدود دولة إسرائيل ما قبل ١٩٦٧, وكان عدم ضم إسرائيل للضفة الغربية وقطاع غزة قبل اتفاقيات أوسلو يفسر عادة بأنه يرجع إلى مضامين منح المواطنة الكاملة للسكان الفلسطينيين فى هذه المناطق، مما يهدد الأغلبية اليهودية فى الدولة اليهودية فى الأجل الطويل. وحتى داخل حدود ما قبل١٩٦٧، فإن المعدلات السكانية تلعب دورًا هامًا فى الخطاب الأمنى، مع تشجيع الهجرة اليهودية إلى البلاد ومنح مزايا إضافية لكل الأسر التى لديها أربعة أطفال أو أكثر (Newman 1998b)

وكذلك تلعب قضية جيوبوليتيكا المياه دورًا هامًا فى الخطاب الأمنى. حيث ينظر للمياه بمنظور سياسى، نظرًا لأنها مورد وجودى أساسى، ولكنها تتناقص باستمرار (Kliot 1994; Shapland 1997) وتعتبر أية محاولة تقوم بها دولة مجاورة للتأثير من جانب واحد على كمية المياه فى إسرائيل سببًا مشروعًا للحرب تلقائيًا. حيث اندلعت احتكاكات سابقة بين إسرائيل وسوريا حول قضايا تحويل المياه، بينما كان احتياج إسرائيل للمياه فى أوائل الثمانينات يفسر - خطأ كما اتضح - لدى البعض بأنه كان يهدف إلى السيطرة على بعض مياه نهر الليطانى. وتركز مفاوضات إسرائيل مع كل من سوريا والفلسطينيين بشدة على القضايا المتعلقة بالسيطرة على موارد المياه، مع عدم استعداد أى من الطرفين للتنازل عن السيطرة النهائية على هذه الموارد للطرف "الآخر"(Elmusa 1994; Shuval 1996)، بينما كان حوالى نصف اتفاقية السلام الإسرائيلية الأردنية يتناول قضايا تتعلق بالتعاون فى البحث عن هذا المورد الهام واستغلاله.

ومن المحير أن تطبيق عملية السلام أدى إلى نقصان، وليس زيادة، الإحساس بالأمن. إذ أدت حقيقة أن التفجيرات الانتحارية حدثت بعد التنفيذ المبدئى لاتفاقيات أوسلو إلى زيادة المخاوف من أن الهدف النهائى للطرف "الآخر" هو تدمير دولة إسرائيل، وأن الانسحاب من أجزاء من الضفة الغربية كجزء من اتفاقيات السلام ساعد على وجود قاعدة أقوى تنطلق منها هذه التهديدات، كما يشهد على ذلك استمرار الهجمات. ويرى منتقدو عملية السلام أن نقل بعض المناطق إلى الحكم الذاتى الفلسطينى، بالرغم من أنه جزئى ,يوفر قاعدة أرضية لاستمرار الهجوم على إسرائيل، وليس أساسًا للفصل الأرضى والعرقى الذى يمكن أن يحقق السلام والاستقرار الإقليميين. وكان هذا التهديد الأمنى المستمر هو ما تستخدمه باستمرار إدارة نيتانياهو بعد ١٩٩٦ فى محاولتها لإبطاء عملية السلام لتحجيم النقل المستمر للأراضى إلى السلطة الفلسطينية.

ويصعب على الشعب الإسرائيلى تقبل خطابات بديلة لخطابات الصراع المستمر. لأنه يستسهل فهم مفاهيم مثل "المعزول" و"المحاصر" و"المهدد" والذى "يقف بمفرده فى وجه عالم عدوانى يعادى السامية". وذلك لأن فكرة أن السلام حقيقة موضوعية واقعية، وليست مجرد نوع من التطلعات المستحيلة، تجعل من الصعب التوافق مع محاولات الحكومة التحرك نحو حل عادل للصراع. وفى نفس الوقت، أدت حالة الحرب العبثية المستمرة واحتلال شعب آخر فى تبديد الإجماع الوحيد الباقى، ألا وهو الجيش. فخلال العقد الأخير، كانت هناك أمثلة على جنود يرفضون إطاعة الأوامر، بينما انخفضت نسبة الشباب الإسرائيلى الذى يؤدى الخدمة العسكرية الإجبارية (Linn1994; Hel-man1998)

ولم تعد الروح الاجتماعية للخدمة العسكرية المفتاح الوحيد للدخول إلى المجتمع الإسرائيلى، وبينما يستمر الجيش فى احتلال مكان مرموق فى الحياة اليومية، إلا أنه لم يعد يشكل الإطار الوحيد الذى يلتف حوله الشعب الإسرائيلى تلقائيًا ويمنحه الولاء

المطلق (Shain 1997) ويعتبر قرار مغنى الروك الشاب، أبيب جيفن، رفض أداء الخدمة العسكرية بدون سبب سوى عدم التوافق الذاتى، وحقيقة أنه بالرغم من هذا السلوك "غير البطولى" - قد دعى للظهور مع رئيس الوزراء السابق رابين - أحد أبطال إسرائيل العسكريين - إلى سباق السلام الجماهيرى الذى تم قبل اغتيال رابين بدقائق فقط، فهذا أيضًا يعطى مصداقية لفكرة أن دور الجيش فى المجتمع الإسرائيلى بدأ يتغير. وهكذا فإنه طالما كانت مفاهيم وتصورات الأمن جوهرية فى هذا الصراع، فإنها تلعب أيضًا دورًا هامًا فى تكوين الكيانات القومية المستقلة. ويتعارض هذا مع أفكار عدم التجانس التى ناقشناها سلفًا. فالتركيز على الصراع والتهديد الوجودى الذى يواجه المجتمع القومى غطى كثيرًا من عدم التجانس الداخلى الكامن داخل المجتمع. وتظل الهوية القومية فريدة وخاصة، بينما هويات الأعراق والمجموعات أكثر تنوعًا، ويمكن أن تخترق حدود الجماعة القومية إلى حد معين، وإن كان ذلك نادرًا. ويؤدى التركيز على الهوية القومية بدوره إلى أنواع معينة من التصور الجيوبوليتيكى، تركز على إسرائيل المعزولة ووضعها الفريد فى النظام العالمى، فى حين أن التركيز على التباين بين المجموعات وتجزئة روح الدولة الصهيونية الواحدة سيطرح حتمًا تصورات جيوبوليتيكية بديلة وأكثر تنوعًا.

أين تقع إسرائيل

ليس لدى إسرائيل تصور جيوبوليتيكى وحيد. فهى تقع فى عدد من المواقع المتعددة فى نفس الوقت، وليست كلها متجاورة جغرافيًا. ولذلك يمثل الخطاب السياسى الداخلى والخارجى نوعا من الشيزوفرينيا الجيوبوليتيكية، إن لم يكن الانفصام الرباعى، لأن هذه الدولة الصغيرة نسبيًا تحاول أن تجمع هوياتها العالمية والقومية والإقليمية المتناقضة معًا. فهناك خمس تصورات جيوبوليتيكية مختلفة سنناقشها هنا، وكلها تناسب المجموعات المختلفة داخل إسرائيل، وهى ناتجة جزئيًا عن مدى التعبير

عن الهويات الفردية للمجموعات السكانية المتنوعة فى ضوء علاقة ومكانة الدولة فى مواجهة الدول المجاورة، والمنطقة ككل، والنظام العالمى. وهذه التصورات الجيوبوليتيكية الخمسة هى: الشرق الأوسط، أوروبا، يهود الشتات، الولايات المتحدة، وأخيراً قلب العالم. وهذه المواقع ليست منفصلة عن بعضها. ولكنها تتداخل لدرجة أن بعض الجماعات تعتبر نفسها جزءً من أكثر من موقع جغرافى، بالرغم من وجود اتجاه لتقديم مواقع جغرافية على غيرها من حيث الأولوية.

فى الشرق الأوسط؟

من الناحية الجغرافية، تقع إسرائيل على الحدود الغربية للشرق الأوسط. وقد لا يكون مدهشًا أن المركز التاريخى لاثنتين من ديانات التوحيد فى العالم (المسيحية واليهودية) وموقعا مهما فى ذات الوقت لدين ثالث (الإسلام) يجب أن يقع عند ملتقى أوروبا وآسيا وأفريقيا. فأيديولوجية بناء الدولة الإسرائيلية – الصهيونية – تركز على "العودة" إلى أرض الشعب اليهودى القديمة، وليس بالضرورة "العودة" إلى الثقافة الإقليمية التى تميز ذلك الموقع المحدد. إذ كانت الصهيونية السياسية أيديولوجية قومية، نشأت فى وسط وشرق أوروبا، ونفذها مهاجرون ومستوطنون من أوروبا. وقد تكون الرغبة فى أن يكونوا جزءً من الشرق الأوسط صحيحة سياسيًا، كما يعلن قادة الدولة غالبًا، ولكنها لا تتفق بالضرورة مع الأصول الثقافية أو تطلعات النخب السياسية.

لقد كانت إسرائيل دولة متأرجحة دائمًا بالنسبة إلى وضعها فى المنطقة الأوسع. فمن ناحية، كانت الرغبة فى تحقيق تقبلها كحقيقة سياسية واعتراف جيرانها بها، تحتل قمة الأولويات فى معظم فكر السياسة الخارجية فى إسرائيل(Susser1997) ويرى قادة إسرائيل أنه من الصواب سياسيًا أن يعبروا عن آمالهم فى أن دولتهم ستكون يومًا ما مندمجة حقيقة فى محيطها الجغرافى. وفى نفس الوقت، كانت النخب السياسية والاقتصادية تعتبر نفسها دائمًا جزءً من العالم الغربى، حيث تتمتع باقتصاد

مرتفع التقنية لمرحلة ما بعد التقدم الصناعى، وبقوة عمل عالية التعليم والتدريب. فقد أثبتت أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية أنها أكثر جاذبية ثقافيًا واقتصاديًا للشعب الإسرائيلى، مقارنة بالشرق الأوسط.

وكان التصور الإقليمى الذى ظهر فى فترة ما بعد أوسلو يتمثل فى "الشرق الأوسط الجديد". وبناءً على عمليات العولمة وتوسع الاقتصاد الإقليمى، وصف رئيس الوزراء الإسرائيلى السابق، شيمون بيريز، النظام الإقليمى الجديد الذى كان على وشك الظهور فى تصوره، معتبرا أن هذا النظام سيؤدى إلى تقبل واندماج إسرائيل فى المنطقة الجغرافية التى تقع فيها (Peres 1994) ولكن قبل هذه الفترة كانت إسرائيل غير قادرة على القيام بأى دور فى المنطقة بسبب معارضة العرب لوجودها. ولذلك تعتمد رؤية بيريز على العوائد الاقتصادية التى ستتحقق من السلام والتكامل الإقليمى، وذلك مثل معظم الخطاب الذى يحيط بنظريات الدولة القومية "واختفاء الحدود"، والذى يمثل جزءً من خطاب ما بعد الحداثة، ولكنه يركز على التكامل الاقتصادى فى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، بدون الإشارة إلى العقبات العرقية والثقافية الحقيقية التى تعترض التكامل الإقليمى الكامل، خاصة فى تلك المناطق (مثل الشرق الأوسط) التى تواصل فيها الهويات العرقية والمكانية والصراعات لعب دور كبير فى الحياة اليومية.

ويتمثل دور إسرائيل الرئيسى فى المنطقة فى مجال الاقتصاد. فنظراً لمكانتها الخاصة مع كل من المجتمع الأوروبى والولايات المتحدة، باعتبارها الدولة الوحيدة على سطح الأرض التى تتمتع بمكانة تفضيلية مع هاتين القوتين الاقتصاديتين الغربيتين، تجد إسرائيل نفسها فى وضع فريد. وتعتبر دول عديدة فى آسيا وأفريقيا إسرائيل دولة بوسعها ان تصبح عنصرا مؤثرا فى التكتلات التجارية الكبرى فى العالم، وفى بعض الحالات تلجأ إلى قادة إسرائيل للدفاع عن قضاياها أمام النخبة السياسية الأمريكية. ويدرك رجال الأعمال الإسرائيليون الإمكانات الاقتصادية الهائلة التى تمتلكها إسرائيل فى صفقات المستقبل مع العالم العربى، إذا تحقق السلام الحقيقى.

وفى نفس الوقت، فإن المكاسب الاقتصادية التى يمكن أن تتحقق لمجتمع الأعمال الإسرائيلى من اندماجه الكامل فى المنطقة، لا تلقى بالضرورة ترحيبًا من كل الدول العربية. حيث يراها الكثيرون نوعا من الاستعمار الجديد، الذى تستطيع من خلاله إسرائيل فرض مزاياها الاقتصادية على المنطقة، وتحقيق ما لم تستطع تحقيقه خلال أربعين عامًا من الصراع. وهكذا فإنه طالما كانت تصورات إسرائيل لدورها فى المنطقة متأرجحة، سينطبق نفس الشىء على تصورات الدول المجاورة فيما يتعلق برغبتها – حتى فى ظل ظروف حل الصراع – فى مشاركة إسرائيل فى الأنشطة الثقافية والاقتصادية للمنطقة بالكامل.

ويجب النظر إلى مدى اعتبار إسرائيل نفسها جزءً من الشرق الأوسط أو كامتداد لأوروبا نحو الشرق (انظر المناقشة التالية) فى سباق المعركة على السيطرة داخل إسرائيل بين السكان اليهود الأشكيناز (الأوروبيين) والمزراح (الآسيويين والأفارقة). حيث أصبحت سيطرة النخبة الأوروبية الأشكينازية موضع تساؤل مع تزايد قوة السكان المزراح. وتشير حقيقة أن أكثر من نصف السكان اليهود بالبلاد أتوا من شمال أفريقيا وأصول شرقية – المزراح – إلى أن هناك رغبة فى المزيد من الاندماج الكامل فى الشرق الأوسط. ومع وصول أعداد متزايدة من ممثلى هذه المجموعات إلى السلطة، خاصة مع ظهور أحزاب سياسية عرقية قومية فى السنوات الأخيرة، كان يقال إن هذه المجموعات تمثل جزءً مكملاً للمنطقة الجغرافية. ويترجم هذا إلى موقفين سياسيين متناقضين بناءً على فكرة : "لقد عشنا بين العرب لمئات السنين، ولذلك فنحن نعرفهم، ونعرف عقليتهم، وثقافتهم التفاوضية وطريقة التعامل معهم". إذ تقول بعض الجماعات إن تجربة العيش فى ثقافة الشرق الأوسط تمكنها، مقارنة بالنخبة السياسية الأوروبية الأصل، من التفاوض مع القادة العرب، بناءً على الاحترام المتبادل لتراثهم الإقليمى المشترك، بينما تقول جماعات أخرى إن نفس تجربة العيش كأقلية بين الدول العربية لمئات السنين علمتهم أنه لا توجد إمكانية التوصل إلى اتفاق مع العالم العربى. وبغض النظر عن تبنى أى من الموقفين، فإن فكرة أن إسرائيل يجب أن تصبح جزءً من

منطقتها الجغرافية، وليس ذريعة استعمارية أوروبية داخل بيئة ثقافية مختلفة، أصبحت فكرة مشتركة لدى الاتجاهين.

وتعبر حقيقة أن مهاجراً من المغرب – ديفيد ليفى– أصبح وزير خارجية لإسرائيل مؤشراً هامًا على التغير الذى يحدث، بالرغم من استخفاف العديد من زملائه السياسيين، لعدم قدرته على تمثيل إسرائيل جيداً فى المحافل الدولية، بسبب ضعف مهاراته فى اللغة الانجليزية. فلا يقتصر الخطاب الأشكينازى المزراحى على المؤسسات السياسية الرسمية، ولكنه يتغلغل فى الثقافة الشعبية. فقد استغرق الأمر حتى الستينات قبل تقبل إذاعة موسيقى شرقية على راديو إسرائيل، بل إنها كانت آنذاك جزءً من القسم العربى. وعلى العكس، لعبت الموسيقى التقليدية جزءً هامًا فى الخدمات الإذاعية منذ بدايتها. وهكذا تعكس خطابات الموسيقى والفن والثقافة التوترات الجيوبوليتيكية بين الرغبة فى الاندماج فى المنطقة، فى مقابل الرغبة فى أن يكونوا جزءً من أوروبا(Izenberg1998; Waterman1998)

وينعكس عدم اندماج إسرائيل فى المنطقة فى المهارات اللغوية للسكان. فاللغة الانجليزية هى اللغة الثانية المفضلة فى كل المدارس، بينما اللغة العربية إجبارية لمدة سنة واحدة فقط، ويختارها عدد قليل من الطلاب. وبالرغم من الاتصال اليومى مع المواطنين العرب والمقيمين الفلسطينيين فى "الأراضى المحتلة"، فإن نسبة صغيرة فقط من الإسرائيليين هى التى تستطيع التحدث بالعربية. وينطبق هذا على علاقة الأغلبية بالأقلية بصفة عامة، وفى حالات الصراع بصفة خاصة، حيث يعتمد سكان الأقلية على لغة سكان الأغلبية لإجراء المعاملات المكتبية والاقتصادية. وهذا يمثل لغزا طريفًا، فبينما يتناقص عدد اليهود الذين يتكلمون العربية، فإن نسبة كبيرة، إن لم يكن معظم، السكان الفلسطينيين يفهمون ويتحدثون العبرية، بينما لا يستطيع معظم يهود الشتات خارج إسرائيل التحدث أو القراءة أو الكتابة بلغة المواطنين الإسرائيليين.

وربما كان تشبيه رئيس السلطة الفلسطينية ياسر عرفات لإسرائيل بنموذج الدول الصليبية فى القرن الثانى عشر هو الذى يميز معظم الفكر العربى فى دور إسرائيل فى المنطقة. فقد كان الصليبيون مستعمرين قدامى يسيطرون على "الأرض المقدسة" من خلال سلسلة من القواعد الحربية المحصنة جيداً، والتى تغلب عليها المحاربون المسلمون بقيادة صلاح الدين. وكان الصليبيون يعتبرون دائمًا كغزاة أجانب وغرباء على هذه المنطقة، وكان وجودهم ظاهرة مؤقتة فى التاريخ الطويل والمضطرب للشرق الأوسط. وفى نفس الوقت كان البعض يعتبر هذه العبارة بمثابة توضيح للنوايا النهائية للعرب تجاه إسرائيل، وأنه لا توجد فائدة من محاولة الدخول فى اتفاقية سلام مع الفلسطينيين. ويوضح هذا الأسس البراجماتية أساساً - وليس الأيديولوجية - لعملية السلام الإسرائيلية العربية، أى حقيقة أن الاتفاقيات تخدم المصالح "السياسية الواقعية" لكل الأطراف المعنية، ولا تشير إلى أية رغبة حقيقية لدى الدول العربية فى الشرق الأوسط لقبول إسرائيل كواحدة منها (Susser 1997)

فى أوروبا؟

تعتبر إسرائيل نفسها عميقة الجذور الأوروبية، من حيث التطلعات الثقافية. ففى مقال مشهور ظهر منذ عدة سنوات، يقول ميرون بنفينست Meron Benveniste إنه بينما يكون موقع إسرائيل الجغرافى فى الشرق، يقع موقعها الثقافى المفضل فى مكان ما بين باريس وبراغ. فأصول الصفوة المؤسسة لإسرائيل تعود إلى أوروبا الوسطى والشرقية، ونظم حكم الدولة ومجموعة من مؤسسات الدولة الأخرى ترتبط بشدة بالثقافة الأوروبية. وخلال الخمسين سنة الأولى، كان كل رؤساء وزراء إسرائيل من بن جوريون إلى نيتانياهو، وكل رؤساء إسرائيل ما عدا واحداً، من أصول أوروبية، بالرغم من حقيقة أن أكثر من نصف السكان اليهود فى الدولة من المزراح (شمال أفريقيا وآسيا). وحتى قادة حزب الليكود اليمينى - الذين كانوا يتمتعون عادة بمساندة

السكان المزراح فى الانتخابات – كانوا أوروبيين. وقد تزايد هذا فى السنوات الأخيرة مع وصول أكثر من ٨٠٠,٠٠٠ مهاجر من الاتحاد السوفيتى السابق. ويرى البعض أن هذا يشير إلى إعادة التوازن إلى الهيكل العرقى الهش، بإعادة الأمور لصالح السيطرة الثقافية الأوروبية الأشكينازية، وذلك فى وقت كانت فيه تقوية المزراح تحتل المقدمة للمرة الأولى فى التاريخ السياسى لإسرائيل.

وتتمتع إسرائيل بوضع تجارى تفضيلى مع أوروبا، وتشارك فى العديد من الأنشطة الثقافية الأوروبية، مثل مسابقة الأغنية "يوروفيشن"، ومسابقات كرة القدم الأوروبية. وبينما تحقق كل هذا نتيجة استبعاد إسرائيل من الأنشطة السياسية والثقافية للشرق الأوسط، فلا يحتمل أن تتزايد الرغبة الراسخة للاندماج فى الإقليم الطبيعى الذى تقع فيه الدولة لدرجة التطلع إلى استبدال علاقات الشرق الأوسط بهذه العلاقات الأوروبية. ومع ذلك يرى الكثير من الإسرائيليين أن العلاقات مع أوروبا مثيرة للمشاكل. حيث نجد الذاكرة الجماعية للمواطنين اليهود بالدولة أنه من الصعب التوافق مع تطبيع العلاقات بين إسرائيل وألمانيا (Timm1997) فبالرغم من نمو الروابط الثقافية والاقتصادية بين البلدين، إلا أن فكرة أن ألمانيا تستطيع – أو يجب – أن تقدم ضمانات عسكرية أو غيرها لحل سلمى فى الشرق الأوسط لا تزال غير مقبولة. ولا يزال كثير من الإسرائيليين يرفضون زيارة تلك الدولة، بالرغم من حقيقة إقامة العلاقات الرسمية لأكثر من ثلاثين سنة، وأن إسرائيل تلقت تعويضات هائلة من الحكومات الألمانية المتعاقبة خلال نفس الفترة (Levy1996)

وكانت علاقة إسرائيل مع القوتين الأوروبيتين العظمتين الأخرتين – فرنسا وبريطانيا– متأرجحة. فعادة ما ينظر فى إسرائيل إلى بريطانيا على أنها الدولة التى يملى سياستها الخارجية لوبى مؤيد للعرب، ترجع جذوره إلى الافتتان التقليدى للحكومات البريطانية السابقة برومانسية الصحراء والثقافة البدوية. وكذلك فإن حكم الانتداب البريطانى فى فلسطين، والوثيقة "البيضاء" التى تحد من عدد المهاجرين

اليهود فى ١٩٣٩، والفترة التى أعقبت نهاية الحرب العالمية الثانية، كل ذلك يذكر بمحاولات منع إنشاء دولة يهودية مستقلة وعدم السماح للناجين من الهولوكوست بدخول فلسطين. وكانت الحكومات الإسرائيلية المتتالية تنظر إلى المصالح البريطانية فى المنطقة بشك كبير، بالرغم من أن هذه المصالح تلعب دورًا هامًا فى صنع السلام فى الشرق الأوسط. وقد اتضح ذلك مؤخرًا فى ١٩٩٨ عقب الزيارة الكارثية التى قام بها وزير الخارجية البريطانى، روبين كوك، الذى كان فى ذلك الوقت أيضًا ممثلاً للاتحاد الأوروبى. حيث فسر معظم الإسرائيليين قراره بتجاهل الكثير من البروتوكولات الدبلوماسية فى زيارته للقدس الشرقية بأنه مؤشر واضح على التحيز للعرب من جانب الاتحاد الأوروبى. أما علاقة إسرائيل بفرنسا فكانت الأشد دفئًا من بين علاقتها بالقوى الثلاث الأوروبية الكبرى. فخلال الخمسينات ساعدت فرنسا إسرائيل فى تطوير صناعات الدفاع الإسرائيلية، خاصة فى إنشاء المفاعل النووى فى ديمونه. ولكن هذه العلاقة فترت فى السنوات الأخيرة، مع معارضة فرنسا الكبيرة للعديد من السياسات الإسرائيلية المتعلقة بالفلسطينيين واحتلال الضفة الغربية.

وتقدم فكرة كيان أوروبى واحد، بدلاً من تعدد الدول الأعضاء فى الاتحاد، فرصًا جديدة لعلاقات خارجية أقوى مع أوروبا. فقد مكن ظهور الاتحاد الأوروبى إسرائيل من إعادة تقييم وضعها الإقليمى فى مواجهة أوروبا. والعلاقات الاقتصادية والسياسية مع الاتحاد الأوروبى مرتبطة ببعضها، ولكن الاتحاد يطلب دورًا أكثر نشاطًا فى عملية السلام إذا أرادت إسرائيل أن تتمتع بالمزيد من الاندماج فى الأسواق الاقتصادية الإقليمية. وقد أدى عدم رضا المجموعة الأوروبية عن تقدم عملية السلام فى ظل إدارة نيتانياهو، بالإضافة إلى تحفظ إسرائيل على السماح للقادة الأوروبيين بالقيام بدور فعال كطرف ثالث محكم بالإضافة إلى الولايات المتحدة، إلى زيادة صعوبة حصول إسرائيل على أية امتيازات أخرى داخل المجموعة الأوروبية.

ويقع البحر الأبيض المتوسط فى مكان وسط بين الشرق الأوسط وأوروبا. وفى هذا المجال تتشابه إسرائيل مع دول أخرى فى شرق البحر المتوسط مثل قبرص

وتركيا. حيث أدى الموقع الجغرافى والثقافى على ملتقى أوروبا والشرق الأوسط، والإسلام والمسيحية، إلى ظهور هوية متوسطية مشتركة مع الدول الأوروبية الأخرى مثل إيطاليا واسبانيا ودول شمال إفريقيا فى المغرب. ولكن هذا لم يثمر أى تعديل للوضع السياسى بالنسبة لإسرائيل أو الدول الأخرى المعنية.

فى الشتات اليهودى

تحافظ دولة إسرائيل على علاقات وثيقة مع المجتمعات اليهودية فى أنحاء العالم. وتعتبر نفسها حامية لهذه المجتمعات فى أوقات الاضطهاد أو الأزمات. حيث يصف يفاتشال Yiftachel (1997a)، فى دراسته لإسرائيل كنظام حكم عرقى، الدولة بأنها "بدون حدود" أو دولة لا تنطبق حدود هويتها مع الحدود الإقليمية المحددة للدولة. فبينما يدخل بعض الناس المقيمين خارج الحدود الإقليمية فى الإطار الجماعى القومى، نجد أن البعض الآخر الذى يقيم داخل هذه الحدود الإقليمية مستبعدين من هذا الإطار. إذ إن "حق العودة" الآلى والمواطنة الفورية تمنح لليهود فى أنحاء العالم سواء سبق لهم أن وطئت أقدامهم أرض إسرائيل أم لا، بينما المقيمون الفلسطينيون العرب الذين عاشوا بلا انقطاع فى هذه المنطقة لمئات السنين لا يتمتعون بنفس الحقوق. وينطبق هذا بصفة خاصة على حق شراء الأراضى، فهو الحق الذى منح لليهود المقيمين فى الشتات، وليس للفلسطينيين المقيمين فى الأراضى المحتلة. ومعظم الأراضى المملوكة للدولة اشترتها منظمات يهودية عالمية، خاصة الصندوق القومى اليهودى، مع بقاء الوكالة اليهودية وكالة شبه حكومية تعمل نيابة عن المجتمع اليهودى العالمى ودولة إسرائيل فى نفس الوقت.

وهكذا تتناقض فكرة أن إسرائيل تقع داخل الشتات اليهودى مع التصور الإقليمى للصهيونية كأيديولوجية يدور حولها تأسيس الدولة. إذ إن تأسيس دولة يهودية مستقلة كان يمثل لدى مؤسس الدولة حلاً لوضع الشتات، وذلك بخلاف الوضع الذى

استمر حوالى ألفى سنة، والتى كان خلالها أفراد الشعب اليهودى منتشرين، ويمثلون أقلية مضطهدة فى حالات كثيرة فى أنحاء العالم. وتوضح حقيقة أن الصهيونية، وليس القومية اليهودية، قد اختيرت لاسم الحركة القومية، التركيز الإقليمى الشديد على قطعة أرض معينة، وهى الأرض التى ظلت تمثل جزءً جوهريًا من صلاة اليهود وطقوسهم طوال فترة الشتات نتيجة لعمليات التنشئة الاجتماعية القوية (Da-vies1982;Newman1998c,1998d)

لقد كانت العلاقة بين دولة إسرائيل والشتات اليهودى – ولا تزال – علاقة معقدة (Kimmerling1929;Shefer1996) فمن ناحية، كان الأساس الأيديولوجى للدولة يتمثل فى إقناع اليهود حول العالم بالهجرة إلى إسرائيل. ولا يشار إلى ذلك بأنه عملية هجرة ببساطة. ولكنها عملية "صعود" يحقق المرء من خلالها شكلاً من تحقيق الذات القومية باختيار الحياة داخل الأرض القديمة. وغالبًا ما كانت العملية التى يجمع من خلالها المبعوثون الذين يمثلون الدولة الأموال من المجتمعات اليهودية بالشتات تقوم على أساس أن الذين لم يختاروا الحياة فى إسرائيل يدفعون نوعًا من الضرائب لمساعدة الذين اتخذوا ذلك القرار. ولكن فى نفس الوقت كان الانتقاد اليهودى لسياسات حكومة إسرائيل يقابل بأنه لا يجب التدخل فى قرارات دولة لم يختاروا الحياة فيها. وهكذا ظهرت علاقة متناقضة حيث يطلب من المجتمعات اليهودية فى الشتات "الدفع مع الصمت".

ولكن هذه العلاقة المعقدة بدأت تتغير فى السنوات الأخيرة، وذلك مع تحرر العديد من مجتمعات الشتات من سياسات الحكومة الإسرائيلية المتعلقة بعملية السلام، وتزايد نفوذ الجماعات الدينية الأساسية داخل الدوائر الحكومية. فقد انتقدت جماعات الشتات اليمينية حكومة رابين للتجرؤ على التخلى عن الأرض "المقدسة" باسم السلام، بينما انتقدت الجماعات اليسارية إدارة نيتانياهو على إبطاء عملية السلام والاستسلام للمطالب الدينية والتحررية الوحدوية لأحزاب تحالفه.

وهكذا اختارت كل جماعة أن تظهر علنًا استياءها من سياسات الحكومة الإسرائيلية، بل إنها أظهرت خارج السفارات الإسرائيلية فى المدن الكبرى فى العالم أعمالاً كانت تعتبر غير مفهومة منذ بضع سنوات.

وتعتبر إسرائيل نفسها شريكًا مع المجتمعات اليهودية بالشتات، ولكنها تعتبر نفسها الشريك الأكبر الذى يمثل الأساس الأخلاقى. ولكن مجتمعات الشتات من جانبها لم تعد راغبة فى قبول هذا الدور الثانوى، على الأقل لأن وجود الدولة جعلها أكثر أمنًا واستقلالاً ثقافيًا فى الدول التى يقيمون فيها.

وبينما كان معظم الأموال التى تجمعها تلك المجتمعات فى الماضى تذهب إلى خزائن الدولة ومؤسساتها، يتمثل الاتجاه الحالى فى بقاء نسبة أكبر من هذه الموارد داخل هذه المجتمعات ذاتها كوسيلة لزيادة الوعى والهوية الدينية والثقافية. وهكذا فإنه بينما لا تزال المشاركة بين إسرائيل والشتات متواصلة، إلا أن دور كل منهما قد تغير، بحيث لم يعد أى منهما يشعر باعتماده على الآخر كما فى الماضى. وبهذا تكون إسرائيل قد ضمنت أن مجتمع الشتات سيستمر فى تمثيل المصالح الإسرائيلية أمام الحكومات الأجنبية، خاصة فى الولايات المتحدة، إذا استمرت الاتجاهات السياسية والاجتماعية الأمريكية الحالية فى تعطيل سياسة الكيان الإسرائيلى.

إن فكرة أن الشتات يمكن، ويجب، إلغاؤه تمثل فى حد ذاتها عملية غرس وعى زائف بين المجتمعات اليهودية فى العالم. فمع الهجرة الضخمة لليهود الروس والإثيوبيين خلال التسعينات، والخروج الأخير للمجتمعات الباقية الصغيرة فى سوريا والعراق، لم تعد الدولة تعمل كمكان يستطيع اليهود المضطهدون القدوم إليه، لأنه لم يعد هناك وجود لمثل هذه المجتمعات المضطهدة ببساطة. أما فى العالم الغربى، فإن المجتمعات اليهودية آمنة سياسيًا وماليًا، ولا تعتبر إسرائيل أن المادية الحديثة تمثل التحدى الأيديولوجى الذى مثلته خلال العقود الثلاثة الأولى من تأسيس الدولة. ولم تعد

إسرائيل تحتل المكانة الأخلاقية العالية فى هذه العلاقة، وبالتالى فإن هذين الجزأين المكونين لهذه العلاقة الجيوبوليتيكية العالمية يمران بعملية تولى أدوار جديدة. وكذلك فإنه بينما يرغب مجتمع الشتات فى رؤية إسرائيل مستقلة وقوية، فإن هذه القوة والاستقلال يمثلان عاملاً يقلل مشاعر الالتزام لدى الشتات الذى لم يعد يشعر بأنه مطلوب كما كان فى الماضى.

ويتعارض التصور الجيوبوليتيكى لإسرائيل كجزء من المجتمع اليهودى العالمى مع الأفكار الرئيسية جداً للهوية اليهودية. ويرفض اليهود التقليديون الاعتراف بوجود اتجاهات بديلة داخل اليهودية - خاصة الجماعات الإصلاحية والمحافظة - كيهود شرعيين لأنها لا تلتزم دائمًا بالتفسيرات التقليدية الصارمة "لمن هو اليهودى؟". حيث تحدد الجماعات التقليدية داخل إسرائيل الهوية اليهودية، وذلك لأنها صاحبة أقوى تمثيل فى البرلمان الإسرائيلى من خلال أحزابها السياسية. "فالوضع الراهن" فى الشئون الدينية ,والذى شرع عقب تأسيس الدولة فى ١٩٤٨ مباشرة، يضع كل شئون الحالة الشخصية والدينية فى أيدى المؤسسة الدينية (التقليدية). وبينما لا تحظى الحركات الإصلاحية والمحافظة بنفوذ سكانى أو سياسى داخل إسرائيل، إلا أنها تشكل الغالبية العظمى من يهود الشتات، خاصة فى الولايات المتحدة. فقد كانت هذه المجموعات من أشد الأنصار وجماعات الضغط نيابة عن إسرائيل. ولكن مع تزايد ابتعاد هذه المجموعات عن المد المتصاعد للأصولية الدينية داخل إسرائيل، بالإضافة إلى محاولات بعض المجموعات التقليدية إنكار يهوديتهم، فإن تأييدها المباشر وارتباطها الآلى مع إسرائيل بدأ يتناقص.

وأخيراً، تظهر عملية الإقصاء هذه أيضًا بالنسبة إلى المهاجرين من إسرائيل. فخلال العقدين الماضيين، زادت عملية الهجرة من إسرائيل، بل إنها فاقت فى بعض السنوات أعداد اليهود المهاجرين إلى البلاد. ولا يقتصر الأمر على اعتبار هذا مؤشراً سيئًا ضد تشجيع الهجرة اليهودية لإسرائيل، بل إن المجتمعات الإسرائيلية التى نمت

فى المدن الكبرى مثل نيويورك، ولوس أنجلوس، وتورنتو، ولندن، تعمل بصورة منفصلة عن المجتمعات اليهودية المحلية. وكانت العلاقة بين هذين المجتمعين متوترة غالبًا، حيث تعتبر المجموعات الأولى نفسها داخل مجموعة من المجتمعات المهاجرة، بينما تفضل المجموعات الثانية التأكيد على انتمائها الدينى والثقافى. وهكذا فإن طبيعة العلاقة بين إسرائيل والشتات تصبح أكثر تعقيدا أو توترًا مقارنة بالماضى ,بينما لا تستطيع إسرائيل الاعتماد آليًا على التأييد الأعمى من يهود العالم لكل سياساتها.

الولاية الأمريكية الحادية والخمسون

لقد كان لإسرائيل دائمًا علاقة خاصة مع الولايات المتحدة. فبدون الاعتراف الأمريكى بإسرائيل فى ١٩٤٨ . كان هناك شك فيما إذا كانت القيادة الصهيونية فى ذلك الوقت ستؤسس الدولة الجديدة بنفس السرعة بعد رحيل قوات الانتداب البريطانى. حيث اعتمدت إسرائيل على تأييد الولايات المتحدة، السياسى والمالى، خلال الخمسين سنة الماضية، لدرجة أن هذا التأييد كان يتعارض فى بعض الأحيان مع الرأى الغالب للمجتمع الدولى كله. فإلى وقت قريب فى ١٩٩٧، كان هناك الموقف المخزى للولايات المتحدة وميكرونيزيا باعتبارهما الدولتين الوحيدتين اللتين صوتتا ضد تحرك الأمم المتحدة لإدانة إسرائيل لإنشائها المزيد من المستوطنات فى القدس الشرقية.

وكان تأييد الولايات المتحدة لإسرائيل يعتمد على عنصرين. ولا شك أن أولهما يتمثل فى وزن اللوبى الموالى لإسرائيل داخل النظام السياسى الأمريكى. فالمجتمع اليهودى الأمريكى مستقر تمامًا ماليًا وسياسيًا. وقد تم اختيار أعضاء من هذا المجتمع لشغل مواقع سياسية هامة، بينما يمثلون أيضًا جزءً هامًا لتمويل الأحزاب لكل من الديموقراطيين واليهود. ولكن فكرة "الناخب اليهودى" أقل تأثيراً، وذلك فى ظل حقيقة أن تعداد هذا المجتمع كله يقل عن ستة ملايين نسمة، وهناك نسبة كبيرة منهم لا ترتبط بالضرورة بالمجتمع اليهودى، ولا تساند القضايا اليهودية أو الإسرائيلية آليًاً. وهكذا

فإن تأثير المجتمع اليهودى على صنع السياسة الخارجية الأمريكية فى الشرق الأوسط لا يتناسب مع حجمه الحقيقى.

وعادة ما كانت اتجاهات قادة إسرائيل نحو الولايات المتحدة متأرجحة(Reich 1994) فمن ناحية، كان هناك دائمًا لوبى قوى يهدف إلى الحفاظ على، إن لم يكن زيادة، مقدار المساعدات الأجنبية العسكرية والمالية. ولم تتوقف مناشدات الضمير الأمريكى لمساندة الدولة اليهودية المحاصرة حتى بعد تحقيق التفوق العسكرى الإسرائيلى. وفى نفس الوقت، تعرض الضغوط الأمريكية على الحكومة الإسرائيلية لتقديم تنازلات سياسية وإقليمية على أنها تدخل فى الشئون الداخلية لدولة مستقلة ذات سيادة. وكان هذا الوضع سائدًا فى ظل الحكومات الإسرائيلية اليمينية خاصة، مع ظهور توتر ملحوظ بين شامير وإدارة بوش فى أوائل التسعينات، وبين نيتانياهو وإدارة كلينتون بعد ذلك بسبع سنوات. وفى الحالتين تم إصلاح بعض التصدعات التى حدثت فى العلاقات الأمريكية الإسرائيلية بسبب الأزمات العراقية، ففى تلك الفترات قدمت الولايات المتحدة مساعدات ضخمة لإسرائيل لحماية جبهتها الداخلية ضد أية هجمات صاروخية محتملة.

وغالبًا ما تتظاهر الجماعات اليمينية فى إسرائيل خارج فنادق صانعى السياسات والقادة الأمريكيين الزائرين عندما يشاركون فى المفاوضات المكوكية بين إسرائيل والجيران العرب، وفى الحالات المتطرفة يظهرون الدبلوماسيين الزائرين على أنهم معادون للسامية ويدمرون مصالح إسرائيل. وقد وصل هذا إلى ذروته عقب استيلاء إسرائيل على المنطقة فى ١٩٥٦ بالتحالف مع بريطانيا وفرنسا.

ويتمثل العنصر الثانى للتأييد الأمريكى لإسرائيل فى فكرة أن قائد العالم الحر يجب أن يساند الديموقراطية الوحيدة فى الشرق الأوسط. وتستخدم إسرائيل هذه الحجة فى القول بأن السلام الحقيقى لا يمكن أن يتحقق إلا بين ديموقراطيتين (حسب تعريف نماذج الديموقراطية التشاركية الغربية المعيارية;Graham and Tessler 1997)

Elman 1997) وأن الولايات المتحدة يجب أن تصر على تحقيق تحولات سياسية داخلية فى الدول العربية قبل أن تقدم لها دعمًا مماثلاً. وذلك لأنه طالما كانت مصر تحت التأثير المباشر للاتحاد السوفيتى، سيكون للولايات المتحدة مصلحة كبرى فى الدفاع عن، بل وتقوية، إسرائيل كحاجز ضد التوسع السوفيتى فى الشرق الأوسط. ولكن قرار مصر بالخروج من مجال النفوذ السوفيتى، واتفاقية السلام الإسرائيلية المصرية فى كامب ديفيد، وانهيار الكتلة السوفيتية، قد غير توازن القوى الإقليمى ووضع معظم المنطقة تحت النفوذ الأمريكى المباشر وغير المباشر. وتعتبر إسرائيل ومصر حاليًا حليفين مشتركين للولايات المتحدة فى حربها ضد ما يعتبر التهديد الإقليمى الجديد، أى الأصولية الإسلامية، والسياسات التوسعية للعراق التى تهدد المصالح النفطية الأمريكية فى الخليج الفارسى. وقد أصبحت مصر الآن، بعد إسرائيل، ثانى أكبر مستقبل للمساعدات الخارجية الأمريكية، وتحصل هاتان الدولتان معًا على أكثر من نصف مجموع المساعدات الخارجية.

وهناك عنصران آخران يحتمل أن يغيرا طبيعة العلاقات الأمريكية الإسرائيلية فى المستقبل المنظور. فأولاً، هناك انقسام متزايد داخل المجتمع اليهودى الأمريكى بشأن التأييد المطلق للحكومات الإسرائيلية التى لا تمثل بالضرورة مصالح المجتمع ككل. وثانيًا، أن نمو المجتمع المسلم الأمريكى ودخوله فى السياسات المحلية والقومية يمكن أن يشكل قوة مضادة قوية لدى صناع السياسات الأمريكيين. ويحتمل أن يصبح الأمر كذلك خاصة عندما تتراجع الحكومات الإسرائيلية عن عملية السلام. ففى هذه الحالة، سيعتبر اللوبى العربى المتصاعد أن الدعم المستمر وغير المبرر لإسرائيل دعم متحيز وعلامة على أن الولايات المتحدة غير قادرة على أن تكون وسيطًا أمينًا لدى جانبى الصراع، وهذه حجة يميل الأمريكيون إلى مواجهتها. وبالرغم من التهديدات العارضة بعكس ذلك، لا يحتمل أن تنسحب الولايات المتحدة من تدخلها فى الشرق الأوسط، لأنها غير راغبة فى السماح لأوروبا بالتدخل فى المنطقة. ولكن إسرائيل نجحت بصفة عامة فى استبقاء الدعم الأمريكى لها، حتى عندما لا تكون سياساتها فى صالح

المصالح العالمية للأمم المتحدة. وتعتمد إسرائيل على ضمانات أمريكية، وليس أوروبية، لأية اتفاقيات سلام أو وعود بنزع السلاح. وهكذا فإن فكرة أن إسرائيل تمثل الولاية الحادية والخمسين فى أمريكا لا تزال تمثل مصدراً كبيراً للقوة الجيوبوليتيكية لإسرائيل.

مركز العالم

إن أغرب ما فى المواقع الجيوبوليتيكية الخمسة لإسرائيل هو فكرة أن إسرائيل تقع فى مركز العالم. فإسرائيل تحتل الموقع الجغرافى للأرض "المقدسة" ومهد كل من اليهودية والمسيحية، وثالث أهم مركز فى الإسلام. وهكذا تتمتع هذه المنطقة بأهمية رمزية بمعنى أنها تمتلك بعض أشكال فكرة القداسة المجردة. فهى أكثر تقديساً وأهمية من المناطق الأخرى، بسبب الأحداث الحقيقية، وغير الحقيقية، التى يفترض حدوثها فيها. حيث نشبت حروب دينية دموية من أجل حق السيطرة على المواقع المقدسة. إذ حاول الصليبيون استرداد مدينة القدس القديمة للمسيحيين، وبنى المسلمون "مسجد عمر" على موقع معبد يهودى قديم، بينما كان استرداد مدينة القدس القديمة فى حرب الأيام الستة فى ١٩٦٧، لدى اليهود المتدينين، لا يقل عن "تحرير" بمعجزة لمواقع تنتمى إليهم بحق الوعد السماوى لأسلاف اليهود كما ورد فى النصوص التوراتية (Davies 1982; Newman 1998c)

وبهذا المعنى تكون دولة إسرائيل الحديثة مجرد حقيقة موضوعية مؤقتة تصادف وقوع الأماكن المقدسة داخل حدودها. ومن ناحية الموقع الميتافيزيقى، فإن الحدود الدقيقة للدولة الحديثة ليست مهمة، بالرغم من أن الدولة المعاصرة قادرة على تأكيد حقيقة أنها تمارس السيطرة السياسية على الأماكن والمواقع الرمزية. وينعكس هذا فى حج اليهود والمسيحيين من أنحاء العالم، خاصة قرب توقيت فترات الأعياد الكبرى مثل رأس السنة الميلادية والسنة اليهودية الجديدة، مع توقع وفود حوالى مئات الآلاف من الحجاج المسيحيين قرب نهاية الألفية. ومن الشائع بصورة متزايدة بين يهود الشتات

شراء شقق العطلات فى إسرائيل لقضاء فترات عطلاتهم فى إسرائيل خلال فترة الاحتفالات اليهودية الكبرى. ومن المحير أنه بينما يشاهد العالم كله قداس رأس السنة الميلادية، حيًا من "الأرض المقدسة"، نجد المدن المجاورة مثل بيت لحم والقدس تمارس يوم عمل عادى فى هذا اليوم شديد الأهمية فى التقويم المسيحى. بل إن معظم اليهود والمسلمين فى دولة إسرائيل والضفة الغربية لا يدركون فعلاً وجود هذا الاحتفال الدينى لأنهم يمارسون أنشطتهم اليومية العادية.

وتحظى هذه القطعة المحددة من الأرض بأبعاد ميتافيزيقية، باعتبارها مركز العالم. وتعتبر فكرة "أورشليم الشمال"، مقابل أورشليم الأرض، بمثابة مكان المثالية والكمال، على عكس حقائق الصراع المرير الذى يحدث بين العرب واليهود فى هذه المدينة. بل إن فكرة أن أورشليم يمكن أن توجد فى أماكن أخرى، مثل "الأرض الريفية الخضراء فى انجلترا" تمثل جزءً من هذا الموقع-المكانى المدرك لمكان معين. وتمثل هذه الاستعارة للمكان مكونًا قويًا فى التصور الجيوبوليتيكى الذى ينقل المكان من مجال أرضى محدد إلى مكان يمكن تحريكه وتخطيه. وهذا يفسر استخدام أسماء أماكن توراتية فى مواقع مختلفة فى العالم، خاصة سوكوت، شيلوه نازاريث، لبنان، نهر الأردن، وغير ذلك. وفى نفس الوقت، فإن هذا يطرح لغز تحويل إحساس ميتافيزيقى بالمكان إلى فكرة سياسية مجسمة عن مكان له موقع مادى وحيد، ثم بعد ذلك يأخذ أهمية أكبر من كل المواقع الأخرى وينتهى به الأمر بالحرب من أجله. ويفسر هذا أيضًا لماذا يصر مستوطنو الضفة الغربية على تسمية مستوطناتهم حسب أماكن توراتية كانت تقع فى، أو قريبًا من، مواقع مستوطناتهم (Cohen and Kilot 1981, 1992)

وكذلك فإن فكرة الوجود فى "مركز العالم" تمثل خطابًا حصريًا وبالتالى جدليًا عن المكان. فكما أن "الأرض الموعودة" والقدس جوهرية فى الفكر الدينى والجغرافى اليهودى (Davies 1982) فهى كذلك فى الفكر الإسلامى والمسيحى. ويعتبر الفاتيكان نفس هذه الأماكن كمراكز لتفسيراته السياسية الخاصة للاهوت والتاريخ، وبالتالى

يبدى اهتماما خاصًا ورغبة فى المشاركة فى الأحداث السياسية التى تحدث هناك Per ko 1997) ونظرًا لأن هذا الخطاب اللاهوتى للمكان موضع جدل، فإن فكرة المركزية تكون استبعادية، وليست مشتركة. فبالنسبة لكل مركز، يتم إبعاد أديان "الآخرين" إلى الهامش، مما يدعم الإحساس بأن هذا الصراع صفرى الحصيلة، من النوع الذى يحدث فى هرمجدون (يقع هذا المكان جغرافيًا داخل إسرائيل أيضًا(قرية مجدو الفلسطينية) وليس فى ميدان معركة فعلية.

ويعنى البعد الرمزى لهذه الأرض وأهميتها العالمية أنها تعتبر أكبر بكثير من مساحتها الفعلية. فبالنسبة لدولة لا تحتل أكثر من ٢٠٠٠٠ كم٢ (٢٥٠٠٠ كم٢ بما فى ذلك الأراضى المحتلة)، ومسافة لا تزيد عن سبعة وخمسين كيلو مترًا بين البحر الأبيض المتوسط فى الغرب ونهر الأردن فى الشرق، ويسكنها ما لا يزيد عن ثمانية ملايين نسمة (الإسرائيليين والفلسطينيين معًا)، نجد أن هذه الدولة وصراعاتها تحتل مكان دولة عظمى فى الإعلام العالمى والاهتمام العام الذى يعبر عنه المجتمع الدولى ككل. فالصراعات العنيفة فى أماكن أخرى من العالم قد تمر مرور عابر، بينما أصغر أحداث إلقاء الحجارة فى أو حول القدس أو بيت لحم تصبح العناوين الرئيسية آليًا. أى أن مقدار الاهتمام الذى تلقاه إسرائيل فى الشئون الدولية أكبر بكثير من إسهامها السكانى أو الاقتصادى فى الآليات المتغيرة للخريطة السياسية للعالم. وبينما تحظى صراعات أخرى مثل البوسنة أو أيرلندا الشمالية باهتمام أيضًا، من حيث التغطية المستمرة طوال فترة متصلة لحوالى خمسين سنة، لا يوجد صراع آخر احتل باستمرار هذا القدر من الاهتمام العالمى.

وفى نفس الوقت، هناك إحساس لدى كثير من الإسرائيليين بأنه من الأفضل أن تكون فى محور اهتمام العالم، وذلك ليعرف بقية العالم أن هذه الدولة الصغيرة المكونة من الكثير من اللاجئين اليهود لا يمكن استبعادها. وهذا أيضًا جزء من أعراض ما بعد الهولوكوست، والحاجة إلى تنبيه العالم: "نحن هنا" ولسنا متعجلين للاختفاء من

مسرح التاريخ العالمى. فقد ظهرت نكتة عن إسرائيل فى الثمانينات، مقتبسة جزئياً من فيلم بيتر سيلرز "الفأر الذى زأر" توضح هذا الإحساس بالأهمية الذاتية العالمية. فقد كانت أوائل الثمانينات فترة ركود ناجم عن التضخم فى الاقتصاد الإسرائيلى، وكان الدين القومى يتزايد إلى نسب لا يمكن تحملها فاجتمع مجلس الوزراء الإسرائيلى فى جلسة طارئة لمناقشة طرق حل الأزمة الاقتصادية. وبملاحظة أن اثنتين من أنجح دول العالم فى ذلك الوقت ألمانيا واليابان، كانتا الدولتين المهزومتين فى الحرب العالمية الثانية، اقترح أحد الوزراء إعلان الحرب على الولايات المتحدة. فإذا هزمت إسرائيل فى مثل هذه الحرب، سيقوم الأمريكيون بتقديم صيغة حديثة من مشروع مارشال لإعادة هيكلة وتقويه الاقتصاد الإسرائيلى. وأثناء مناقشة هذه الخطة الجديدة وقف وزير الدفاع المحارب ايريل شارون وألقى الخطة من يده قائلاً "ماذا سيحدث لاقتصاد إسرائيل" إذا كسبنا الحرب؟"

وهكذا فإن الإحساس بالوجود فى مركز العالم وفى محور اهتمام العالم له بعد مزدوج. فمن ناحية، يشكو الكثير من الإسرائيليين من الاهتمام غير المناسب بإسرائيل ومشاكلها مقارنة بدول أخرى. ولكن فى نفس الوقت لا تزال الحاجة الجماعية للقيام بدور هام على المسرح العالمى، بما لا يتناسب مع الحجم الحقيقى للسكان أو الأرض، تلعب دوراً هامًا فى تفكير معظم الإسرائيليين. وهكذا فإن التفسير الذاتى لدور إسرائيل العالمى كلاعب دولى، بالرغم من حقيقتها الموضوعية كدولة صغيرة تقع على الحافة الشرقية للبحر المتوسط، تفسر البعد الجيوبوليتيكى الخامس للتصور الجماعى.

الخاتمة والنتائج

كان هذا الفصل يهدف إلى إظهار تنوع التصور الجيوبوليتيكى الإسرائيلى. حيث يختلف هذا حسب مدى الأخذ فى الاعتبار إما الحقائق الموضوعية لموقع وحجم الدولة جغرافيًا، أو التفسير الذاتى للأهمية الرمزية للمكان. ولكن هذه التفسيرات المختلفة للموقع - المكانى وغير المكانى - هى فى ذاتها دالة فى طريقة تعريف المقيمين فى إسرائيل لأنفسهم كجزء من نادى وطنى خاص، أو كمواطنين فى ديموقراطية جماعية توسع علاقاتها مع الاقتصاد العالمى. ومع تزايد عدم تجانس إسرائيل فى تركيبها الداخلى، ومع محاولات تحقيق حل للصراع بين إسرائيل وجيرانها، ومع تزايد الانشقاق بين الفروع المختلفة لليهودية فى العالم، فكذلك ستصبح طبيعة الهوية الفردية والجماعية أكثر تنوعًا، مما يؤدى إلى تكوين وتداخل العديد من التصورات الجيوبوليتيكية التى لا يمكن فهمها إلا بالرجوع إلى الروايات الاستطرادية للمجموعات المختلفة، ومدى إعادة تعريفها على المستويات المحلية والإقليمية والعالمية.

قائمة المراجع

Agnew, J. and Corbridge, S. (1995) *Mastering Space: Hegemony, Territory and International Political Economy*, London: Routledge.

Anderson, B. (1983) *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism*, London and New York: Verso Press.

Bar-Tal, D., Jacobson, D. and Klieman, A. (1998) (eds) *Security Concerns: Learning from the Israeli Experience*, Greenwich, Conn.: JAI Press.

Billig, M.(1995) *Banal Nationalism*, London: Sage Publications.

Brunn, S. D., Jones, J. A. and Purcell, D. (1994) 'Ethnic communities in the evolving "electronic state": cyberplaces in cyberpspaces', 415–24 in W. A. Gallusser (ed.) *Political Boundaries and Coexistence*, Bern: Peter Lang.

Cohen, E. (1989) 'Israel as a Post-Zionist society', 203–14 in R. Wistrich and D. Ohana (eds) *The Shaping of Israeli Identity: Myth Memory and Trauma*, London: Frank Cass.

Cohen, S. B., and Kliot, N. (1981) 'Israel's place names as reflection of continuity and change in nation building', *Names* 29: 227–46.

——— (1992) 'Place names in Israel's ideological struggle over the administered territories', *Annals of the Association of American Geographers* 82: 653–80.

Cox, K. R. (1998) 'Spaces of dependence, spaces of engagement and the politics of scale, or: looking for local politics', *Political Geography* 17 (1): 1–25.

Dalby, S. and Ó Tuathail, G. (1996) (eds) *Critical Geopolitics*, special issue of *Political Geography* 15 (6/7).

Dahan-Kalev, H. (1997) 'The oppression of women by other women: relations and struggle between Mizrahi and Ashkenazi women in Israel', *Israel Social Science Research* 12 (1): 31–44.

Davies, W. D. (1982) *The Territorial Dimension of Judaism*, Berkeley: University of California Press.

Doty, R. L. (1996) 'Sovereignty and the nation: constructing the boundaries of national identity', 121–47 in T. J. Biersteker and C. Weber (eds), *State Sovereignty as Social Construct*, Cambridge, England: Cambridge Studies in International Relations. Cambridge University Press.

Elman, M. F. (1997) (ed.) *Paths to Peace: Is Democracy the Answer?*, Cambridge, Mass.: CSIA Studies in International Security, MIT Press.

Elmusa, S. (1994) 'The Israeli–Palestinian water dispute can be resolved', *Palestine–Israel Journal* 3: 18–26.

Falah, G. and Newman, D. (1995) 'The spatial manifestation of threat: Israelis and Palestinians seek a "good" border', *Political Geography* 14 (8): 689–706.

Fenster, T. (1997) 'Relativism vs. universalism in planning for minority women in Israel', *Israel Social Science Research* 12 (2): 75–95.

Fogiel-Bijaoui, S. (1997) 'Women in Israel: the politics of citizenship as a non-issue', *Israel Social Science Research* 12 (1): 1–30.

Garnham, D. and Tessler, M. (1995) (eds) *Democracy, War and Peace in the Middle East*, Bloomington: Indiana University Press.

Helman, S. (1999) 'Redefining obligations, creating rights: conscientious objection and the redefinition of citizenship in Israel', *Citizenship Studies* 3: 45–70.

Herzog, C. (1978) *Who stands accused? Israel answers its critics*, New York: Random House.

Herzog, J. (1975) *A People that Dwells Alone: Speeches and Writings of Yaacov Herzog*, London: Weidenfeld and Nicholson.

Izenberg, D. (1998) 'A not-so-cultured argument', *The Jerusalem Post*, 24 April: 16.

Kimmerling, B. (1989) 'Between "Alexandria on the Hudson" and Zion', 265–84 in B. Kimmerling (ed.) *The Israeli State and Society: Boundaries and Frontiers*, Albany, N.Y.: SUNY Press.

Kliot, N. (1994) *Water Resources and Conflict in the Middle East*, London: Routledge.

Kook, R. (1996) 'Between uniqueness and exclusion: the politics of identity in Israel', 199–226 in M. N. Barnett (ed.) *Israel in Comparative Perspective: Challenging the Conventional Wisdom*, Albany, N.Y.: SUNY Press.

Levy, G. (1996) *Germany and Israel: Moral Debt and National Interest*, London: Frank Cass.

Lewis, M. W. and Wigen, K. E. (1997) *The Myth of Continents: A Critique of Metageography*, Berkeley: University of California Press.

Linn, R. (1994) *Conscience at War: The Israeli Soldier as Moral Critic*, Albany, N.Y.: SUNY Press.

Morley, D. and Robins, K. (1995) *Spaces of Identity: Global Media, Electronic Landscapes and Cultural Boundaries*, London: Routledge.

Newman, D. (1997) 'Israeli security: reality and myth', *Palestine–Israel Journal* 4 (2): 17–24.

——. (1998a) 'The geographic and territorial imprint on the security discourse', 73–94 in D. Bar-Tal, D. Jacobson and A. Klieman (eds) *Concerned with Security: Learning from the Experience of Israeli Society*, Stamford, Conn.: JAI Press.

—— (1998b) 'Population as security: the Arab–Israeli struggle for demographic hegemony', 163–86 in N. Poku and D. Graham (eds), *Redefining Security: Population Movements and National Security*, Westport, Conn.: Greenwood Publishing Group.

——. (1998c) 'Concrete and metaphysical landscapes: the geopiety of homeland socialization in the Land of Israel', 153–84 in R. W. Mitchell and H. Brodsky (eds) *Visions of Land and Community: Geography in Jewish Studies*, Maryland: University of Maryland Press.

——. (1998d) 'Real spaces – Symbolic spaces: interrelated notions of territory in the Arab–Israel conflict', 3–36 in P. Diehl (ed.) *A Road Map to War: Territorial Dimensions of International Conflict*, Nashville: Vanderbilt University Press.

—— (in press) 'From national to post-national territorial identities in Israel/ Palestine', in A. Kemp, et al. (eds) Israelis in *Conflict: Identities, Challenges, Hegemonies*, Albany, N.Y.: SUNY Press.

Newman, D. and Paasi, A. (1998) 'Fences and neighbours in the postmodern world: boundary studies in political geography', *Progress in Human Geography* 22 (2): 186–207.
Peled, Y. (1992) 'Ethnic democracy and the legal construction of citizenship: Arab citizens of the Jewish state', *American Political Science Review* 86 (2): 432–42.
Peled, Y and Shafir, G. (1996) 'The roots of peacemaking: the dynamics of citizenship in Israel 1948–1993', *International Journal of Middle East Studies* 28 (3): 391–413.
Peres, S. (1994) *The New Middle East*, New York: Henry Ling.
Perko, F. M. (1997) 'Toward a "sound and lasting basis": relations between the Holy See, the Zionist movement, and Israel, 1896–1996', *Israel Studies* 2 (1): 1–21.
Popper, M. (1998) 'The Israel defense forces as a socializing agent', 167–80 in D. Bar-Tal, D. Jacobson and A. Klieman (eds) *Concerned with Security: Learning from the Experience of Israeli Society*, Greenwich, Conn.: JAI Press.
Ram, U. (1998a) 'Post-nationalist historiographies: the case of Israel', *Social Science History* 22: 513–45.
—— (1998b) 'Citizens, consumers and believers: the Israeli public sphere between fundamentalism and capitalism', *Israel Studies* 3 (1): 24–44.
Reich, B. (1994) 'Reassessing the US–Israeli special relationship', *Israel Affairs* 1 (1): 64–83
Said, E. (1979) *Orientalism*, New York: Vintage Press.
Shain, Y. (1997) 'Israel's state and civil society after fifty years of independence', 224–3 in PASSIA (ed.) *Palestine, Israel, Jordan: Building a Base for Common Scholarship an Understanding in the New Era of the Middle East*, Jerusalem: Passia Publications.
Shapland, G. (1997) *Rivers of Discord: International Water Disputes in the Middle East*, London Hurst.
Shefer, G. (1996) 'Israel Diaspora relations in comparative perspective', 53–84 in M. N Barnett (ed.) *Israel in Comparative Perspective: Challenging the Conventional Wisdom*, Alban N.Y.: SUNY Press.
Shuval, H. (1996) 'Towards resolving conflicts over water: the case of the mountain aquifer' 215–38 in E. Karsh (ed), *Between War and Peace: Dilemmas of Israeli Security*, London: Fran Cass.
Silberstein, L. (1999) *Postzionism Debates: Knowledge and Power in Israeli Culture*, New Yor Routledge.
Smith, M. P. (1998) 'Looking for the global spaces in local politics', *Political Geography* 1 (1): 35–40.
Soysal, Y. N. (1996) 'Changing citizenship in Europe: remarks on postnational membersh and the national state', 17–29 in D. Cesarani and M. Fulbrook (eds) *Citizenshi Nationality and Migration in Europe*, London and New York: Routledge.
Susser, A. (1997) 'Israel's place in the region', 201–11 in PASSIA (ed.) *Palestine, Isra*

Jordan: Building a Base for Common Scholarship and Understanding in the New Era of the Middle East, Jerusalem: Passia Publications.

Telhami, S. (1996) 'Israeli foreign policy: A realist-ideal type or a breed of its own?', 29–52 in M.N. Barnett (ed.) Israel in *Comparative Perspective: Challenging the Conventional Wisdom*, Albany, N.Y.: SUNY Press.

Timm, A. (1997) 'The burdened relationship between the GDR and Israel', *Israel Studies* 2 (1): 22–49.

Waterman, S. (1998) 'Carnivals for elites? The cultural politics of arts festivals', *Progress in Human Geography* 22 (1): 54–74.

Yiftachel, O. (1997a) 'Israeli society and Jewish–Palestinian reconciliation: ethnocracy and its territorial contradictions', *Middle East Journal* 51 (4): 505–19.

—— (1997b) 'The political geography of ethnic protest: nationalism, deprivation and regionalism among Arabs in Israel', *Transactions of the Institute of British Geographers*, 22 (1): 91–110.

Yuval-Davis, N. (1997) 'National spaces and collective identities: borders, boundaries, citizenship and gender relations', inaugural lecture, delivered at the University of Greenwich, London 22 May 1997.

Zerubavel, Y. (1995) *Recovered Roots: Collective Memory and the Making of Israeli National Tradition*, Chicago: University of Chicago Press.

الفصل الثالث عشر

إعادة صياغة الجيوبوليتيكا

مجلة "ريدرز دايجست" والجغرافيات الشعبية لتهديدات نهاية الحرب الباردة

جوانى شارب

المقدمة

لقد أصبح من الشائع الآن، بعد تبدد التهديد الشيوعى مع نهاية الحرب الباردة، أن الثقافة الأمريكية المحافظة دخلت مرحلة أزمة أثارت أسئلة هامة عن كل من الهوية القومية والهدف القومى (Engelhardt 1995) إذ يمكن فهم هدف أمريكا من الحرب الباردة المتمثل فى احتواء الاتحاد السوفيتى فى ضوء وجود حدود متحركة بين الولايات المتحدة وتهديد "خارجى"، بما يشبه قصص الحدود التى تميز التوسع الاستعمارى الغربى المبدئى للدولة. حيث تعتبر قصص الاختلافات الحدودية، وحماية الأمة الأمريكية من الغزو الخارجى، مدخلاً إلى الهوية القومية الأمريكية. وذلك لأن غيابها مع نهاية الحرب الباردة جعل تنفيذ سياسات الهوية التقليدية مليئًا بالمشاكل. فمع انهيار"إمبراطورية الشر" المتربصة وراء الحدود، أصبحت حجج الإجماع والنظام فى وجه هذا العدو المتفق عليه أقل إلحاحًا. وأدى هذا إلى خوف واضح فى الثقافة السياسية المحافظة من أنه بمجرد اختفاء العدو المعروف لن يكون الشعب الأمريكى قادراً على تحديد الصواب من الخطأ، ولا الخير من الشر.

ورأى منظرون كثيرون أنه مع نهاية الحرب الباردة، سيبحث السياسيون عن تهديدات أجنبية أخرى لأمريكا، ومحاولة تنشيط الثقافة السياسية للاستبعاد. وكان من أبرز بدائل الشيوعية الإرهابيون وتجار المخدرات والتهديدات الاقتصادية. وتفترض هذه الحجة أن هناك حاجة إلى "آخر" أجنبى من أجل تركيب هوية الدولة القومية الإقليمية. ومع ذلك، يذهب هذا الفصل إلى أنه بالنسبة للتيار العام للثقافة الأمريكية، عند نهاية الحرب الباردة، هناك عدو محلى يعتبر الأكثر تهديداً لقيم وهوية ومصير الأمة. ولتفسير هذا الادعاء، سأقدم عرضاً دقيقًا لأحد مصادر الثقافة الأمريكية، وهو مجلة ريدرز دايجست، عند نهاية الحرب الباردة.

تعتبر الجيوبوليتيكا، فى أحد معانيها، بمثابة التحديد المكانى للسياسات الدولية، وهى بهذا تكون كامنة فى أى عرض للعملية السياسية على النطاق العالمى أو الإقليمى أو الوطنى. ويتمثل هدف "الجيوبوليتيكا النقدية" فى إبراز استخدام اللغة الجغرافية لتوضيح حقيقة أن الجغرافيا عبارة عن خطاب وشكل من أشكال القوة / المعرفة، وليس مجرد جانب سياسى وطبيعى للسياسة الدولية (ó Tuathail and Agnew 1992: 192; ó Tuathail 1996) وتحاول اتجاهات الجيوبوليتيكا النقدية دراسة كيفية تصوير السياسات الدولية مكانيًا أو جغرافيًا، وبالتالى الكشف عن السياسات المتضمنة فى كتابة جغرافية المكان العالمى.

و يركز معظم الجيوبوليتيكيين النقديين على مستوى الدولة، حيث تصنع السياسات. فهنا تدرس اللغة المستخدمة فى "الصياغة" الرسمية للسياسات الدولية. وبالرغم من الاعتراف بهرمية منتجى المعرفة، إلا أن موقع الوكالة الجيوبوليتيكية فى مثل هذا الوضع المقيد يثير المشاكل. فهناك سلطات مختلفة لإنتاج المعرفة داخل المجتمع، وقد لا تتوافق التصورات الجغرافية التى تقدمها. فالصور السائدة للعالم لا تأتى من مصدر واحد، ولكن من أعمال السيطرة المعقدة والهشة. ويعتبر فهم السياق الثقافى الأوسع للنماذج الجيوبوليتيكية هامًا لسببين جوهريين. أولاً، ينجذب الناس من خلال مؤسسات مثل الإعلام والتعليم إلى العملية السياسية كأشخاص لهم خطابات سياسية مختلفة. ويفسر الإعلام والتعليم العلاقات بين هذا الجمهور وما يتم تفسيره لتقديم سياق للتفسير. حيث يقال للناس ما الذى تعنيه مختلف التغيرات والأحداث الداخلية والخارجية بالنسبة لهم شخصيًا. وتعرض الثقافة الشعبية الجغرفيات المتصورة لجمهورها وتفسر أين يقع الأفراد فى هذه النماذج السياسية.

ثانيًا، إن الضالعين فى أماكن الحكم ليسوا خلف ولا خارج الثقافة القومية المسيطرة، وكذلك فإن تصريحاتهم ليست بعيدة عن التأثر بتداول الأفكار والمعتقدات

السائدة. ولكى تكون حججهم معقولة، يجب أن يشيروا إلى مفاهيم وقيم تتناغم مع السكان بشكل عام، إذا أرادوا ضمان تأييدهم. وكما يقول أوتواتيل وآجنيو "الجيوبوليتيكا ليست نشاطًا مستقلاً ومنفصلاً نسبيًا يسيطر على مجموعة صغيرة من "الحكماء" الذين يتحدثون بلغة الجيوبوليتيكا التقليدية"(ó Tuathail and Agnew 1992:194) فوصف السياسة الخارجية يعنى ببساطة الدخول فى الجيوبوليتيكا وتطبيع نظرات عالمية معينة. فإذا كان الأمر كذلك، فإن الإعلام - المرتفع والمنخفض الثقافة - يرتبط بشدة بتقديم الصورة الجغرافية للعالم، وذلك مثل مجموعة من الأنشطة التى توصف عادة بأنها تحدث خارج نطاق السياسة الدولية. وبالفصل بين "الجيوبوليتيكا" اليومية و"جيوبوليتيكا" فن الحكم، يتقبل بعض المعلقين نظرة واقعية جديدة لأركان الدولة كأطراف أساسية فى السياسة الدولية، بدلاً من الطبيعة المرنة والخلافية لقيم وتقاليد السيطرة.

وتعتبر كتابة السياسة العالمية فى الثقافة الشعبية - الجيوبوليتيكا الشعبية - هامة أيضًا، حيث تتشكل وتزداد قوة الثقافات القومية داخل إطار الثقافة الشعبية. وتمثل الثقافة القومية مصدراً مشتركًا للقصص والتفاهمات التى تحاول إنتاج الإحساس بالانتماء. [ويتم الاعتماد على هذه القصص والمعتقدات لتعريف وتفسير المؤسسات الجديدة وأهميتها للأفراد فى المجتمع .[ويعتبر السياسيون والإعلاميون قصاصين، ولكى تكون قصصهم مقبولة لدى الجمهور، يجب أن تتوافق مع القيم الثقافية المسيطرة على المستوى الأعلى. فالقيم التى تتدفق بين قطاعات الثقافة السائدة هى التى تسهل سرد الأحداث والعمليات بطريقة مقبولة أو مفيدة فى سياق تحديد الهوية الذاتية القومية. وعلى سبيل المثال,فإن القيم التى لخصها وأحياها ودعمها جون واينى تعمل على تقوية - وتسهيل - القرارات والأعمال التى يتخذها القادة السياسيون. إذ يستطيع ريتشارد نيكسون الإشارة إلى فيلم "تشيزيوم" للنجم جون واينى، كما بوسعه الإشارة إلى قيم حضارة الغربيين، وسوف يفهم الجمهور هذه الإشارة، وسيفهم أصلها بالنسبة للجغرافيا المتصورة لأمريكا (Wills 1997)

ونتيجة لتأثير السياق الثقافى، تعتمد التقاليد الجيوبوليتيكية للدول المختلفة على استعارات خاصة لصنع صور للجغرافيا الدولية. ويجب أن تستخدم الصفوة السياسية القصص والصور المرتبطة بالحياة والخبرات اليومية للمواطنين. وعن طريق تحويل العمليات المعقدة إلى صور بسيطة يألفها الجمهور، يستطيع الجيوبوليتيكيون جعل القرارات السياسية طبيعية، أو يمكنهم تحديد نتيجة العملية سلفًا. وتشتهر الاستعارات الرياضية كثيراً فى الولايات المتحدة. حيث تشير هذه اللغة إلى الاختلافات "الأساسية" بين الإمكانات القومية للأداء على المستوى العالمى، وتطبع المجال العالمى الذى تفهم فيه قواعد اللعبة. والتى يوجد فيها بشكل صريح فائزون وخاسرون. ويقول(1998) Agnew إن القيام بذلك يحول غموض الصراع إلى مجرد فنيات فى لعب المباراة. ويشير Michael Shapiro (1989: 70) إلى أن مقارنة السياسة الدولية بالمسابقات الرياضية تخدم الهدف الجيوبوليتيكى المتمثل فى تفريغ المجال العالمى من أى مضمون محدد: حيث تفقد الأماكن تميزها وتصبح السياسة العالمية إستراتيجية تلعب على ملعب رياضى مألوف. وكان الرؤساء الأمريكيون (خاصة الرئيسين نيكسون وبوش) مغرمين بالاستعارات الرياضية وتطبيقها على السياسة الدولية. ففى إحدى حملات قصف فيتنام تبنى نيكسون الاسم الرمزى "كوارتر باك Quarterback حرفيا الظهير الربعى، وهو الاسم الذى يطلق على صانع الألعاب فى كرة القدم الأمريكية) (Shapiro1989: 87) واستخدم مصطلحات مثل "التملص" و"اختيار اللعبة" فى السياسة الخارجية. وكما يقول (Agnew (1998: 71 فإن هذه الاستعارات تسمح لشخص أخرق سيئ السمعة اجتماعيًا بالظهور "كأحد الشباب"، والاشتراك فى الحوار مع الرجال الآخرين محبى الرياضة. ولا يقتصر هذا على تفسير حالة الصراع فحسب، بل يفسر أيضًا لماذا يجب على من يسمعون به قبول التفسير الذى قدمه نيكسون : حيث قدم مرجعية ثقافية مسلمًا بها يتقبلها معظم الجمهور الأمريكى.

ويتمتع هذا السياق الأوسع للتفسير بأهمية ملحوظة، لأن الوصفات والحجج الجيوبوليتيكية غالبًا ما تعتمد على نماذج واستعارات وصور مقبولة. وهذه بدورها تصبح عادية – أى تدخل فى العبارات "العادية" – من خلال تكرارها فى التعليم

والثقافة الشعبية. فمن خلال هذه المؤسسات، يتعلم الناس عن الأماكن المختلفة، وما إذا كان ذلك يمثل قائمة بيانات "حقيقية" أو مجرد قصة رمزية. ويسمح مثل هذا السياق للجيوبوليتيكيين بالعمل، بسبب تطبيع فروض وعلاقات سياسية معينة. ونتيجة لذلك، تحظى الجيوبوليتيكا الشعبية بأهمية خاصة فى إعادة إنتاج القيم والمعتقدات التى يجب أن تقوم عليها العبارات الجيوبوليتيكية الرسمية، لكى تتفق مع مختلف الجماهير.

وسأفسر فى الجزء التالى لماذا تعتبر المجلة الأمريكية ريدرز دايجست ذات أهمية خاصة فى إعادة البناء الشعبى للجغرافيات المتصورة لمكان أمريكا فى العالم، وفى تداول وتطبيع النماذج والحجج الجيوبوليتيكية.

مجلة ريدرز دايجست و"إعادة" بناء أمريكا

أصدر دى وت وليلا أشيون والاس مجلة ريدرز دايجست فى ١٩٢٢ . وكانا يهدفان إلى نشر ملخص لما يعتبر أفضل المقالات من مجموعة المجلات والصحف التى كانت تنتشر فى أمريكا فى ذلك الوقت. وكان هذا الملخص يهدف إلى تقديم نصائح عامة أساسية للقراء حتى يمكنهم الاستفادة من المعلومات المتناقضة التى يواجهونها فى حياتهم اليومية من مصادر مختلفة. وهذه النظرة العالمية ستسمح للقراء بالعمل كمواطنين صالحين: حيث يستطيعون اتخاذ قرارات سليمة تتعلق بالقضايا الجارية، عن طريق فهمها فى سياق "دروس التاريخ" و"المصير الأمريكى" بحيث يمكنهم الرؤية من خلال بلاغة السياسيين والشخصيات الأخرى.

وفى البداية كان يتم نشر ثمانية وعشرين مقالاً كل شهر، حيث يتم اختصارها إلى عناصرها المجردة للقراء المشغولين من خلال "فن تكثيف" المحررين. وكان معدل التوزيع صغيراً فى البداية، ولكنه كان ينمو بصورة متضاعفة. أما الآن فتعتبر المجلة أوسع المنشورات المقروءة فى العالم، وتمارس تأثيراً ثقافياًفى حد ذاتها. وهذا يعنى أنه بالرغم من أن الناس ينشرون أو يعيدون النشر فى المجلة، فمن خلال عملية التحرير الدقيقة أصبحت المجلة ذاتها تمثل مؤلفاً له أهميته.

وقد ظهرت هذه المجلة بعد فترة من إعادة تنظيم صناعة المجلات الأمريكية مع بداية هذه القرن (Wilson 1983) إذ أن الكتابات الثقافية والمجلات السياسية التى كانت سائدة مع نهاية القرن التاسع عشر بدأت تتراجع ليحل محلها نوع جديد من المنشورات. وكان هذا الشكل الجديد من المنشورات يستهدف الطبقات الوسطى المتنامية، وكان يكتب للقراء العاديين، وليس جمهور المثقفين. وكان يغطى البلاد كلها لأول مرة. وتعتبر هذه النقطة الأخيرة مهمة لتكوين الهوية القومية. وقد أظهر Benedict Anderson (1983) الدور الجوهرى لرأس المال الثقافى فى القومية الحديثة. إذ يقول إن تصورات الناس عبر البلاد أصبحت مرسومة معًا فى إطار مشترك من خلال وضع الاهتمامات والقضايا من مختلف أنحاء البلاد معًا على صفحات الصحف والمجلات. حيث تصور هذه المجلة الأهداف والاهتمامات القومية، وتقوم بتوحيد قرائها فى مجتمع قومى واحد، من خلال مخاطبتهم كأمريكيين صراحة. وهكذا أصبحت المجلة مصدراً فريداً لاستكشاف الطبيعة المتغيرة للهوية الأمريكية الأساسية.

وتعتبر هذه المجلة مهمة لدراسة الهوية القومية الأمريكية لعدد من الأسباب المحددة. فأولاً، حققت المجلة أعلى معدل اشتراكات فى المجلات فى الولايات المتحدة باستثناء "دليل التليفزيون" و"مودرن ماتيورتى"، وحققت معدل إعادة اشتراك مرتفع يصل إلى حوالى ٧٠٪. مما يشير إلى ارتفاع ولاء القراء. ونظراً لبيع أكثر من ستة عشر مليون نسخة من المجلة شهريًا فى أمريكا، فإنها تمثل حضوراً هامًا فى التمثيل اليومى لهوية وهدف الشعب الأمريكى. ثانيًا، تعرض المجلة نفسها كحامية للمثل الأمريكية. حيث لا تصف الأحداث ببساطة، فهناك دائمًا قيمة وراء كل قصة. وثالثًا، نظراً لأن المجلة تضع مقالات عن الشئون الدولية إلى جوار موضوعات ذات أهمية شخصية للفرد، فإنها تربط بين الاهتمامات الشخصية والمعنوية والقضايا العالمية والقومية. ويمكن أن يساعد تحليل محتوى المجلة على عرض صورة لكيفية جعل القضايا السياسية تتناسب مع الأفراد الذين ليس لديهم علاقة مادية مباشرة أو واضحة بهذه القضايا.

لقد استقر محتوى ونمط المجلة واستمر بدون تغيير، مثل المنتج الأصلى الذى قدمه مؤسسها دى وت والاس، الذى حررها من ١٩٢٢ إلى ١٩٧٣، ومنذ صدورها إلى اليوم، نجحت المجلة فى وضع نفسها فى قلب الهوية الأمريكية التى دارت حول جيوبوليتيكا الحرب الباردة، لدرجة أنها أصبحت بطريقة ما رمزاً لثقافة الحرب الباردة الأمريكية. وتحاول المجلة الآن فهم السياسة الدولية التى يمكن تحديد الدور والمصير الأمريكى فى إطارها، وذلك مثل أمريكا المحافظة بصفة عامة. ويتناول هذا الفصل مشاركة المجلة فى نهاية الحرب الباردة، والاستراتيجيات اللاحقة التى استخدمتها، لأن خريطتها للمجال الدولى واجهت تحدياً كدليل موثوق فيه على مكانة أمريكا فى العالم. وسنقدم فى الصفحات التالية تحليلا بنى على قراءة تفصيلية لكل المقالات التى نشرت ما بين ١٩٨٦ و١٩٩٤ والتى تتناول التهديدات التى تعرضت لها الولايات المتحدة والطريقة الأمريكية، ودور ورسالة أمريكا، والدور الذى يجب أن يلعبه المواطنون الأمريكيون الصالحون فى الحفاظ على المكانة الدولية لأمريكا(١).

نهاية الحرب الباردة

إننى أتوقع أن يربط العديد من الناس بين بواكير نهاية الحرب الباردة ووصول ميخائيل جورباتشوف لمنصب الأمين العام للحزب الشيوعى السوفيتى. ومع ذلك، فإنه بينما كان معظم العالم يرحب بجورباتشوف وإصلاحاته كبشير على نهاية الخطر الدولى، كانت المجلة تستشعر فى هذا القائد الجديد تهديداً أكثر خطورة للأمن الأمريكى وتخوف العالم الديموقراطى. ونقلت المجلة هذا التفسير الحذر للوجود السوفيتى من خلال قصتين متميزتين، وفيما يلى مثال على عرضها الجيوبوليتيكى الخاص للعالم الذى أبرز ودعم فن الحكم الأمريكى.

أما القصة الأولى، فكانت ترفض قبول قدرة الاتحاد السوفيتى على التغيير، فعقلية هذا "المحارب البارد" لا تستطيع استيعاب حقيقة وجود نظام عالمى غير النظام

الثنائى لقوتين عظيمتين متعارضتين. واستمرت هذه القصة فى عرض السياسة الدولية فى إطار هيكل الحرب الباردة، مع اعترافها بوجود تغيرات شكلية فقط فى النظام السوفيتى (Evans and Novak 1987) وفى الحقيقة فإن إصرار المجلة على صنع التغيير أدى إلى زيادة قوة جيوبوليتيكية الحرب الباردة لديها: حيث لم يمثل تعبير جورباتشوف عن التغير المرحلى سوى استمرار للمكر الشيوعى المتمثل فى إغراء الشعوب والأمم بتقديم مظاهر إيجابية تساعد على تحويل الاهتمام بعيداً عن النوايا (التوسعية) الحقيقية.

ثانيًا، اعترف كتاب المجلة فى مقالات أخرى بأهمية التغيرات فى الاتحاد السوفيتى، ولكنهم تشككوا فى النوايا الحقيقية التى تكمن وراءها. وكما حدث فى السبعينات عندما عبرت المجلة عن مخاوفها من ظهور ضعف بسبب سياسات الانفراج تجاه العالم الشيوعى، فإنها الآن قلقة من أثر "ملصقات جورباتشوف الكثيرة جداً" (ريتشارد نيكسون، مقتبس فى Barnes 1988: 89)، الذى اعتبر نوايا الاتحاد السوفيتى حسنة. ويقول أحد المؤلفين فى ١٩٨٩ إن "مقترح جورباتشوف لعالم خال من الأسلحة النووية كان مجرد محاولة للتودد للرأى العام فى الغرب" (Adelman 1989: 69)

ففى مقابلة مع رونالد ريجان، قدمت المجلة الأمر للرئيس على أنه "هناك اتفاق على أن جورباتشوف يكسب حرب الدعاية فى أوروبا"(Reader's Digest 1990: 54) وكان انتشار هذا القبول العام لنوايا جورباتشوف هو الذى أزعج المجلة، وكان يبدو أكثر أهمية من القوة العسكرية أو السياسية. فكانت المجلة ترى أن لدى جورباتشوف هدفا يعد:

"الأكثر طموحًا مقارنة بأى قائد سوفيتى آخر،]وهذا [له معنى واضح لدى التحالف الغربى. وهو لا يقبل تحقيق تكافؤ أخلاقى كامل مع الولايات المتحدة فى أعين العالم ... وهو شديد الأهمية بالنسبة لموسكو، لأن العالم سيعتقد أنه لا يوجد فرق كبير بيننا"(Rosenthal 1988: 71-2)

وبالرغم من أن أمريكا تقف كقوة عظمى وحيدة عند نهاية الحرب الباردة، إلا أن قدر أمريكا الواضح مهدد لأنه لم يعد هناك "إمبراطورية شر" تحظى بإجماع عام ويجب الاستمرار فى الكفاح ضدها كبطل - أو نموذج - "للعالم الحر".

ويقول John McClure (1994) إن خسارة تحديد الدور القومى تعتبر أمراً خطيراً لدولة فى حالة تدهور امبريالي. ويرى أن ما يفسد هيكل الهوية من داخله هو رغبة خيالية فى الفوضى وعدم التأكد الذى يمكن اجتيازه من خلال محاولات بطولية مختلفة. وتعتمد حجة مك كلور على تحليل الأدبيات، ولكننى أدعى أن الرغبة فى عالم من التغيير يمكن قراءتها أيضًا فى القصص الحقيقية للعلاقات الدولية. وبالنسبة للمجلة فإن العالم عبارة عن مشهد أخلاقى تقدم فيه الدول المختلفة مساحات كأراضى اختبار للسلطة الأخلاقية الأمريكية. وتتطلب هذه الصيغة للهوية القومية هدفًا منظماً وخطراً تستطيع الولايات المتحدة الانتصار عليه. وكما أن (Edward Said 1978) رأى الثقافة والهوية الأوروبية مكتوبتين فى نصوص "المستشرقين" الذين يصفون أماكن أخرى، فإن وصف المجلة لتهديدات أمريكا - أى "الآخرين" بالنسبة للمجلة - يقول الكثير عن فهمها للثقافة والهوية والرسالة الأمريكية. ومثل الكثير من ثقافة الحرب الباردة الأمريكية المسيطرة، عرضت المجلة فوضى المناطق الأخرى التى تقع خارج نطاق تعريفها للحرية والديموقراطية. وقد سمح هذا للمجلة ببناء أجندة معيارية يمكن من خلالها فرض النظام على هذه الفوضى العالمية. ويعنى هذا أنه عندما يكون أعداء أمريكا غير معروفين بوضوح، فإنه يصعب تحديد الهوية بهذه الطريقة.

ويعتمد تقدير المجلة "للمصير الأمريكى" والهوية الأمريكية على وجود تهديد معروف فى مكان ما، مهما كان هذا التهديد. ويفسر مك كلور هذا المطلب كما يلى :

"بدون وجود الأماكن الفوضوية، أو الأماكن التى شوهتها الحرب، يستحيل تحديد الانحرافات والضلالات، والمطالب والغزوات والتحولات، والمحن والتضحيات والانتصارات التى تمثل مادة الخيال. وهكذا فإن أعداء الخيال فى النهاية ليسوا الأعداء الأجانب الذين يمكن صدهم بهذه المقاومات الأساسية : عالم الحسابات العادية والتقليدية والتوفيق الذى ينطلق منه أبطال الخيال دائمًا"(McClure 1994: 3)

ويتضح كيف اعتبرت المجلة الاتحاد السوفيتى مصدر تحفيز للهوية الأمريكية، وليس تهديداً مادياً للبلاد، من حقيقة أنه بمجرد أن تصبح المنطقة أكثر اضطراباً – عندما كانت الأحداث متدفقة – كان يحدث "تراجع" فعلى فى التغطية (انظر جدول ١). فبمجرد أن تفتتت وحدة العالم الشيوعى أخيراً، لم تهتم المجلة كثيراً بظهور يلتسين أو تشيرينوفسكى، أو بالمعارك المستمرة على السيادة الإقليمية، أو امتلاك الأسلحة.

ولم يعد الاتحاد السوفيتى يجسد إمبراطورية الشر التى تقف فى وجه مصير أمريكا الواضح. وبدلاً من ذلك، بحثت المجلة عن مواقع جديدة تواصل فيها كفاح أمريكا التاريخى.

جدول (١) مقالات ريدرز دايجست الخاصة بموضوعات الخطر والهوية الأمريكية، ١٩٨٦–١٩٩٤

الموضوع / الفترة الزمنية	١٩٨٨–٨٦	١٩٩١–٨٩	١٩٩٤–٩٢
روسيا والشيوعية (أ)	٤٨	٥٠	٣٤
الإرهاب	٦	٨	١
المخدرات	١٣	١٩	٥
اليابان والاقتصاد	٧	٩	١٠
الخطر المحلى (ب)	٢٧	٧٦	٥١
الحلم الأمريكى والقيم الأمريكية	١٣	٢٥	١١

ملاحظات :

(أ) قبل منتصف الثمانينات كان عدد المقالات المنشورة عن روسيا والشيوعية أعلى بكثير. حيث كان معدل المقالات لكل ثلاث سنوات نحو إحدى وستين مقالة، وذلك خلال الفترة ما بين ١٩٧٤و١٩٨٥، وكان الرقم أعلى كثيراً فى سنوات العقدين السابقين.

(ب) تشمل هذه الفئة مقالات عن البيروقراطية، الحكومة الكبيرة، السلامة السياسية، الضحايا والظلم.

"الآخرون" الجدد

تصر نظريات مواقع الدول القومية على أن استمرار الهوية يتطلب تحديد واحتواء وتمييز عدو خارجي. إذ يقول عدد من المنظرين إن عملية تحديد عدو خارجي تمثل جزءاً أساسيًا من السياسة "المحلية (Dalby 1990) ولذلك تعتبر ضرورية لتكوين الهوية القومية (Campbell 1992) حيث افترضت معظم الكتابات المتعلقة بنهاية الحرب الباردة أنه مع زوال الشيوعية ككيان معارض للولايات المتحدة، ستظهر تهديدات أخرى فى المجال الدولى. وتمثلت التهديدات الأخرى المتوقعة فى الإرهابيين (خاصة الأصوليين الإسلاميين)، وتجار المخدرات، واليابان فى مجالات التجارة الدولية ;Campbell 1992) (Der Derian 1992 حيث غطت المجلة كلاً من هذه الموضوعات خلال الحرب الباردة، ولكن اتضح فى أواخر الثمانينات أنها أصبحت أكثر إلحاحًا. وكذلك فإن المحاربين البارزين بالمجلة – ومنهم إيوجين ميثفن، رالف بنت، رولاند إيفانز، روبرت نوفاك – صرفوا انتباههم من الشيوعية إلى هذه المصادر الأخرى للخطر على أمريكا. وسوف أتناول الآن باختصار كل تهديد جديد كدليل آخر على الأبعاد الشعبية للمنهج الجيوبوليتيكى، وتفصيلاته اليومية من خلال النصوص الشعبية.

الإرهابيون

يمكن أن يمثل الإرهاب بالنسبة للولايات المتحدة نفس سيناريو "الحرب الشاملة" مثل الحرب الباردة: حيث تظهر الحاجة إلى اليقظة الدائمة والأعمال الاستباقية لمواجهة ما يوصف غالبًا بأنه تهديد مستمر. فأى شخص يمكن أن يصبح إرهابيًا كما أن أى شخص كان يمكن أن يكون شيوعيًا فى الماضى. ولا يوجد خط جبهة فى محاربة الإرهاب: فالأعمال الإرهابية يمكن أن تحدث فى أى مكان فى المجتمع. وبينما كانت المقالات السابقة تقدم معلومات عن كيفية التعرف على الشيوعى، أصبحت المقالات الآن تقدم للقراء معلومات عن كيفية التعرف على الإرهابى فيما بينهم.

وكانت المجلة تقارن الإرهاب بالشيوعية بصورة مباشرة وغير مباشرة. فمثلاً، كتب أحد المؤلفين فى ١٩٩٣ "كما كانت موسكو بالنسبة للعالم الشيوعى، أصبحت طهران بالنسبة للثورة المقدسة والأصولية العالمية الراديكالية"(Adams 1993: 76-7)

وكما تعاملت المجلة مع الشيوعية، كانت سريعة فى عرض أعمال الإرهابيين على أنها ناتجة عن دوافع سيكوباتية سوداء، وليس عن أهداف عليا. وهنا تشير المجلة إلى أن القراء يجب ألا يتوقعوا من الإرهابيين أن يظهروا أى ندم أو أية صفة إنسانية أخرى. ويدعى أحد المؤلفين – نيتانياهو (رئيس وزراء إسرائيل السابق) – أن "الإرهابيين يعدون القتلة، ويفخرون بأعمالهم بتبجح، ويدعمون أعمالهم بدعاية سياسية ذكية" (Netanyahu 1986: 110-11) ويدعى أحد المؤلفين، وهو يصف اختطافه فى بيروت، أنه كان يتوقع أن يكون خاطفوه "متعصبين وأتقياء" ولكنه يصر على " أننى لم أرهم يصلون أبداً (Glass 1988)(٢) وهذا يكرر تأكيدات المجلة السابقة على نفاق القادة الشيوعيين الذين كانوا يدعون إخلاصهم لأيديولوجية المساواة الشيوعية، ومع ذلك كانوا يتمتعون بثروات ضخمة على حساب شعوبهم.

وصور مقال سابق خطوط المعركة بناءً على التقسيم التقليدى للشرق والغرب، ومقولة "الإرهاب : كيف يمكن أن يفوز الغرب" (Netanyahu 1986) وعقب تفجير مركز التجارة العالمى عرض تقرير عن نظرية "الدومينو" وأثرها على تدمير الولايات المتحدة معتبرا أن ذلك هو الطموح الأساسى للأشرار. حيث يدعى المقال أن "الولايات المتحدة ستظل أهم هدف للإرهاب العالمى" فى نظر الملالى الذين وصلت كراهيتهم للولايات المتحدة إلى مستويات جنونية (Adams 1990) وقد يودى أثر جماعات الضغط الشرق أوسطية داخل الولايات المتحدة إلى زيادة انتشار هذه العقلية المستعدة للحرب.

المخدرات

كما كان الحال فى المقالات السابقة عن الشيوعية، كان المتورطون فى المخدرات يعتبرون أشراراً وخطرين ومنحرفين. حيث قالت المجلة فى "ملك الكوكايين : دراسة فى

الشر" إن زيادة قوة ملوك المخدرات سمحت لهم بأن "يصنعوا من أنفسهم حكومة سرية، تفسد المجتمع كله" (Adams 1988: 228) وبأسلوب مماثل لوصفها المرعب للشيوعية خلال الحرب الباردة، تتهم المجلة الآن ملوك المخدرات بأن لديهم طموحًا كبيرًا: "قدوته : أدولف هتلر. هدفه : تدمير الولايات المتحدة، ليحكم مملكة الكوكايين. هذه هى قصته"(Adams 1988: 230)

لقد كانت المهمة أصعب على المجلة عندما أرادت أن تقول إن قراءها معرضون لخطر أكبر بسبب المخدرات، مقارنة بتهديد الشيوعية. وحاولت بعض المقالات أن تقوم بهذا باستغلال تشبيهات مرضية كانت سائدة خلال ذروة الحرب الباردة. حيث قال أحدهم إنه "لا يوجد شخص محصن ضد عدوى الكوكايين [المدمرة"(Hurt 1988) واحتوت مقالات أخرى حكايات عن صراع أشخاص عاديين ومحترمين مع المخدرات التى كانوا يعتقدون أنها لا تمثل خطرًا عليهم (مثل "الأبطال الذين اختاروا المخدرات" فى مايو ١٩٩١).

وتركز المجلة بصورة متزايدة على توضيح مخاطر الآثار الثانوية لإساءة استخدام المخدرات. وتقول إنه كما كان الحال بالنسبة للشيوعية، ستؤدى المخدرات إلى تدمير المجتمع الأمريكى تدريجيًا ما لم تتم مواجهتها: أى أن العملية كانت حتمية لدرجة أن المجلة توقعت النتيجة. وتقول المجلة إن الحرب ضد المخدرات هى "حرب كل فرد". وحتى فى القرى "الرعوية"، يمكن أن ينتشر استخدام المخدرات بسرعة، ما لم يسيطر النظام والمعايير الأخلاقية، خاصة بين الشباب. وفى أطلق مقال تحذيرا عنوانه "التصدع يجتاح الريف". ففى هذه القصة كانت قرية فى فرجينيا الغربية فى "صراع الموت والحياة ضد المخدرات، ولكنها كانت تخسر" (McConnell 1989) وقدم المقال درسًا لكل الأمريكيين فى هذه القصة: حيث أنقذت شجاعة وأعمال المواطنين القرية. ولكن أية منطقة معرضة للاجتياح. وكما كان الأمر خلال الحرب الباردة، نصحت المجلة القراء بالتحرك الآن قبل أن يداهمهم الخطر وقبل فوات الأوان: "إذا لم تساعدنا الآن،

فإن الخطر سيداهم مجتمعك أيضاً (أبى براون، مقال بعنوان "منظم المجتمع"، مقتبس من (Methvin 1991: 57).

وترى المجلة أن المشكلة الحقيقية التى تواجه أمريكا لا تتمثل فى المخدرات ذاتها، ولكنها تتمثل فى المواقف الاجتماعية تجاهها. حيث يعتقد كتاب المجلة أن المؤسسات الأمريكية يجب أن تكون متحررة جداً فى موقفها من استخدام المخدرات. ويمكن إرجاع هذا الموقف المتساهل إلى استمرار موقف التسامح فى الستينات والسبعينات. ولكن المجلة تتبنى موقفاً صارماً من ثقافة المخدرات، لدرجة أنها تدين كل الذين كانوا متورطين فيها. ولم يستثن سوى أولئك الذين عارضوا بفعالية استخدام المخدرات:

"يجب ألا ننسى أبداً أن العدو الذى نواجهه ليس مادة كيماوية ولا دولة ولا حالة اجتماعية، ولكنه كل فرد يبيع أو يستهلك أو يتسامح فى تداول المخدرات" (Reader's Digest condensation 1989: 88)

الاقتصاد والخوف من اليابان

كانت المجلة موجهة إلى الحفاظ على التفوق الاقتصاد الأمريكى. ففى تصوير المجلة لأمريكا كقائدة للعالم ظهر الإيمان القوى بالتفوق الأمريكى الاقتصادى والصناعى. والأهم من ذلك أن سيدة العالم تظهر ثقافة تجسد الروح الصناعية بوضوح (House 1989) والمجلة متأثرة بالإيمان بقوة التفاؤل، ولكن التفكير السلبى والانتقاد سيؤدى إلى إضعافه. "فالحلم الأمريكى" ذاته عبارة عن قصة تفاؤل بأن أى فرد أمريكى سيتمكن فى النهاية من "تحقيق" ذلك الحلم. وكانت المجلة تسخر من أولئك الذين تخلوا عن الفرص الأمريكية فى القيادة الاقتصادية مستقبلاً. فمثلا، وصفت سلسلة من المقالات تحت العنوان العام "أمريكا الصاعدة" فى ١٩٨٩ قدرة الاقتصاد الأمريكى عن طريق سلسلة من القصص عن أفراد جعلوا مشروعاتهم ناجحة بذكائهم وعملهم الجاد وإصرارهم، فى مواجهة "دعاة التشاؤم" (Gilder 1989)

وغالبًا ما تربط المقالات الاقتصادية الأوضاع فى أمريكا بالأوضاع فى اليابان. ويقول البعض إن الأمريكيين يجب ألا يحسدوا اليابانيين بسبب انخفاض مستوى معيشتهم والعمل الشاق الذى يعانونه. وجاء فى إحدى المقالات أن "أسرة مياكاو لا تتوقع مطلقًا شراء منزل، وهذا هو الحلم التقليدى لكل يابانى" (Shear 1991: 44) ولا شك فى أن اختيار هذا المثال لم يكن عشوائيًا. ونظرًا لأهمية ملكية المنزل فى الحلم الأمريكى، فإن إنكار النظام اليابانى لملكية المنزل (وليس أى نوع آخر من الاستهلاك) على هذه الأسرة الكادحة كان المقصود منه التأثير على مشاعر القراء.

ومع ذلك، هناك مقالات أخرى اعتبرت الاقتصاد واقعًا تحت تهديد. وأحيانًا ما كان يستعرض كما لو كان ساحة حرب، حيث اقترح (1986) Eugene Methvin أن تستخدم أمريكا "سلاحنا الدفاعى الجديد – المنافسة". وعلى ساحة المعارك الاقتصادية كان "العدو" المكتوب بوضوح هو "اليابان". وهناك كاتب آخر منتظم فى المجلة منذ الحرب الباردة اشتكى من أن اليابان "لن تلعب بنزاهة" فى الأمور الاقتصادية. حيث ملأ نص مقاله بعناوين فرعية عرضت الاقتصاد بمصطلحات عسكرية "حالة الحرب الاقتصادية"، "استهداف السيطرة" و"المواقع المستأجرة"(Barnes 1990: 34-6)

وعندما تصل الأمور إلى ذروتها، فإن هذا العرض لليابان يقدمها من خلال مصطلحات كانت قاصرة فى السابق على الدولة السوفيتية الامبريالية. وقد حذرت المجلة من مخاطر السلبية الأمريكية. إذ جاء فى أحد المقالات فى ١٩٩١ "لا تعيدوا تسليح اليابان" ,وجاء أيضًا "إذا ظهرت أمة محبة للحرب ثانية، فلن نلوم إلا أنفسنا ... فآسيا تغريهم كما فعلت بالجنرالات اليابانيين الذين يعبدون ظلالهم":Rosenthal 1991) (59 ففى الحرب الباردة كانت أية منطقة محايدة تعتبر كأنها تمثل إغراءً لا يقاوم للسوفيت. وكذلك الآن، فإن أى تهاون فى احتواء اليابان سيطلق نفس الرغبة التوسعية.

وترى المجلة المخاطر الأخرى المهددة للقيم والهوية الأمريكية مستمرة حتى هذه الفترة مع ظهور تهديدات جديدة، خاصة الإيدز، ولكن ليس هناك منها ما يقترب من

احتلال مكانة الشيوعية كمنافس للأنا الأمريكية. فربما أدرك محررو المجلة أن الشيوعية كانت في الحقيقة خطراً فريداً يمكن تشكيل الهوية والرسالة الأمريكية في مواجهته. وكما يقول ديفيد كامبل عن الثقافة السياسية الأمريكية عامة:

"تعتبر عمليات مناهضة الشيوعية أفضل الأمثلة التي تضرب لتوضيح خطاب بارز عن الخطر في الولايات المتحدة طوال القرنين التاسع عشر والعشرين- مع قدرته على شمول جميع السكان، وتشكيل ممارسات الحياة اليومية بكثافة، والربط بين التهديدات الداخلية والخارجية بطرق تحدد حدود الشرعية"(Campbell 1992: 196)

ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة للأخطار الحديثة. فبالرغم من التفصيل الواضح للإرهاب، وثقافة المخدرات، واليابان وغيرها بلغة معارضة الحرب الباردة، إلا أنه لا يجب المبالغة في أهمية هذه الموضوعات. ويوضح جدول (١) أن الأهمية النسبية لهذه الموضوعات - عندما تقاس بحجم المقالات - تعتبر أقل أهمية من الشيوعية بكثير. حتى فيما يتعلق بالآثار اللاحقة لتفجيرات مركز التجارة العالمي، وفشلت المخدرات في اجتياح الأمة بالمستويات المرتفعة التي كانت متوقعة في الثمانينات، وقد يكون الاقتصاد مفهوماً غير ملموس بحيث لا يؤثر على تشكيل الإحساس بالهوية القومية[٣].

"البرابرة ليسوا على الأبواب، إنهم بالداخل"

تكشف الأهمية النسبية للتهديدات التي تواجه أمريكا كما تراها المجلة عن قصر النظر النقدي السائد في تنظير الهوية القومية الأمريكية. فهذه النظريات تحتويها نظرية واقعية (جديدة) تفترض أن تركيب نظام الدولة العالمي، وليس الخصائص المحددة تاريخياً لمجتمعات الدول المختلفة، هو الذي يحدد ويشكل الأحداث السياسية. فبالنسبة للحسابات التقليدية، يؤدي تفكك نظام الثنائية القطبية، والفوضى الواضحة في نظام الدول متعددة الأقطاب، إلى تشكيل خصائص أمريكا والنظام العالمي مستقبلاً. ويرى الكثير من المنظرين والمعلقين أن التهديدات الإقليمية المتعددة ستحل

محل التهديد السوفيتى، وأن هذه التوليفة من "الآخرين" هى التى ستولد أعظم " خطر" فى السياسة الدولية المضطربة متعددة الأقطاب (Mearsheimer 1990) وقد وقع بعض المحللين النقديين ضحية هذه القوالب النظرية التى تتوقع أن عناصر الثقافة الأمريكية المسيطرة ستبحث عن مصادر خارجية للخطر، بحيث تستطيع الثقافة السياسية الأمريكية المحافظة كتابة تصورها للهوية الأمريكية فى مواجهتها. ويتطلب هذا الفهم للسياسات المكانية لهوية الدولة القومية وجود خطر خارجى لتكوين إحساس قوى بالذات (Campbell 1992) فمع نهاية الشيوعية، ستبحث الولايات المتحدة ببساطة عن وجود شرير آخر للاستيلاء عليه من الاتحاد السوفيتى.

ومع ذلك، فإن الذى يميز الثقافة السياسية الأمريكية المحافظة فى أواخر الثمانينات، وخاصة منذ أوائل التسعينات، ليس الاهتمام بالتهديد الخارجى الجديد، بل الاهتمام بالجماعات الخطرة داخل أمريكا. حيث يكشف تحليل لمحتويات المجلة منذ نهاية الحرب الباردة كيف أنها تحولت إلى واحد من مخاوفها الدائمة بالنسبة للمجتمع الأمريكى، ألا وهو زيادة قوة الحكومة المركزية، وثقافة التبعية الناتجة عن ذلك (انظر جدول ١). وترى المجلة أن التهديد المباشر "لأمريكا" يتمثل فى ضعف المعنويات وتحلل الشعب الأمريكى. وكما يقول أحد الكتاب "البرابرة ليسوا على البوابات إنهم بالداخل" (Sowell 1994: 180)

أمريكا بعد الحرب الباردة

ثمة فكرتان مرتبطتان بأوضاع أمريكا فى أوائل التسعينات تمكنتا من السيطرة على اهتمام المجلة، وهما الاهتمام بالحكومة الكبيرة والبيروقراطية، والخوف من التدهور الأخلاقى، خاصة فيما تطلق عليه المجلة ثقافة "الضحية". فبالرغم من أن هذه الاهتمامات كانت بارزة فى المجلة لعقود، إلا أن مستوى التغطية وحجم المشاكل المطروحة تزايد فى أعقاب الحرب الباردة. حيث ترى المجلة أن الحكومة الكبيرة جداً تعقد كل المشاكل الأخرى. وقد حاولت المقالات المتعلقة بالحكومة الأمريكية توضيح عدم

الكفاءة التى تتراوح من النوايا الحسنة الفاشلة إلى الإفراط الفاضح. وقدم معظم المقالات السابقة روايات عن محاولات الحكومة غير الفعالة لمساعدة الفقراء أو المتضررين. ففى معظم الحالات كانت المجلة ترى أنه يجب ترك الناس لينقذوا أنفسهم، لأن مساعدة الحكومة تؤدى إلى التواكل فقط.

ويفسر أحد مقالات المجلة فى ١٩٨٩ موقفها من مخاطر "التدخل" الحكومى بصورة واضحة من خلال قصة مواطن بيروفى وطنى ناجح – هيرناندو دى سوتو – الذى عاد إلى موطنه بعد سقوط الحكومة الاشتراكية (Methvin 1989) حيث وجد مستوطنتين على أرضه تم تأسيسهما فى نفس الوقت، ومع ذلك كانت إحداهما غنية، بينما كانت الأخرى فقيرة. وقد طرح فى مقاله سؤالاً: لماذا يكون بعض الناس (وكذلك بعض الدول، باستخدام منطق تعميم محل شك) أغنياء والبعض الآخر فقراء؟ ونظراً لأن كل المستوطنين فى أرضه كانوا من السكان المحليين، فقد استنتج أن الفرق لا يرجع إلى عوامل ثقافية، ولا يمكن أن يرجع إلى مؤثرات خارجية نظراً لصغر المنطقة المعنية. وبالتالى ادعى أن المجتمع الأغنى كان ناجحًا لأن أعضاءه ظلوا "يضايقون" موظفى الحكومة حتى حصلوا على حقوقهم فى أراضيهم. فاستثمر هؤلاء الفلاحون المحظوظون أجورهم فى تحسين ممتلكاتهم وأصبحوا أغنياء (Methvin 1989: 140) ولم يستطع الفلاحون الفقراء تحسين أوضاعهم بسبب فشلهم فى مواجهة البيروقراطية الحكومية. وهكذا اختتم دى سوتو تقريره :

"إننى أعرف الآن لماذا توجد دول فقيرة ودول أخرى غنية.... فنحن عالم مكون من ١٦٩ دولة"، نجح منها حوالى خمس وعشرون دولة فقط اقتصاديًا. وقد استطاعت هذه الدول تحقيق ذلك لأنها جردت الحكومات من السلطة وذلك كى تحرم المواطنين البسطاء من ثمار صناعتهم وإبداعهم. ويتم كل ذلك من خلال التشدق بكلمة واحدة "الحرية" (Methvin 1989: 140)

وكثيراً ما تلوم المجلة الحكومة الأمريكية على محاولاتها "الحد" من الحرية الشخصية: "لماذا يحاولون دائمًا نزع حريتنا؟ " هكذا كان سؤال أحد مقالات المجلة

(Armbrister 1986) وتلوم المجلة البيروقراطية الحكومية أيضاً على تسببها فى مشاكل كثيرة تتراوح بين "عرقلة وكالة الاستخبارات المركزية" (Evans and Novak 1986)، إلى زيادة الإنفاق من خلال الضرائب (Brookes 1987) وفرض عقوبات اقتصادية أضرت بمصالح السود فى جنوب إفريقيا العنصرية (Reed 1989)

وهناك تعارض – يسرى ضمناً فى المقالات المذكورة سلفاً، وصراحة فى غيرها – بين "الحلم الأمريكى" ووضع اجتماعى جديد أطلقت عليه المجلة "ثقافة الضحية". فخلال الحرب الباردة، كانت فردية الحلم الأمريكى متضمنة فى تقارير المجلة عن القيود غير الطبيعية على "الطبيعة الإنسانية" فى ظل الشيوعية. وطوال أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات ظهر "الحلم الأمريكى" من أطراف مقالات عن "الضحايا" اعتبرت أن الفردية الأمريكية سحقها أناس توقعوا تقديم كل شئ لهم كحق. وظهر مقال فى ١٩٩٣ يوضح أن "بعد تجريد" دور الضحية من دعاواها، نجدها أيديولوجية للأنا، ودافعاً لإنكار المسئولية الشخصية (Sykes 1993) فعندما يعتقد الناس أن حياتهم ليست جيدة، يمكنهم التصرف بصورة سيئة بدون تحمل المسئولية، بعقلية "هذا ليس خطأى ! Hamill 1991; Reed 1994: 114.

ولا يقتصر الأمر على أولئك الذين يتوقعون الكثير بسذاجة. ولكن هناك تلاعبا من "الضحايا المحترفين العصريين"، الذين يفوق عددهم "أصحاب الحركات النسائية الراديكالية، والأقليات العرقية، والشواذ جنسياً، والنشطاء". وتقول المجلة إن هؤلاء الناس يأخذوننا" فى رحلة عقابية إلى حقل ألغام ولا يعنيهم أين نخطو، "فنحن" فى مشكلة" (Epstein 1991: 122) [٤].

وتفرض عقلية الضحية تحدياً قوياً على النظرة المثالية للمجلة إلى المجتمع الأمريكى الذى يتمتع فيه كل فرد بإمكانية "النجاح". فبدلاً من تحقيق هذه الإمكانات من أجل النجاح، يرى محررو المجلة أن الأمريكيين يتراجعون إلى تقبل المساوئ، وقبول فكرة أن عدم المساواة تعنى أن ليس كل فرد يستطيع النجاح فى أمريكا، أو أن ذلك لا

يتحقق إلا بمساعدة الدولة على الأقل. فإذا لم ينجح الناس فإنهم يلومون "النظام"، وليس قلة مجهودهم وذكائهم. وهذا يقوض روح الفردية الجوهرية فى فهم المجلة للهوية الأمريكية. وبحسب مقال فى ١٩٩٢ عن انخفاض قدرة الحلم الأمريكى على تشكيل الهوية القومية، فإن :

"هذا لم يكن فى أذهان "آبائنا المؤسسين" عندما أودعوا فى "إعلان الاستقلال" الحق المطلق فى "الحياة والحرية وتحقيق السعادة"... فقد حرف أمريكيون كثيرون حقنا فى السعادة مخادعين إيانا بأنه "يحق" لنا تحقيق السعادة. فإذا لم نحصل على ما نريده تماماً، فإننا نفترض أنه لابد أن شخصا ما انتهك حقوقنا"(Jacoby 1992:129)

لقد كانت المجلة محقة بصورة ما. ففى الطريق إلى "العالم الجديد" عرض جون ونتروب الاستثنائية الأمريكية فى نموذج "الخيرية المسيحية". فكان يرى أن الحقيقة البارزة فى الإنسانية هى عدم المساواة. إذ يقول إن إرادة الله كانت مع الاختلاف وعدم المساواة. وبالرغم من أن هذا قد يثير العداء,إلا أنه جعل "خلقه" أكثر روعة لأن مجموعة البشر ستضطر إلى الاعتماد على بعضها. ويدعى أيضًا أن هذا سيقوى المجتمع فى العالم الجديد (Dolan 1994) ولكن المجلة وصفت بشكل سطحى هذا المنظور فى قالب علمانى (بالرغم من وجود نبرة شبه دينية) لتقول إن تساوى الفرص يجب أن يكون فى قلب الديموقراطية الأمريكية وليس المساواة فى حد ذاتها، فالمساواة بحسب المجلة ضد الطبيعة (Sharp 1996)

ويعتبر تشكيل الهياكل فى المجتمع – والذى تتطلبه فكرة الضحية – مناقضًا لرغبة المجلة فى تشجيع الإمكانات الفردية. وكذلك يتناقض هذا مع فهم المجلة للمجتمع الذى يتكون من مجرد مجموع أجزائه الفردية المستقلة. وتتساءل المقالات "ما الذى يوجع أمريكا حقًا؟" (Bennett 1994) وتكررت الإجابة مرات عديدة : تدهور المعنويات والمسئولية الشخصية أدى إلى مفهوم الحواجز والعجز (Reader's Digest editorial re-view 1987) وترى المجلة أن أمريكا فقدت رؤية الحقائق المعنوية التى تعطى معنى

لحياتنا (Bennett 1987) إذ إن الحقائق المعنوية تركت المجال لعقلية "أى شئ يصلح". وترى المجلة أن قبول الاختلاف - الذى يبدو لكتاب المجلة فى صورة تقبل أو تشجيع التعددية الثقافية، وعرض التواريخ "البديلة"، والقيم الدينية والقوانين الأدبية فى المدارس، والجهات الحكومية الأمريكية متعددة اللغات - يعنى أن "الحقائق المعنوية" الأمريكية معرضة للهجوم(٥). وقد عرض مقال فى ١٩٩٤ لأكبر هذه المخاوف، بقوله:

"إن رؤية أمريكا بكل قوتها وجمالها وحريتها العظيمة... تخضع تدريجيًا للتدهور عن طريق الخطأ، وتتعرض للهزيمة، ليس بسبب الحركة الشيوعية، ولكن من الداخل، بسبب الضعف والملل والتشاؤم والحقد والعجز فى النهاية أمام مشاكلها الضخمة" (Bennett 1994: 201)

وتلقى المجلة كثيراً من اللوم على التدهور الثقافى الأمريكى على النظام المدرسى الذى يهدد بترك الطلاب "تائهين معنويا" (Bauer ١٩٨٧). وتصر المجلة على أن الأطفال فى حاجة إلى دروس فى الوطنية لتقدير الحرية، وتنزعج من أن الكتب المدرسية لا تقدم شيئًا عن فشل النظام السوفيتى مثلاً. وقد أعادت المجلة طباعة "المعرفة الثقافية" التى كتبها هيرش فى ١٩٨٧ لتقول إن المدارس لم تكن تقوم بدورها المجتمعى، لأنها فشلت فى تعليم المعلومات الأساسية اللازمة للحفاظ على المجتمع الديموقراطى(Hirsch 1987) حيث تتوافق هذه المعرفة الثقافية مع ما تقوم به المجلة من إنتاج للمعرفة، فهى ليست معرفة أكاديمية نظرية أو مجردة معقدة ,بل هى نوع من الإدراك العام المنظم.

ويدخل فى مقال هيرش مقال عن معايير "المعرفة الثقافية" بين طلاب جامعات كاليفورنيا الجنوبية. حيث عرض هذا التقرير على القراء حقيقة أن "عدداً قليلاً فقط من الطلاب [يستطيع توضيح لماذا تختلف الحياة فى بلد حر عن الحياة فى بلد غير حر"، واختتم بأنه فى بلد يعانى من هذا الجهل المدهش، لن يكون الشباب الأمريكى مستعداً لتحمل الحد الأدنى من المسئولية القومية - أى فهم طبيعة المجتمع ولماذا يجب الحفاظ عليه (Stein 1987: 81) واختتم هيرش مقاله بعرض المضامين الكاملة لهذا القصور فى المجتمع الأمريكى:

"يدور فى ذهنى فكرة الآباء المؤسسين عن المواطنة المتعلمة. فهذا هو المبدأ الأساسى الذى يقوم عليه نظام التعليم القومى فى المقام الأول - أنه يمكن الثقة بالناس فى النظام الديموقراطى لحسم كل الأمور الهامة بأنفسهم، لأنهم يستطيعون التحاور والتواصل مع بعضهم" (Hirsch 1987: 83)

ومن الواضح أن هذا يفرض تحديًا على إيمان المجلة بأن الديموقراطية الأمريكية تقوم على التصويت والمشكلات السياسية الأخرى التى يقوم بها المواطنون الأمريكيون "المتعلمون" ,حيث يكمن الخطر فى حقيقة أن الناس فى هذه الدولة ذات "الجهل المدهش" لن يكونوا قادرين على تمييز الخير من الشر، وبالتالى سيهددون المصير الأمريكى.

وبالرغم من هذا الإحساس الشديد بالخطر، إلا أن المجلة لم تصف الحياة الأمريكية بالسلبية أبدًا. ففى فترة ما بعد الحرب الباردة، كانت تعرض مقالات عن الضحايا مع قصص عن الانتصار على التنوع والمشاكل الأساسية. ويتضح هذا الموقف تمامًا من ملاحظة المجلة أن أحد الأطفال الأمريكيين قال : "إن مفهوم خدمة الوطن ينساب.... طبيعيًا كما يرفرف العلم الأمريكى على بيت الأسرة فى ماريلاند" (Hurt 1989: 66) وفى مجال آخر، تناول مقال فى أكتوبر ١٩٩١ صعود كولين باول إلى السلطة بالرغم من خلفيته المتواضعة (Reed 1994) وهناك مسلسل جديد يسمى "وظيفتى الأولى" يقدم مشاهير أمريكيين يتحدثون عن وظائفهم المبكرة المتواضعة ليقولوا "ليس المهم ما تكسبه، المهم هو ما تتعلمه". ويوضح مقال فى ١٩٩٢ بعنوان "من متشرد إلى شرطى كبير" مدى إيمان المجلة بقوة القرارات الفردية فى مواجهة المصاعب: فقد تعرضت جاكلين ديفز للاغتصاب وهى طفلة، وللحمل وهى فى السادسة عشر، وكان ذلك كافيًا للفشل، ولكنها "اختارت النجاح"(Michel more 1992: 179) ونتيجة لذلك، وضعت المجلة تهديدات اجتماعية جديدة تواجه الأمة الأمريكية باحتمال تحول أخلاقى وثقافى فى التسعينات.

الخاتمة

يبدو أن ادعاء المجلة فى ١٩٨٨ أن صعود جورباتشوف مثل تهديداً أخلاقيًا لأمريكا كان صحيحاً من وجهة نظر المجلة. ففى فترة ما بعد الحرب الباردة، لم يقتصر الأمر على انهيار "الفراغ الأخلاقى" للآخر السوفيتى – الذى عرفت المجلة هوية أمريكا ورسالتها على أساسه – ولكن ترتب على ذلك أن القيادة الأخلاقية العالمية الأمريكية "للعالم الحر" نزلت من عليائها أثناء الحرب الباردة.

ويزعم ديفيد كامبل (David Campbell 1992: 195) أن مجموعة الممارسات التى شكلت الحرب الباردة قدمت سلسلة من الحدود بين "الحضارة" و"البربرية"، ونتيجة لذلك قدمت هوية مؤقتة لأمريكا الآمنة كأساس للأمة. كما يذهب كامبل إلى القول بأن الاحتواء لم يكن مجرد إستراتيجية سياسية خارجية هامة تاريخيًا ،بل كان الاحتواء إستراتيجية ترتبط بمخطط الهوية، حيث تمثل القوى الأخلاقية للفصل الذى يشكل السياسة الخارجية هوية كيان يعملون باسمه، ويؤدى إلى ظهور جغرافية الشر" (Campbell 1992: 1995)

ولكن لا يمكن تحديد الجوانب الإقليمية "لجغرافية الشر" اليوم بنفس السهولة مثل الحرب الباردة. فلم تعد هناك "إمبراطورية الشر" التى يمكن تشكيل الرسالة الأخلاقية لأمريكا بناءً عليها: ولكن الإرهابيين وتجار المخدرات وسلطة الحكومة الأمريكية هم الذين يمكنهم أن يشكلوا جغرافية أخلاقية إذا اجتمعوا معًا. وبدون الاعتراف الشعبى بخصم قوى وأيديولوجى، تصبح قدرة المجلة على تحديد ورسم واحتواء الخطر محدودة جداً. وفى ظل هذا التفتيت للخطر يصعب على المجلة تقديم صورة للهوية الأمريكية بطريقة متماسكة. فمع التفتيت الذى يواجه أمريكا، تتفتت هويتها أيضًا. وتعتبر

مضامين ذلك أكبر من مبيعات المجلة. ولكن الجيوبوليتيكا الشعبية ضرورية للشرعية الثقافية لجيوبوليتيكا فن الحكم الأكثر انتشاراً. وبالتالى فإن انهيار الجغرافيات الأخلاقية – مثل التى قدمتها المجلة – يؤدى إلى تقويض القيم المقبولة والروايات التى يستمد منها القادة السياسيون صياغتهم لسياسة العالم.

ونتيجة لذلك، ظهر الخوف مع نهاية الحرب الباردة من فقدان الاعتراف العالمى بالتفوق الأخلاقى الأمريكى والتدهور الامبريالى مع هبوط الثقافة الأمريكية من عليائها فى عيون شعبها. وكما فعل فرانسيس فوكوياما فى أطروحته ذائعة الصيت عن "نهاية التاريخ"، يجب أن تعتبر المجلة نهاية الحرب الباردة "مناسبة سيئة جداً". فكما يقول فوكوياما :

إن الصراع من أجل الحصول على الاعتراف، والرغبة فى المخاطرة بالحياة من أجل هدف مجرد، والصراع الأيديولوجى العالمى الذى يتطلب الشجاعة والخيال والمثالية، ستحل محله الحسابات الاقتصادية، والحلول المستمرة للمشاكل الفنية، والاهتمامات البيئية، وإشباع طلبات المستهلكين المعقدة" (Fukuyama 1989: 16)

وهكذا توصف ثقافة نهاية الحرب الباردة عند فوكوياما بأنها ثقافة "مملة"، وهو نفس الوصف الذى نجده لدى مك كلور فى تحليله لنهاية رومانسية الحرب الباردة، معتبرين أن هذا الملل يشبه انهيار التحديات العظمى للعقود السابقة، وهى التحديات التى أعطت لأمريكا شخصيتها فى منشورات دوريات ومجلات مثل ريدرز دايجيست. وكما يقول أحد المعلقين على عمل فوكوياما، "إن تعبيره عن الملل يعنى توضيح أن الدول الحرة لا تحيل مواطنيها إلى "أهداف عليا" وتترك فراغًا يمكن أن يشغله الكسل والانغماس فى الشهوات والابتذال والرغبة فى الثروة" (Peet 1993: 64) فقد كان احتواء الاتحاد السوفيتى يعنى أيضًا احتواء "أمريكا" فى نفس الوقت: حيث ساعد على تنظيم هرم التوصيفات المحتملة لأمريكا فى كيان أخلاقى متماسك، وقدم قوة السلطة لمن اعتنقوا هذه التوصيفات. أما الآن فلم يعد هناك احتواء جيوبوليتيكى، وبالتالى لم يعد

هناك نفس العدو المشترك الذى يساعد على تماسك الأمريكيين وسعيهم لتحقيق هدف مشترك. ونتيجة لذلك. قامت المجلة وهى تسعى لترويج صياغتها للهوية الأمريكية بإعادة دمج سياسة الاحتواء فى روايات الإرهاب وتجارة المخدرات والاقتصاد، ولكنها واجهت مسألة طبيعة التغيرات فى الشخصية الأمريكية مباشرة.

وبالإضافة إلى تقديم التعمق فى طرق جذب الناس إلى العملية السياسية على أساس يومى، فإن هذا النوع من التحليل للثقافة الشعبية يواجه أيضًا النظرة إلى الهوية الأمريكية على أنها تدور دوما حول الاستبعاد المكانى لعدو خارجى. ولكن الهوية الأمريكية لا تتشكل دوما بهذه الطريقة ,لأنها تتشكل أيضًا من خلال تحديد عدو داخلى لديه إمكانات فرض تهديد أكبر بسبب تحديه لسياسات الداخل والخارج معًا.

وقد جاء فى مقال بالمجلة فى ١٩٨٨ أن "المساواة الأخلاقية" مع الاتحاد السوفيتى ستؤدى إلى تلاشى قيمنا وتصوراتنا وعواطفنا، وهذا هو خطرها الأكبر(Rosenthal 1988: 72) فربما تكون الأخلاق المفهوم الأساسى لفهم "أمريكا" من منظور المجلة، والثقافة السياسية الأمريكية العامة بشكل عام. فالأخلاق تشكل فكرة المجلة عن الرسالة والمصير الأمريكى. ولكن هذه الأخلاق هى التى تحولت من رؤية المجلة للآراء السليمة إلى منطق ثنائى بسيط للصواب والخطأ. فمنذ وقت مبكر، ١٩٨٨، أدركت المجلة المخاطر الأخلاقية لنهاية الشيوعية. فإذا لم يعد العالم قادرًا على التمييز بين الأخلاقيات السوفيتية والأمريكية، فإن الدور الأخلاقى لأمريكا سيضيع فى خضم النسبية السائدة. ولكن ضياع المكانة العالية لأمريكا فى أعقاب جيوبوليتيكا أخلاقية جديدة يعنى أن سلطة المجلة المؤيدة للجيوبوليتيكا القديمة ستواجه تحديات جديدة أيضًا. فقد شقت المجلة طريقها فى التاريخ الخاص والهوية الخاصة لأمريكا. ومع تراجع الجيوبوليتيكا الأخلاقية لهذا النظام القديم. فإن المجلة تكافح لإعادة تحديد دورها، مثل أمريكا المحافظة التى ساعدت على تشكيلها.

الهوامش

(١) هذا العمل عبارة عن جزء من مشروع أكبر يتناول دراسة مضمون المجلة ودورها فى الثقافة الأمريكية فيما بين١٩٢٢ و١٩٩٤(Sharp 2000)

(٢) يتناقض هذا بشدة مع المسلمين الصالحين فى كتاب روبرت كابلان "لماذا يحارب الأفغان" (١٩٨٩). حيث قيل لنا إن مترجم المؤلف كان يصلى خمس مرات فى اليوم ولم يظهر أى توتر عندما قال المؤلف إنه يهودى: "فى أفغانستان - لم تتسمم العقيدة الإسلامية بسياسات الشرق الأوسط" (ص(١٢٩ .

(٣) تجعل الاكتشافات الجديدة المتعلقة بالقاعدة الداخلية للهجمات الحديثة فى أوكلاهوما وأتلانتا هذا الموضوع أكثر تعقيداً، خاصة فيما يتعلق بإعادة تشكيل الهوية الأمريكية.

(٤) بالرغم من ادعاء المجلة وصولها إلى أكبر عدد من الجماعات الفرعية لكل المجلات الشعبية (تومسون، المحرر الرئيسى، (١٩٨٤-١٩٧٦ يخاطب هذا المقال صراحة جمهوراً يتكون أساسًا من "النسائيين الراديكاليين، الأقليات العرقية، الشواذ جنسيًا وغيرهم من الناشطين).

(٥) على سبيل المثال: "دعونا نستمع إلى الدستور بالانجليزية"، سبتمبر، ١٩٩٤، و"المحكمة العليا مخطئة بحق الدين"، ديسمبر١٩٩٤ و"شرطة الفكر فى الجامعة"، مايو، ١٩٩١ .

قائمة المراجع

Adams, N. (1988) 'Cocaine king: a study in evil', *Reader's Digest*, Dec.: 227–72.
—— (1990) 'Iran's mastermind of world terrorism', *Reader's Digest*, Sept.: 59–65.
—— (1993) 'The terrorists among us', *Reader's Digest*, Dec.: 76–7.
Adelman, K. (1989) 'Arms control: games Soviets play', *Reader's Digest*, March: 65–9.
Agnew, J. (1998) *Geopolitics*, London: Routledge.
Anderson, B. (1983) *Imagined Communities*, London: Verso.
Armbrister, T. (1986) 'Why are they always trying to take our freedom away?', *Reader's Digest*, Oct.: 124–8.
Barnes, F. (1988) 'Can Gorbachev last?', *Reader's Digest*, May: 88–93.
—— (1990) 'The Japan that won't play fair', *Reader's Digest*, Aug.: 33–8.
Bauer, G. (1987) 'What we must teach our children about freedom', *Reader's Digest*, May: 102–4.
Bennett, R. K. (1987) 'The closing of the American mind', *Reader's Digest*, Oct.: 81–4.
Bennett, W. (1994) 'What really ails America?', *Reader's Digest*, April: 197–202.
Brookes, W. (1987) 'Don't raise taxes', *Reader's Digest*, Oct.: 163–6.
Campbell, D. (1992) *Writing Security: United States Foreign Policy and the Politics of Identity*, Minneapolis: University of Minnesota Press.
Dalby, S. (1990) 'American security discourse: the persistence of geopolitics', *Political Geography Quarterly* 9(2): 171–88.
Der Derian, J. (1992) *Anti-Diplomacy: Spies, Terror, Speed and War*, Oxford: Blackwell.
Dolan, F. (1994) *Allegories of America: Narratives–Metaphysics–Politics*, Ithaca and London: Cornell University Press.
Engelhardt, T. (1995) *The End of Victory Culture: Cold War American and the Disillusioning of a Generation*, Basic Books.
Epstein, J. (1991) 'Today's professional victims', *Reader's Digest*, April: 122–4.
Evans, R. and Novak, R. (1986) 'Congress is crippling the CIA', *Reader's Digest*, Nov.: 99–103.
Evans, R. and Novak, R. (1987) 'Gorbachev: the man with a nice smile and iron teeth', *Reader's Digest*, Oct.: 70–5.
Fukuyama, F. (1989) 'The end of history', *National Interest* supplement, Summer, 16pp.
Gilder, G. (1989) 'A new breed of innovators', *Reader's Digest*, Aug.: 126–8.
Glass, C. (1988) 'Kidnapped in Beirut', *Reader's Digest*, April: 90–7.
Hamill, P. (1991) 'It's not my fault', *Reader's Digest*, Oct.: 11–12.
Hirsch, E. D. (1987) 'Cultural literacy: what every American needs to know', *Reader's Digest*, Dec.:, 79–83.
House, K. (1989) 'Are we underestimating America's future?', *Reader's Digest*, May: 185–92.
Hurt, H. (1988) 'They dared cocaine – and lost', *Reader's Digest*, May: 81–7.
—— (1989) 'Portrait of a patriot', *Reader's Digest*, July: 65–9.
Jacoby, S. (1992) 'When rights run wild', *Reader's Digest*, Aug.: 129–30.

Kaplan, R. (1989) 'Why the Afghans fight', *Reader's Digest*, May: 128–32.
McClure, J. (1994) *Late Imperial Romance*, London and New York: Verso.
McConnell, M. (1989) 'Crack invades the countryside', *Reader's Digest*, Feb.: 73–8.
Mearsheimer, J. (1990) 'Why we will soon miss the Cold War', *Atlantic* 266(2): 35–50.
Methvin, E. (1986) 'Our new defense weapon – competition', *Reader's Digest*, Sept.: 99–103.
—— (1989) 'Crusader for Peru's have-nots', *Reader's Digest*, Jan.: 137–40.
—— (1991) 'Tampa's winning war on drugs', *Reader's Digest*, July: 56–60.
Michelmore, P. (1992) 'From outcast to supercop', *Reader's Digest*, Nov.: 179–86.
Netanyahu, B. (1986) 'Terrorism: how the West can win', *Reader's Digest*, July: 110–15.
Ó Tuathail, G. (1996) *Critical Geopolitics*, Minnesota: Minnesota University Press.
Ó Tuathail, G. and Agnew, J. (1992) 'Geopolitics and discourse: practical geopolitical reasoning in American foreign policy', *Political Geography* 11(2): 190–204.
Peet, R. (1993) 'Reading Fukuyama: politics at the end of history', *Political Geography* 12(1): 64–78.
Reader's Digest editorial review (1987) 'The closing of the American mind', *Reader's Digest*, Oct.: 81–7.
Reader's Digest Condensation (1989) 'Why we're losing the war on drugs', *Reader's Digest*, Oct.: 83–8.
Reader's Digest (1990) 'Exclusive, Interview with the President', *Reader's Digest*, Jan.: 53–9.
Reed, D. (1989) 'Do South Africa sanctions make sense?', *Reader's Digest*, Feb.: 51–6.
Reed, J. (1994) 'It's not my fault!', *Reader's Digest*, Aug.: 113–14.
Rosenthal, A. (1988) 'Gorbachev's hidden agenda', *Reader's Digest*, March: 71–2.
—— (1991) 'Don't remilitarize Japan', *Reader's Digest*, Feb.: 59–60.
Said, E. (1978) *Orientalism*, New York and London: Vintage.
Sharp, J. (1996) 'Hegemony, popular culture and geopolitics: the *Reader's Digest* and th construction of danger', *Political Geography* 15(6/7): 557–70.
—— (2000) *Condensing Communism: the Reader's Digest and American identity, 1922–1994* Minneapolis: University of Minnesota Press.
Shapiro, M. (1989) 'Representing world politics: the sport/war intertext', 69–96 in J Der Derian and M. J. Shapiro (eds) *International/Intertextual Relations: Postmoder Readings of World Politics*, Lexington, Mass.: Lexington Books.
Shear, J. (1991) 'Don't envy the Japanese', *Reader's Digest*, May: 43–6.
Sowell, T. (1994) 'Who say's it's hopeless?', *Reader's Digest*, June: 179–80.
Stein, B. (1987) 'Cultural literacy', *Reader's Digest*, Dec.: 79–83.
Sykes, C. (1993) 'No more victims please', *Reader's Digest*, Feb.: 21–4.
Wills, G. (1997) *John Wayne: The Politics of Celebrity*, London: Faber.
Wilson, C. (1983) 'The rhetoric of consumption: mass market magazines and the demise c the gentle reader, 1880–1920, 39–64 in R. W. Fox and T. J. Jackson Lears (eds) *Th Culture of Consumption: Critical Essays in American History 1880–1980*, New York: Pantheor

الفصل الرابع عشر

نحو جيوبوليتيكا خضراء

تسييس الإيكولوجيا فى معهد وورلد ووتش

تيموثى و.ليوك

مقدمة

يعيد هذا الفصل صياغة الجيوبوليتيكا فى ضوء المصطلحات الإيكولوجية لاختبار مدى عمق واتساع بعض الاتجاهات الحديثة المحيرة. فمع نهاية الحرب الباردة، أصبحت المؤسسات التجارية متعددة الجنسيات مسيطرة بدرجة كبيرة كأكبر تكتل فعال من القوى الإنتاجية على وجه الأرض، بالإضافة إلى أكثر علاقات الإنتاج تفصيلاً. فهذا الاقتصاد الرأسمالى يضفى الشرعية على عملياته للكثير من عملائه حول العالم، من خلال إجراءات إشباع احتياجات وحاجات المستهلكين، على أكمل وجه. وكان التوجه البيئى واحداً من المواقع القليلة الباقية التى تقاوم بفعالية هذا الاقتصاد المؤسسى العالمى. ومع ذلك، يضطر التوجه البيئى، مثل الرأسمالية المؤسسية متعددة الجنسيات، إلى بث رسالته من خلال مصطلحات استهلاكية، وذلك للحصول على التأييد الجماهيرى أو لبناء تأييد سياسى جديد (Luke 1993)

ويتصارع كل من الرأسمالية المؤسسية والاتجاه البيئى المنظم من أجل السيطرة على ظروف الاستهلاك، فى إطار الصراع على السيطرة على الاستخدامات الصناعية للطبيعة، وذلك لتحديد من الذى يجب أن يدير الغايات المادية والوسائل الإنتاجية للأسواق العالمية (Luke 1977) ولكن الواضح أنه ليس كل رجال الأعمال يتسببون فى التلوث بلا وعى، وليس كل البيئيين ضد قطاع الأعمال. وبالمثل فليس كل البيئيين استهلاكيين، ولا كل الاستهلاك ضار بالبيئة، ولكن هذه المجموعات من التناقضات التقنية تؤدى إلى بعض الارتباطات المتشابكة بين الجغرافيا والسياسة، بما يستحق المزيد من البحث. ولذلك يتناول هذا الفصل إعادة صياغة الجيوبوليتيكا من منظور بيئى خاصة أن هذا المنظور بدأ اليوم فى الظهور فى شكل علاقات محددة ترسم معًا

الاتجاه البيئى والاتجاه الاستهلاكى. وسواء كنا نقف عند "نهاية التاريخ" أو "نهاية الطبيعة"، فإن الجيوبوليتيكا الخضراء توضح كيف أن التقسيمات الأيديولوجية القديمة تبدو أقل وضوحًا، وذلك مع شن معارك جديدة للسيطرة على بيئاتنا فى كل أنحاء العالم (Fukuyama 1992; McKibben 1989) والمثال المحدد الذى سنقدمه هنا عبارة عن منظمة بيئية مشهورة فى الولايات المتحدة، هى معهد "وورلد ووتش". حيث تمثل عملياته العديدة الفلسفات العملية والأهداف الإيكولوجية والتوجهات السياسية لجيوبوليتيكا خضراء جديدة تحاول توجيه الاقتصاد السياسى البشرى على هدى إيكولوجيتها السياسية الفنية العلمية.

الجيوبوليتيكا الخضراء

ظهر الاهتمام الواسع بالحديث سياسيًا عن إدارة إيكولوجية الأرض أولاً كنوع جديد من الجيوبوليتيكا الشعبية فى الولايات المتحدة بين الحركات الإيكولوجية المحلية والقومية فى الستينات. ومع ذلك، أصبح الأمر أكثر وضوحًا فى التسعينات، بعد نهاية الحرب الباردة. فبعد الانتصار على الشمولية الشيوعية، أصبحت الولايات المتحدة محكومة بقادة يرون الآن "الأرض فى الميزان". ويقولون إن الإيكولوجيات العالمية يجب أن تحقق ما هو الأفضل، وليس الأسوأ، لصالح البشرية (Gore 1992) ويمثل الاقتصاديون والصناعيون والقادة السياسيون المجال الاستراتيجى للنظام العالمى بعد ١٩٩١، والذى يجب أن تتنافس عليه كل الدول للسيطرة على التنمية المستقبلية للاقتصاد العالمى، وذلك بتطوير تقنيات جديدة، والسيطرة على مزيد من الأسواق، واستغلال كل الأصول الاقتصادية الوطنية. وفى الواقع، تتراوح ظاهرة "الدول الفاشلة" من وجود تشريعات غير عملية مثل رواندا والصومال وأنجولا، إلى وجود كيانات مكبلة مثل أوكرانيا أو أفغانستان أو كازاخستان، ويرجع ذلك إلى الانتهاكات البيئية الحادة الناتجة عن الإخلال الشديد بالطبيعة بسبب المحاولات غير الفعالة لتحقيق النمو الاقتصادى(Kaplan 1996)

وهكذا فإن أخذ "الإيكولوجيا" فى الحسبان يولد سلسلة من الخطابات عن "البيئة" التى تستند إلى كل من الأخلاق والرشادة أيضًا. فمع مواجهة الإنسانية "لحدود النمو"، ودوى "القنبلة السكانية"، أصبحت الإيكولوجيات والبيئات شيئًا أكبر من أن نحكم عليه أخلاقيًا، فهى أشياء يجب أن تديرها الحكومات. وكما يقول فوكو، تطورت الإيكولوجيا إلى "إمكانات عامة تتطلب إجراءات إدارية، ويجب أن يتحمل مسئوليتها خطاب تحليلى"، كما اتضح من هذه الظواهر البيئية أنها أصبحت "مسألة انضباط"، وليس كبح الخلل، بل تعظيم منظم للقوى الفردية والجماعية (Foucault 1980: 146)

ويقول أوتواتيل إن "الجيو- بوليتيكا لا تمثل ضغطًا ثابتًا، ولكنها غير مستقرة وغير محددة"، ويجب ألا نعتبرها "حقيقة" فهى مجرد مسألة (ó Tuathail 1996: 67) ويسمح تقسيم الجغرافيا إلى "جيو - بوليتيكا" كما يرى أوتواتيل، بفصل الجيوبوليتيكا عن ارتباطها التاريخى فى "السياسة الواقعية". ثم البحث عن ارتباطات جديدة فى الجيوبوليتيكا وسط معانيها الغامضة غير المحددة. وتسمح الممارسات العملية غير الموضحة والمتجسدة فى "الجيو- بوليتيكا" لهذا التجمع من ممارسات وقيم المفاهيم بافتراض واكتساب انتشارات عملية جديدة فى أماكن أخرى وفى أوقات أخرى، بعيدًا عن تقاليدها الدبلوماسية / الامبريالية / العسكرية. إذ إن التطور الكامل "للنظام السياسى المغلق.... على المستوى العالمى" والذى وصفه هالفورد ماكيندر "بعصر ما بعد الكولومبية"(١٩٠٤ : ٤٢٢) . لم يثبت وجوده الكامل فى التصور السياسى الجماعى حتى ١٩٦٨ عندما عادت أبوللو ٨ بصورها الملونة للأرض وهى تسبح وحدها فى ظلام الفضاء(Cosgrove 1994) وبينما أثبتت الحربان العالميتان الأولى والثانية إغلاق معظم المجال الأرضى أمام التوسع البرى السهل، فإن إعادة التصور الإيكولوجى للكوكب كأرض سابحة فى الفضاء فى ٢٠ يوليو ١٩٦٩- عندما هبط نيل آرمسترونج على القمر- أكدت أخيرًا اعتقاد ماكيندر أن ما كان يعتبر جيوبوليتيكا يجب أن يحول انتباه رجال الدولة فى كل أنحاء العالم من التوسع الأرضى إلى الصراع على الكفاءة النسبية"(Mackinder 1904: 422) وتظهر حماسة ماكيندر- تلك

الحماسة البريطانية الفيكتورية الفريدة المنشغلة برفاهية مستقبل الإمبراطورية والأمة - فى أفكاره عن "الكفاءة النسبية" فى عالم أوائل التسعينات التنافسى والمتشابك بصورة متزايدة. فقد قادته نزعاته الامبريالية المحافظة إلى القلق على مدى قدرة الإمبراطورية البريطانية على إدارة أصولها الأرضية التى اكتسبتها بصعوبة فى زمنها الجديد القائم على الاعتماد المتبادل المعقد (ó Tuathail 1996; Ryan 1996)

ويتزايد ظهور الإيكولوجيا كاستعارة جيوبوليتيكة فى نفس الوقت الذى خمدت فيه شرارة الألفية فى العالم الشيوعى أخيرًا، مما جعل العالم كله محصورًا بصورة ما فى الأنماط الثابتة للتصنيع والتحضر المتزايد. وقد وصل الانتقاد الشيوعى للرأسمالية والهجوم الرأسمالى المضاد ضد الشيوعية إلى مأزق أيديولوجى فى الستينات، ولكن يمكن إخضاع النظامين لنقد إيكولوجى لكفاءتهما النسبية. فمع بزوغ "يوم الأرض" فى ١٩٧٠، لم يعد الكثير من الناس فى الغرب الرأسمالى أو الشرق الشيوعى يعقدون الأمل على تحول اشتراكى حقيقى للاقتصاد والمجتمعات الصناعية القائمة. وبدأ يظهر القلق الجديد على الأمن واستمرارية أنماط الحياة الاستهلاكية الجديدة- التى أثبتت أنها أكثر جاذبية من الأنماط الإنتاجية التى قدمتها الستالينية الجديدة- فى الخطاب السياسى فى أشكال الفكر الإيكولوجى. ففى الإيكولوجيا هناك أصداء وانعكاسات محملة بمقترحات لرؤية "عالم نهاية القرن" عند ماكيندر(. (Kearns 1993

وفى الحقيقة نجد أن الجيوبوليتيكا مع الإيكولوجيا "تستطيع للمرة الأولى أن تدرك شيئًا من التناسب الحقيقى للملامح والأحداث على مسرح العالم الواحد، وقد تحاول البحث عن معادلة تعبر عن جوانب معينة للتفسير الجغرافى فى تاريخ العالم"، وهذه الهياكل الإيكولوجية الجديدة يجب أن يكون لها قيمة عملية لأنها تضع بعض القوى المتنافسة فى السياسة الدولية المنظورة (Mackinder 1904: 422) وهكذا فإن نظرة ماكيندر الجيوبوليتيكة يمكن أن تمهد لمعيار جديد للقيمة العملية للرؤى البيئية التى تدفع الاقتصاد والسياسة الدولية المعاصرة (ó Tuathail 1992) ومن ثم فإن الجيوبوليتيكا

الخضراء ستكمل منطق التصور الامبريالي العرقي عند ماكيندر بعولمة أسلوبها الإداري حتى أصغر الكائنات في أبعد المناطق من المحيط الحيوي للأرض حيث ترى الجيوبوليتيكا الخضراء - مثل ماكيندر- أن:

"اقتصاد العالم الآن معروف ومشغول ومغلق أمام كل النوايا والأغراض. فقد أصبح العالم مكانًا واحدًا موحدًا من فضاء مشغول، ونظام فضاء مغلق (كسفينة فضاء مغلقة) حيث يكون لأى حدث فى أى جزء منها نتائج فى بقية الأجزاء الأخرى. فلم يعد ممكنًا أن نعالج الصراعات المختلفة على الفضاء بمعزل عن بعضها البعض، لأن كلاً منها يمثل جزءً من نظام عالمي لفضاء مغلق. فقد أصبح عالم التفاعلات الدولية عالميًا الآن (ó Tuathail 1996: 27)

ومع أخذ هذه الافتراضات العملية فى الاعتبار، فإن "الصراع على الكفاءة النسبية" يمكن أن يصبح الفكرة المسيطرة على الاقتصاد السياسى البيئى، الذى يمكن مساندته جيداً بإعادة فحص دراسات معهد ورلدووتش لنظم الأرض فى التبادل الإيكولوجى الاقتصادى.

وكما يتضح فى بيان رسالته، فإن المعهد "يؤمن بأن المعلومات أداة قوية لتحقيق التغير الاجتماعى"، ولذلك فإن أهدافه تتمثل فى تقديم المعلومات المطلوبة لرفع مستوى الوعى العام بالتهديدات البيئية إلى النقطة التى يستطيع عندها مساندة استجابات السياسات الفعالة (Worldwatch 1999) فمن خلال إجراء الدراسات العلمية البيئية غير المتحيزة فى مقره الرئيسى فى واشنطن، يساعد المعهد على وضع جدول أعمال شامل للممارسات الدولية المتعلقة بالتغير المناخى العالمى، وتآكل الأوزون، والحفاظ على الموارد وحماية التنوع الحيوى. وفى ظل هذا النمط من العمل، غالبًا ما يشارك خبراء المعهد فى المفاوضات الدولية الجارية حول المناخ والأوزون والتنوع الحيوى أو الزيادة السكانية. ومع ذلك، ليس للمعهد دور رسمى فى مراقبة أو إدارة عمليات التنظيم البيئى، لأنه يرى رسالته المؤسسية فى ضوء بحوث السياسات ونشر المعلومات.

وينزعج المعهد- على أحد المستويات- من الفوضى فى هذا النظام المغلق، عندما يشير بالموافقة إلى الإيكولوجيين العلميين- مثل جين لوبشينكو- الذى يقول "إننا نتسبب فى تغيير العالم بطرق غير مسبوقة ، وبمعدلات أسرع وعلى نطاقات أوسع، ولكننا لا نعرف النتائج. وهذه تجربة خطيرة، ونحن أيضا لا نعرف النتيجة"(Knickerbroker 1998: 1) وعلى مستوى آخر، يتمثل الاتجاه العملى لكل تقرير من تقارير المعهد فى التعامل مع هذه الفوضى إداريًا وعلميًا بتقديم مجموعة من الأرقام الصعبة بدقة كبيرة فى كل الأزمات الإيكولوجية الناتجة حاليًا عن الاقتصاد العالمى. ويشكل هذا الاتجاه العملى لاعتبار الأرض كنظام إيكولوجى عالمى واحد موقفًا جيو- بوليتيكًا جديدًا فى مواجهة كل من أعمال علوم التقنية والدولة.

ونادرًا ما تأخذ أعمال المعهد الشكل المباشر فى الميدان، لأن معظم ممارساته موجهة نحو التحليل الجيوبوليتيكى والمشاركة فى السجلات الإدارية لجمع ونشر المعلومات الإيكولوجية. وبعد خمسة عشر عامًا من الدعم المتزايد وزيادة التداول، تقدم التقارير السنوية للمعهد معلومات أساسية لشبكة عالمية من الاستراتيجيين والمخططين الجيوبوليتيكيين الخضر وكما يقول براون فإن عمل المعهد واضح على مستوى العالم:

"عندما بدأنا أول تقرير باسم "حالة العالم: State of the World منذ خمسة عشر عامًا، كانت لدينا آمال كثيرة بالنسبة لتأثيره، ولكننا لم نتوقع أنه سيصبح شبه رسمى، ويستخدمه مسئولون حكوميون على نطاق واسع، ووكالات الأمم المتحدة، ومخططو المؤسسات، ومعلمون، ونشطاء البيئة حول العالم... ولم نكن نتوقع فى أكبر أحلامنا أنه سيظهر يومًا ما بثلاثين لغة... ولم نتوقع يومًا ما أن تصدر الطبعة الأولى فى الولايات المتحدة فى مائة ألف نسخة. ولم نتوقع أن يتصدر قائمة الكتب الأكثر مبيعًا فى فنلندا والأرجنتين"(Brown 1998: xix)

وبهذه المراجعة الاحتفالية الذاتية لمرور خمسة عشر عامًا، فإن استقبال تقارير "حالة العالم" التى يصدرها المعهد. يكشف الجماهير العريضة والمشجعين الكثيرين

لشكله الفريد فى الجيوبوليتيكا الخضراء. ويمكن أن نتتبع فوكو هنا برؤية كيف أن التوجه البيئى للمعهد يعمل كسلسلة شاملة لتكتيكات مختلفة تجمع بنسب متفاوتة بين هدف تنظيم الكيان وهدف تنظيم السكان (Foucault 1980: 146) وهذا المشروع السياسى "للاستدامة" فى الجيوبوليتيكا الخضراء - سواء كان المرء يتناول التنمية المستدامة لاقتصاد قومى واحد، أو الاستخدام المستدام لكل موارد الأرض - تدخل هذه المسئولية الإدارية الجديدة عن عمليات الحياة فى إيكولوجيات الأرض فى جهود العديد من الحكومات لتحقيق الانسجام الرشيد بين الاقتصاد السياسى ونظرة صائبة لإيكولوجيا العالم.

من الإيكولوجيا إلى الإيكولوجيا المفرطة

يؤكد المعهد أن الحفاظ على النظم الإيكولوجية المختلفة على الأرض يتطلب من سكان كل تجمع بشرى إعادة التفكير فى كل مجموعة الترابطات الاقتصادية والتقنية مع المجتمعات المحلية، من حيث كيفية انخراطها فى التبادل الإقليمى والقومى والدولى للسلع والخدمات. وتفرض بداية هذه المراجعة الاستراتيجية مسألة حماية كل "المناطق الحيوية" القائمة حاليًا فى الطبيعة الأولى، أو المجال الحيوى الأكبر للكوكب. والذى يكمن فيه إيكولوجيات كل المجتمعات البشرية. حيث كانت المناطق الحيوية تشكل تاريخيًا السياق المكانى الخاص للعلاقات الاجتماعية الإنسانية بأراضى ومياه ونباتات وحيوانات وسكان ومناخ معين، والتى من خلالها كانت مجتمعاتهم تشكل أماكن لها معنى بالنسبة لهم فى "الطبيعة الأولى فى المجال الحيوى الطبيعة (Sale 1985)

ومع ذلك، فإن "السيطرة على الطبيعة" لا تعنى السيطرة على كل الأحداث الطبيعية فى البيئة، بقدر ما هى إزالة مقصودة للأوضاع والقيود الإيكولوجية المحلية التى تواجه بناء المستوطنات البشرية (Berry 1989; Commoner 1990) ونتيجة لهذه الإزالة، تبنى البشرية العديد من "المناطق التقنية" المجردة من أشياء مصنوعة تصبح منتشرة بصورة تجعل هذه المجالات "طبيعة ثانية". ولكن هذا "المجال التقنى" المتغير

دائماً على الكوكب والذى تتجسد فيه كل المجتمعات الإنسانية المتحضرة الآن، يعمل بفضل مبادلات اقتصادية تقنية تفوق طاقة حمل المناطق الطبيعية. وتؤدى هذه المبادلات بدورها إلى ظهور أوضاع من التدخلات البشرية الجديدة فى البيئة الطبيعية، والتى تؤدى إلى إيكولوجيا مفرطة مصطنعة من نوع غير مستدام (Mckibben 1989)

ويعكس قيام المعهد بإعادة البناء الإدارى للبيئة - لكيان مترابط من نظم معرفية مفككة فى المجال الحيوى والمجال التقنى المصطنع- قراءة سبيكمان للملامح الجيوفيزيقية على الأرض كقوى أساسية وجودياً. وكما أن "الجغرافيا لا تدعى أنها كذلك" (pykman 1938: 237) فإن "البيئة" فى كل تقرير من تقارير المعهد لا تدعى أنها كذلك. ومع ذلك، نجد أن هذه التأكيدات الساذجة قد أدخلت فعلاً فى افتراضاتها الوجودية مسلمات التعريف المطلوبة لتحديد ما هى الأفكار المشروعة الآن، وما هى الإجراءات التى يجب اتخاذها، وما هى المصالح التى يجب مراعاتها. إذ إن افتراض أن البيئة "كما هى" يخفى أجنداتها المعيارية الخاصة تحت الوجود العام للحقائق الإيكولوجية. ومع ذلك، نجد أن مقاربة البيئة كحزمة من الضرورات المتشابكة، والأوامر اللازمة، والحقائق التى لا تتغير يفترض موقفاً خطابياً يحشد قيود وطاقات الأرض لمساندة هذه القراءة المتشددة للبيئة.

وإذا اعتبرنا البيئات بمثابة مناطق جيوبوليتيكية جديدة، فإنه يمكن مراقبتها للحكم على مدى نجاحها أو فشلها النسبى فى ضوء مقاييس رياضية مجردة للاستهلاك، وحصر المكاسب أو الخسائر القومية من خلال كثافة وسرعة وكمية السلع والخدمات المتبادلة فى نظم الاستهلاك الكبير التى تكون المجال التقنى (Luke 1995) وهنا ينادى المعهد بالاستخدامات الأكثر حكمة لكل الأصول الحيوية الموجودة فى المجال الحيوى. فقد حدث إفراط فى الاستهلاك فى العديد من المواقع الأرضية المختلفة باستخدام مستويات مختلفة من الطاقة والموارد الطبيعية والغذاء والماء ومدخلات العمل المستمدة من جميع أنحاء العالم من خلال نمط إنتاج السلع والطاقة وأسواق العمل

الدولية (Brown et al., 1999, 1998, 1997, 1996, 1995) وتعمل الجيوبوليتيكا الخضراء وراء سلطة الدولة ونظام السوق بتقديم معايير جديدة للقوة المطلوبة ورأس المال المطلوب لعرض هذه التكاليف على الكثير لصالح القليل. وبإحلال رمزية "أيام الأرض" محل التحول الإيكولوجي الجوهرى، فإن الإيكولوجيات المفرطة للمجال التقنى فى التبادل العابر للقارات تستجمع نفسها بنجاح فى الأغلفة الخضراء للاهتمامات الإيكولوجية، ولكنها لا تزال فى حاجة إلى توفير الفاقد المبدد من الطاقة والموارد والوقت فى إيكولوجيات المجال الحيوى للحفاظ على الإشباع الكلى المجرد "للمستهلكين العاديين" الذين يتمتعون بمستوى معيشة نمطى فى مدن وضواحى العالم المتقدم.

وتوصل المعهد إلى حقيقة أساسية جديدة داخل النظام الحالى للأغراض الصناعية، و"المقصود بهذه الأغراض الآن أن يتم امتلاكها واستخدامها من أجل إنتاجها وشرائها فقط. وبعبارة أخرى، فإنها لا تعد دالة فى الحاجات ولا فى التنظيم الرشيد للعالم، ولكنها تمثل نظاماً متجددا بالنمط الفكرى للإنتاج والتكامل الاجتماعى" (Baudrillard, 1996 ١٦٢-٣)

ويجسد نظام المجال التقنى للأغراض السلوكيات الإنسانية المنتظمة فى كل منطقة تقنية، والتى تعتمد أيضًا على مدخلات ومخرجات المجال الحيوى. والموطن فى هذا النظام الخاص بالأغراض هو الآن الموطن الحقيقى للإنسانية. والمجتمع الاستهلاكى هو نتيجة تداخل المجالات الحيوية مع المجالات التقنية وارتباطه بـ"المجال الاجتماعى، والمجال الزمنى، ومجال الأشياء التى بفضلها وبفضل الاستراتيجية التى تفرضها، تستطيع الأغراض أداء وظيفتها كمعجلات ومضاعفات للمهام والإشباعات والنفقات" (Baudrillard 1996: 102) ولكى ننقذ موطن الإقليم الحيوى، يجب على الجيوبوليتيكا الخضراء إعادة تشكيل موطن الإقليم التقنى (Bourdieu 1984:170)

إن ربط هذا النظام الاستهلاكى بالجيوبوليتيكا الجديدة يوضح كيف تحول الدولة المعاصرة والاقتصاد الموجه الاستهلاكى البحث بكل مهامه وإشباعاته ونفقاته الكامنة

إلى "تنمية مستدامة". ويصل دمج الإنتاج الرأسمالى متعدد الجنسيات بين الموقع والموطن، والاقتصاد والإيكولوجيا، وأماكن السكن وأماكن العمل، إلى ذروته فى جيوبوليتيكا تخلط بين طاقات الحمل ودورات الائتمان كمجالات حيوية و تقنية وبيئية قادرة على "إحداث تواصل بين كل شئ عمليًا– ولا مزيد من الأسرار، ولا مزيد من الغموض، وكل شئ منظم، وكل شيئ واضح (Bourdieu 1984: 170) فالتناقضات الثقافية الحقيقية للرأسمالية المعاصرة ليست تناقضات التراكم مقابل الإنفاق، أو التوسع مقابل الانكماش، ولكنها تناقضات الإيكولوجيا مقابل التبادل، لأن أهداف هذه الجيوبوليتيكا الجديدة تتطلب إعادة هندسة البيئات داخل الممارسات المتناقضة للتنمية المستدامة.

التوجه البيئى كجيوبوليتيكا خضراء

يأتى المنطق الجيوبوليتيكى من مكان ما، بينما تأتى الحركة البيئية من وجود العديد من حقائقها الأخيرة. وكمحاولة كبرى لإعادة تشكيل قوى الطبيعة من أجل الاستغلال الاقتصادى للتقنيات المتقدمة، تقدم الإدارة الرشيدة للمعهد للطاقات الإيكولوجية مكملاً جيوبوليتيكًا هامًا للمصالح التجارية متعددة الجنسيات التى تساعد على نمو الاقتصاد العالمى.

وتنسب دراسة كبرى للمعهد أجراها براون وفلافن وبوستل الإيمان السائد بالمزيد من النمو إلى "النظرة الاقتصادية الضيقة للعالم"، وذلك لأنه يعتبر مسار الاستهلاك غير المفيد سببا للأزمات البيئية الحالية(١٩٩١: ٢١) . حيث تعرض أية قيود على المزيد من النمو فى الاقتصاد التقليدى" فى ضوء نمو الطلب غير الكافى وليس القيود التى تفرضها موارد الأرض" ٢٢) Brown, Flavin, and Postel 1991 ومع ذلك يرى المعهد أنه يجب على الإيكولوجيين العمل خارج المجال التقنى لدراسة العلاقات المتغيرة المعقدة بين الكائنات وبيئاتها، وبالنسبة لهم فإن "النمو يتحدد بمعالم المجال الحيوى" (المرجع السابق، ص ٢٢). ومن المثير للسخرية أن الاقتصاديين يعتبرون اهتمامات

الإيكولوجيين "كعلم فرعى من الاقتصاد - يمكن "إدخاله" فى النماذج الاقتصادية، والتعامل معه على هامش التخطيط الاقتصادى"، فى حين أن الإيكولوجى يعتبر الاقتصاد مجموعة فرعية ضيقة من النظم الإيكولوجية العالمية (المرجع السابق، ص ٢٣). وحتى ينتهى هذا التقسيم فإن خطاب المخاطر الذى يروج له المعهد يدفع إلى دمج الإيكولوجيا فى الاقتصاد. حيث يستطيع هذا الاتحاد بدوره دمج التحليل البيئى مع الرشادة الاقتصادية، وتلطيف الاقتصاد بتفسير النظم الإيكولوجية. وبمجرد أن يتحقق هذا، لن يمكن فصل النمو الاقتصادى عن "النظم والموارد الطبيعية التى تقوم عليها"، ولا يمكن أن تستمر أية عملية اقتصادية "تقوض النظام الإيكولوجى العالمى إلى ما لا نهاية" (المرجع السابق، ص٢٣)، مما يسمح للمعهد بإعطاء هذه الإدارة الجغرافية والسياسية للكوكب مسحة خضراء.

ويفصل المعهد بهذه المناورة البلاغية تصميماته لاقتصاديات المستهلك كرشادة أساسية لإدارة الموارد. ومن خلال العمل على نطاق عالمى فى سجلات عابرة للدول للإدارة العالمية، يأمل المعهد ضبط المجتمعات المفرطة فى الاستهلاك، حيث يأمل من وراء ذلك إلى إصلاح الطبيعة كنظام ضبط للأنظمة الحيوية التى تبدو تشكيلاتها الجيوفيزيقية العديدة بين الدول القومية المعاصرة فى "أربعة نظم حيوية - الغابات، الأراضى العشبية، المصايد، أراضى المحاصيل - التى توفر كل غذائنا ومعظم المواد الخام للصناعة، مع الاستثناءات البارزة للوقود الحفرى والمعادن" (المرجع السابق، ٧٣). ويجب مراجعة الأداء المشترك لهذه الأنظمة بقوائم تحليلية مكتوبة بمصطلحات اقتصادية حيوية. وبعد ذلك، يمكن الحكم عليها بمعادلات إدارية توازن بين أعداد السكان المتزايدة باستمرار، ومخرجات النظام الإيكولوجى المتناقصة باستمرار، والإمكانات المحدودة لزيادة مخرجات النظام الإيكولوجى مقابل قيود غير مرنة على المدخلات الفنية. وعند إعادة دراسة هذه النظم الأربعة، يعترف المعهد بأن الطبيعة عبارة عن نظام مكون من نظم لتحويل الطاقة:

"يعمل كل من هذه النظم بالبناء الضوئى، فهى العملية التى من خلالها يستخدم النبات الطاقة الشمسية للجمع بين الماء وثانى أكسيد الكربون لتكوين الكربوهيدرات. وتعمل عملية تحويل الطاقة الشمسية إلى طاقة كيماوية حيوية على مساندة الحياة على الأرض، بما فى ذلك المجتمع البشرى الذى يصل عدده إلى ٥,٤ مليار نسمة. وإذا لم نقم بإدارة هذه النظم الحيوية الأساسية بصورة أكثر ذكاءً مما نفعل الآن، لن تستطيع الأرض تلبية الاحتياجات الأساسية لثمانية مليارات نسمة.

والبناء الضوئى هو العملية المشتركة بين كل النظم الحيوية، وهو المعيار الذى يمكن استخدامه لتجميع نواتجها وقياس التغيرات فى إنتاجيتها. وبالرغم من أن النسبة المقررة لنشاط البناء الضوئى الذى يحدث فى المحيطات بحوالى ٤١ ٪ تزودنا بالغذاء البحرى، فإن النسبة الباقية التى تحدث على الأرض (٥٩ ٪) هى التى تشغل الاقتصاد العالمى" (Brown, Flavin and Postel 1991: 73-4)

وهكذا يصبح توليد وتراكم طاقة البناء الضوئى المعيار المحاسبى الجديد لإخضاع إيكولوجيات الأرض لنظام جيوبوليتيكى بيئى. وهذا يفرض حدوداً عليا على التوسع الاقتصادى، لأن الأرض ليست كبيرة جداً. فالنسبتان السابقتان المتعلقتان بالماء واليابس تتناقصان فى الحقيقة من حيث الحجم والكفاءة، بسبب "التدهور البيئى". ويحتاج تداخل المجال التقنى فى نظام المجال الحيوى إلى إدارة عالمية، أو مركز مراقبة قوى ومشهور - مثل المعهد - لإدارة الموارد البيئية، وذلك لأنه قد يكون محلياً داخل الأراضى الوطنية مثل التدمير داخل الحدود السياسية، وقد يكون عالمياً يشمل كل المجال الحيوى مثل التلوث الحيوى العابر للحدود وغير المقيد.

وتنبع هذه المتطلبات الإدارية من تقارب الاتجاهات الخطرة، وبالتحديد فإن المحاسبة الاقتصادية الحيوية تتطلب أن:

"يذهب ٤٠ ٪ من الإنتاج الأولى الصافى السنوى للأرض مباشرة إلى تلبية الاحتياجات الإنسانية، أو يستخدم أو يدمر بصورة مباشرة بسبب النشاط البشرى،

مع ترك ٦٠ ٪ لملايين الأنواع الأخرى التى تشارك الإنسان على الكوكب. وبينما استغرق الأمر طوال تاريخ الإنسان للوصول لهذه النقطة، يمكن أن يتزايد هذا النصيب إلى ٨٠٪ بحلول ٢٠٣٠ إذا استمرت معدلات النمو السكانى الحالية، وكذلك فإن تزايد الاستهلاك الفردى يمكن أن يقلل زمن التضاعف كثيراً. وفى تلك الأثناء، ستتدهور النظم الطبيعية بسرعة مع تزايد استهلاك الناس لنسبة أكبر من الطاقة المزودة للحياة على الأرض" (Brown, Flavin, and Postel 1991: 74)

وهكذا فإن تجنب انهيار الأوضاع الإيكولوجية يتطلب إيقاف مستويات الاستهلاك الضخم المتزايدة باستمرار. ويجب على البشر الحد من زيادة أعدادهم، والاعتراف بأن أنماط إنتاجهم كثيفة الموارد ومبددة، والحد من ارتفاع معدلات الاستهلاك المادى المفرط. وتتطلب كل هذه الأهداف معياراً للمراقبة الجغرافية، ودرجة من الإدارة السياسية التى ربما تتخطى سلطات الدول القومية الحديثة. ولكنها لا تتخطى الإدارة التى تمارسها بعض المنظمات الحكومية الدولية التى تتبع جيوبوليتيكا خضراء عالمية جديدة.

ومن الواضح أن الجيوبوليتيكا تتولى المهمة النظامية لمراقبة الأرض بإحداث التوازن بين "الإنتاج الأولى الصافى" للطاقة الشمسية الثابتة بسبب البناء الضوئى فى النظم الحيوية الأربع المعروفة لدى المعهد، وذلك لتلبية الحاجات الإنسانية من الإنتاج والاستهلاك العالمى. فأولاً، تختزل العمليات الطبيعية فى إجمالى الاقتصاد الشمسى للأرض فى نظم استخراج وتوزيع الطاقة ,مثل رصيد الغذاء والمصايد ومحميات الغابات والأراضى العشبية، وذلك لتعود ثانية كأصول بيئية جيوبوليتيكة، مغلفة فى إجراءات محاسبية اقتصادية حيوية، ومحاطة ببرامج إدارية خضراء. ويفترض أن المعهد يعرف كل هذا، وأنه يسيطر على كل المضامين الاقتصادية الإيكولوجية، بناءً على هذه المعرفة. ويستطيع هذا النوع من التحليل التقنى الرسمى ضبط الاستهلاك المادى البشرى لأى مراقبين محتملين لهذا الاقتصاد الشمسى العالمى. وعن طريق دراسة

نظام الحقائق القديمة المتمثل فى النمو الإنتاجى فقط، يستطيع الاستهلاك البيئى فى إطار اقتصاد إيكولوجى أكثر تقدمًا أن يعيد إدماج الإنتاج والاستهلاك البشرى فى التوازن مع النظم الحيوية الأربعة للأرض.

وتصرح "اللجنة الدولية للبيئة والتنمية" بأن الإنسانية لم تكن قادرة على توفيق "أنشطتها" مع النظم الطبيعية للسحب والمحيطات والنبات والتربة "أى مع الأرض ولا يمكن الهروب من مخاطر هذه الحقيقة الجديدة. بل يجب الاعتراف بها ومواجهتها" (World Commission on Environment and Development 1987: 1) فمن خلال الجيوبوليتيكا الخضراء، "نستطيع رؤية ودراسة الأرض ككائن حى تعتمد صحته على صحة جميع أجزائه"، مما يعطينا "القدرة على توفيق الشئون الإنسانية مع القوانين الطبيعية والنجاح فى هذه العملية" (Grubb et al. 1993: 87) ويعتمد هذا التوافق على عمل هيئات مثل المعهد الذى يقدم فهمًا "للنظم الطبيعية"، ويوسع "قاعدة الموارد البيئية"، ويساعد فى مواجهة التدهور البيئى"، والسيطرة على "الاتجاهات البيئية". ويساعد فى مواجهة "التدهور البيئى"، والسيطرة على "الاتجاهات البيئية". وكما يؤكد إعلان ريودى جانيرو، فإنه يمكن إعادة تعريف واختزال "طبيعة التكامل والاعتماد المتبادل" للأرض فى "النظام البيئى والتنموى العالمى"، وبهذه المناورة البلاغية، فإن ما كان يعرف "بالطبيعة الخام" سيصبح بمثابة بنية تحتية إيكولوجية مروضة للجيوبوليتيكا الخضراء.

ويمكن إعادة معايرة الإيكولوجيا، كجيوبوليتيكا خضراء، فى خطابات المؤسسات الحكومية، كتلك التى يتداولها المعهد، كعلم أساسى مطلق يقدم أنسب النظريات والممارسات لعالم يكتسب ناتجه الإجمالى العالمى شكله ومضمونه من المجال السلعى لتدفقات الناتج العالمى. وقد أصبحت المشروعات عابرة القوميات بدورها تمثل أشكال الحياة الجديدة الرئيسية التى تقطن المجال الحيوى العالمى، وتمثل الجيوبوليتيكا الخضراء بتفسيرها البيئى كفاحها من أجل الحياة طبقًا لهدف ماكيندر فى الكفاءة

النسبية. ففى الحقيقة لا بد أن تقوم الجيوبوليتيكا الخضراء بترشيد الأهداف الاجتماعية بالنسبة إلى ملاءمة غاياتها وسلامة تصرفها فى الأشياء. وبالنسبة للتجار والعمال والمواطنين على المستوى العالمى، يستطيع المعهد مراقبة البيئة باستمرار بحثًا عن إشارات الخطر والإتلاف وعدم الشرعية التى يمكن أن تؤثر سلبيًا على عملاء النشاط العالمى.

ولم تعد الطبيعة ككل، وليس النظام الإيكولوجى فحسب، تمثل المجالات الحيوية والتقنية للعالم تحت ظل هذا النوع من المراقبة التى تخفضها إلى المجالات الاستراتيجية الجيوبوليتيكية. إذ إن صحة سكان العالم وحياة الكوكب ذاته تجبر الإنسانية على فتح قوائم اقتصادية حيوية يمكن أن تكسو الأرض، وتولد مجموعة واضحة من الحسابات من أجل جيوبوليتيكا اقتصادية على المستوى العالمى والمستوى المحلى. ومن خلال الطواف حول العالم فى المؤسسات العلمية التى تقوم بالمراقبة الخضراء، تقوم الشبكات النظامية لهذا المعهد بمتابعة الكفاءة والفاقد، والصحة والمرض، والفقر والثروة، بالإضافة إلى النمو والركود، والاستقرار والاضطراب، والعمالة والبطالة. ومن خلال دمج الإيكولوجيا والاقتصاد فى الجيوبوليتيكا، يعلن براون، فلافن، وبوستل أن "مجالى البيئة والتنمية اللذين كانا منفصلين أصبحا الآن مترابطين جدًا" (١٩٩١: ٢٥). فهما مترابطان على الأقل فى خطاب المعهد، لأن خبراءه يمسحون مناطق الأزمات فى الطبيعة بمراجعة مستويات تآكل التربة العليا، تلوث الهواء، المطر الحمضى، الاحترار العالمى، تدمير الأوزون، تلوث المياه، تقلص الغابات، وفناء الأنواع كمشاكل ناتجة عن الاستهلاك المفرط.

وتتطلب جيوبوليتيكا المعهد من كل الدول حكم الشعوب من خلال قضاياها، والغايات التى تحققها هذه القضايا، وذلك من خلال إعادة تشكيل نظام القضايا غير الصحيحة إيكولوجيا، عبر تصميمات إدارية لتكوين الاقتصاد المستدام بيئيًا للغد، وذلك لتحقيق حياة صحيحة بيئيًا (Brown 1981) ويظهر شكل الجيوبوليتيكا الخضراء

الجديدة من الاقتصاد الموجه هندسيًا للتقنيات والممارسات البيئية (طاقة الرياح، الدراجات، الأغذية النباتية) التي يوافق عليها المعهد. وسوف يتم إعادة تشكيل الإنسان الفرد وكل أشيائه المرتبطة بالممارسات الإيكولوجية غير المستدامة حاليًا، من خلال هذه الجيوبوليتيكا الخضراء، لأن ممارسات وخطابات وأدوات هذه الإدارة الجيوبوليتيكية سوف توفق بصورة أكثر كفاءة بين الطاقات الحيوية للبشر والطاقات الأرضية لبيئاتهم. ولكي يتحقق ضبط طاقة الحمل العالمية، سيقوم المعهد بتوجيه كل شخص إلى تبني اقتصاد منظم يتطلب مستوى أقل من طاقة الحمل، بدلاً من استهلاك الوفرة الحضرية. ويجب على العالم كله أن يخضع لهذه المراقبة الجيوبوليتيكية، وسوف يراقب المعهد التكاليف الإنسانية للتصرف في أشيائهم وترتيب حاجاتهم في مناطق معاد ترتيبها باستخدام طاقات جديدة لوظائف جديدة وأنشطة ترفيهية جديدة.

ويمكن أن تصبح قضية الاستدامة، مثلها مثل القضايا الحياتية اليومية، خطابا يدلي فيه بدلوه الخبراء والمختصون حول فرض السلطة على الحياة. ويقف انبهار المعهد بالكفاءة النسبية وراء مصادقته على "اقتصاد لا يقتصر على الاعتماد على تلويث الغلاف الجوي لمرة واحدة، وتطهير الغابات، والإفراط في استخراج المياه الجوفية، التي تكون في متناول اليد أيضًا، وتكون في النهاية أكثر اقتصادًا – وإنتاجية – مقارنة بالاقتصاد الذي نعتمد عليه اليوم (Brown, Flavin and Postel 1991: xviii) إذ إن ما ساعد استراتيجيات الطاقة الحيوية للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر على صناعته بالنسبة للجنس البشري، هو الذي يعاد تصوره الآن للإنسانية من حيث تدهور الأوضاع العالمية للحياة، من حيث كونها حياة إيكولوجية كاملة. وهناك تفكير في كيفية قيام التنمية الاقتصادية "بالاستثمار في الحياة بصورة مستمرة، فيصبح تحديًا جديدًا للاستمرارية، وذلك بمجرد استقرار العلاقات الجيوبوليتيكية، ويجب جعل هذه الاستثمارات مربحة دائمًا كنظام استهلاكي للأشياء (Foucault 1980: 13) ونتيجة لذلك، يصدر المعهد مذكرات ومطويات وكتب تلو الأخرى عن المزايا العظيمة للدراجات والطاقة الشمسية، وطواحين الهواء، والتخطيط الحضري، أو الزراعة المعتمدة على

المسمدات العضوية ليكشف عن أشكال أفضل من السلع الاستهلاكية المتاحة حاليًا. حيث تفترض خطابات الاستدامة أنه قد تم الوصول إلى مستوى معين من الوجود المادى والثقافى الذى يستوجب الحفاظ عليه. ويشكل هذا التكوين الاقتصادى توزيعًا جديداً لأنماط السعادة والخطابات والحقائق والسلطة، ويجب اعتباره بمثابة تأكيد ذاتى لطبقة واحدة، وليس استبعاداً لأخرى: كدفاع وحماية وتقوية وتصفية .... كوسيلة للضبط الاجتماعى والخضوع السياسى (Foucault 1980: 123) فالتنمية المستدامة تعنى تطوير طاقات استهلاكية جديدة بتعريف نموذج جديد للذاتية الخضراء المنظمة حول استدامة كل من العوالم الموضوعية الجديدة فى طبيعة ثانية أكثر حيوية، ونظم استهلاكية جديدة لأشخاصها الأحياء (Luke 1996)

وقد طرحت هذه القراءات الجيوبوليتيكية الجديدة للبيئة خطابات جديدة عن المسئولية الاجتماعية على الرأى العام، بما فى ذلك الجيو- بوليتيكا الخضراء الناعمة لإدارة كلينتون بقوانينها الخادعة ذات الأثر الإيكولوجى المحدود. وكان التعهد الرئاسى بنشر الطاقة الأمريكية كمؤسسة حماية بيئية يتزايد ويتناقص طوال ربع القرن الماضى، ولكن فى ١٩٩٥ جعل الرئيس كلينتون هذه الجيو- بوليتيكا الخضراء جزءً لا يتجزأ من منهجه العالمى "للالتزام". ومن أجل تأكيد قيادة أمريكا فى عالم ما بعد الحرب الباردة، والانتقال من عصر الصناعة إلى عصر المعلومات، ومن عالم الحرب الباردة إلى القرية العالمية، يؤكد الرئيس كلينتون :

"إننا نعلم أننا فى الخارج نتحمل مسئولية تقديم الحرية والديموقراطية- لدفع الرفاهية والحفاظ على كوكبنا ... فى عالم يتلاشى فيه بشكل مستمر ذلك الخط الفاصل بين السياسة الداخلية والخارجية... حيث يتأثر مستقبلنا الشخصى والأسرى والقومى بسياساتنا البيئية فى الداخل والخارج. فمصالحنا فى الداخل لا تنفصل ببساطة عن جهودنا لدعم مصالحنا حول العالم. فيجب أن يكونا شيئًا واحداً إذا أردنا أن نكون آمنين حقًا فى عالم القرن الحادى والعشرين"(Clinton 1995: 43)

وعندما تصبح إدارة كلينتون الجهة الكبرى لحماية البيئة على مستوى العالم، فإنها تعتبر نفسها الضامنة للقيادة الأمريكية للعالم بعد الحرب الباردة حسب بحث ماكيندر عن كفاءة إيكولوجية نسبية جديدة بين الأمم. ولأن أمريكا تمثل القائد الجيوبوليتيكى للعالم، فإنها تشترط أنها لا تستطيع تحقيق الرفاهية الاقتصادية والحفاظ على الإيكولوجيا بدون إزالة المزيد من الخطوط الفاصلة بين السياسة الداخلية والخارجية. وفى إطار ضبابية عصر المعلومات القادم وقريته العالمية، يجب ألا تفصل الولايات المتحدة بين الصالح العام الأمريكى والصالح العام للعالم الأكبر. وحتى يتحقق الأمان فى القرن الحادى والعشرين حقيقة ،يجب على كل فرد وأسرة وولاية أمريكية مهتمة بمستقبلها الجماعى أن تتلقى الخدمة من خلال أنشطة السياسات البيئية القومية. حيث أكد وزير الخارجية كريستوفر اهتمام الرئيس كلينتون بالبيئة من خلال فن الحكم المحلى والعمل الدبلوماسى: "حماية بيئتنا الهشة لها أهمية كبيرة طويلة المدى لبلدنا أيضًا، وسوف نكافح لإدماج أهدافنا البيئية كاملة فى دبلوماسيتنا– وهو شئ لم يحدث من قبل" (Christopher 1996: 12)

وتظهر هذه الجهود لربط النمو الاقتصادى بالمسئولية الإيكولوجية بصورة أكثر انتظامًا فى التأملات البيئية لنائب الرئيس آل جور. حيث يذهب جور إلى أن تأسيس هذه الجيوبوليتيكا الخضراء يوضح "أن مهمة استعادة التوازن الطبيعى للنظام الإيكولوجى للأرض" تؤكد أيضًا على "اهتمام أمريكا طويل الأجل بالعدالة الاجتماعية، والحكم الديموقراطى، واقتصاديات السوق الحر"(١٩٩٢: ٢٧٠) . ويمكن اعتبار السلطة الأخلاقية التى تظهرها هذه الإيكولوجيا الرسمية بمثابة التزام متجدد لما كان يعتبره جيفرسون بمثابة حقوق عالمية وليست أمريكية فقط : الحياة، الحرية، وتحقيق السعادة (Gore 1992: 270) ومع ذلك، يؤكد جور على مستوى آخر أن الاستراتيجيات العالمية الأمريكية بعد الحرب الباردة يجب أن تؤسس "علاقة طبيعية وصحية بين

الإنسان والأرض"، ليحل "التوجه البيئى للروح" محل الاستغلال البشع للطبيعة (Gore 1992: 218, 238)

ويأخذ برنامج جور لحماية الأرض منحنىً جيوبوليتيكيا عندما ينادى بإعداد "مشروع مارشال عالمى "لوضع التنمية المستدامة فى قلب السياسة الإيكولوجية. وكما يقول جور، انضمت عدة دول معًا فى ذلك المشروع التاريخى فيما بعد الحرب العالمية الثانية "لإعادة تنظيم كل مناطق العالم وتغيير طرق حياتها" (Gore 1992: 296) ويركز مشروع مارشال العالمى - مثل مشروع مارشال القديم- على "الأهداف الاستراتيجية والأنشطة والبرامج التى يمكن أن تزيل الاختناقات المعرقلة للأداء الصحى للاقتصاد العالمى حاليًا ..وذلك من أجل تلبية الحاجات الإنسانية وتشجيع التقدم الاقتصادى المستدام" (المرجع السابق، ٢٩٧). حيث يتم إعادة إدماج الأشكال الممكنة للاستدامة الإيكولوجية - فى الاستهلاك الضخم - فى برنامج فعلى لأيديولوجية نمو اقتصادى جديدة. ويصبح الحفاظ على استدامة الطبيعة بالحفاظ على الاستهلاك من نظمها الإيكولوجية فى الجيوبوليتيكا الخضراء هدفًا رئيسيًا للسياسة الخارجية الأمريكية، فى توافق كامل مع الآمال التى يطرحها المعهد. ويقول نائب الرئيس جور الأشياء الصحيحة عن تغيير فروضنا الاقتصادية عن الاستهلاك غير الذكى، ولكن حده الأدنى للتنمية المستدامة يوجد فى استدامة النشاط الأمريكى والصناعة والعلم من خلال أشكال استهلاك واعية إيكولوجيًا. ونظرًا لأن أمريكا تمثل الاقتصاد الرأسمالى القائد للعالم، يستنتج جور أن "الولايات المتحدة عليها التزام خاص باكتشاف طرق فعالة لاستخدام طاقة قوى السوق للمساعدة فى إنقاذ بيئة العالم" (المرجع السابق، ٢٧٤). وقد حشد نائب الرئيس جور مجموعة صغيرة من حوالى أربعين رجل وامرأة ، معروفين بصورة غير رسمية باسم "تكنوقراط جور"، لمساعدته على هذا المزيج العقلى الفريد بين التنظيم مرتفع التقنية والتوجه البيئى مرتفع المستوى للسباق الرئاسى لعام ٢٠٠٠ (Simons 1998: A1, A6) ومهما كان ما يوجد فى الطبيعة ولا يمكن وضعه تحت هذه المراقبة عالية التقنية، فإنه سوف يطرح على الانترنت كمجال مناسب للمحاكاة الرقمية.

وأكد نائب الرئيس جور مؤخراً هذه الاتصالات الأيديولوجية بالاتصالات والبيئة، من خلال تكليف وكالة ناسا بتقديم صور للأرض سابحة فى الفضاء على الانترنت. وسوف تذاع هذه الصور - والتى تحمل عنوان "كل الأرض كل الوقت" - حية على الشبكة العنكبوتية من سفينة فضاء صغيرة تقع فى مكان ما بين الأرض والشمس (Sawyer 1998 : A1) ولا يزال لدى جور صور مكبرة للأرض من أبوللو ١٧ معروضة فى مكتب الجناح الغربى فى البيت الأبيض، وهو يدعى الآن أن هذه التغذية الحية المستمرة لهذه اللقطة للأرض من سفينة فضاء تتبع "ناسا" سيكون لها "قيمة علمية هائلة" (Sawyer 1998 : A13)

وبالرغم من الجدل حول قيمته العلمية، فإن هذا النظام الفضائى للمراقبة له آثار جيوبوليتيكية حقيقية. فقد أدى تأكيد المراقبة البيئية فى الخطابات الجيوبوليتيكية الخضراء فى ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين إلى تغيير سلوك كثير من المؤسسات والجهات الحكومية نحو الطبيعة. ونظراً لأن "الأرض" فى حالة توازن- كما يقول آل جور- فإن الاستبعاد الميدانى للعديد من التكاليف البيئية لتحقيق بعض الفوائد الاقتصادية أصبح أقل انتشاراً فى معظم الدول حول العالم, إن لم يكن من حيث المبدأ على الأقل. ومع ذلك، فإن احتساب الأصول والخصوم بطريقة أكثر دقة- كتلك التى يقدمها المعهد- يوضح أيضًا فهمًا جيوبوليتيكيًا جديداً للعالم. إذ يجب على المرء تجاوز البريق الأخضر الناتج من وثائق مثل "تقرير برونتلاند" أو "جدول أعمال القرن الحادى والعشرين"، التى تدعى أن الإنسانية مستعدة لوقف حربها ضد "الطبيعة" وبداية عهد جديد من التعايش السلمى مع التوسع الطبيعى للأرض والكائنات غير المستأنسة. ففى الحقيقة نجد أن هذه المبادرات الدبلوماسية غالبًا- مثل العديد من التصورات الأخرى للتقنية المستدامة والنمو المتوازن أو التحديث الإيكولوجى- تظهر صحة موقف جيمسون فيما بعد الحداثة: وهو موقف "تكون فيه عملية التحديث كاملة وتسير فيه الطبيعة نحو الخير" (Jameson 1991: ix) وكذلك يوضح القبول العام للمعهد لدى كثير من الحكومات مدى بعد تأثير عملية تكوين البيئة الأساسية للكوكب على دمجها العلمى التقنى للمجالين الحيوى والتقنى.

الخلاصة

نجح مؤتمر ريو دى جانيرو البيئى فى ١٩٩٢ فى إقناعنا بمبادئ أجندة القرن الحادى والعشرين، كما أقنعنا المؤتمر "بالطبيعة المتكاملة والمتبادلة للأرض" وهو ما أكد على أن "الأرض بيتنا (Grubb et al.1993: 87)

وهكذا فإن فرض مراقبة عالمية على الأرض يمثل أحد أشكال "بناء بيت" عالمى، يجب مراقبة عملياته ومدى تقدمه، كما يقول المعهد، وذلك من خلال مجموعتين من المراجع المتفق عليها حاليًا، والممثلة فى سجلات الاقتصاد وسجلات الإيكولوجيا. وتتمثل نظرة المعهد للأرض فى أنها أسرة رشيدة مستجيبة، يقوم العمل الاقتصادى فيها بتحويل كل شئ إلى سلع، ولا تبدد شيئًا، وتدمج الطبيعى والاجتماعى فى مجموعة واحدة كبيرة من الحسابات العائلية ,بحيث يوازن أداؤها بين الاستهلاك والإنتاج على كل مستويات التحليل من ضواحى المدن حتى طبقة الستراتوسفير الجوية ,فى موازنة للميزانيات الإقليمية للتحديث الإيكولوجي. وكما يقول بودريلارد "يتضمن هذا وضع حسابات عملية" ومفاهيم على أساس التجريد الكامل، وعلى فكرة أن العالم لم يعد هبة معطاة، ولكنه يُصنع، ويمكن السيطرة عليه والتحكم فيه وابتكاره: أى أنه عالم يجب بناؤه"(Baudrillard 1996: 28-9)

وتعتبر أعمال المعهد بمثابة أطر بوسعها تقديم علاقات اجتماعية بيئية جديدة للإنتاج والاستهلاك، وذلك بحماية الموطن البيئى لأنه المصدر الوحيد لحياة سكانه. وكما يقول بودريلارد:

"إن الطبيعة القديمة العظيمة قد ماتت، وحلت محلها بيئة جديدة تحاكى بذاتها وتصمم بنفسها موعد موتها، وتسعى إلى استعادة الطبيعة كنموذج محاكاة... ونحن

ندخل بيئة قائمة على توليف مركب لم يعد الاتصال المجرد الكامل يترك فيه أى شئ خارج النظام" (Baudrillard 1981: 202)

ويمكن استيضاح كيفية عمل الجيوبوليتيكا الخضراء من خلال وضع الحياة البرية والهواء والماء والاستيطان أو الطبيعة فى نظم جديدة معقدة من السلع النادرة وذلك باسم حماية البيئة، ثم تبدأ بعد ذلك مرحلة تنظيم الاستهلاك الاجتماعى من خلال النشاط الايكولوجى. وفى هذه الحالة تصبح الجيوبوليتيكا الخضراء نظاما يراقب فيه المجتمع الاقتصاد السياسى وذلك بهدف إعادة دمج المعادلات الصعبة للاستخدام الحكيم للأرض على أسس من الاستهلاك الرشيد المتناغم أيكولوجيا.

ولكى نعيد تصور سعى ماكيندر للكفاءة النسبية بمصطلحات الجيوبوليتيكا الخضراء، يمكن أن نشير إلى السطر الافتتاحى فى تقرير برونتلاند الذى يقول فيه: "فى أواسط القرن العشرين رأينا كوكبنا من الفضاء للمرة الأولى"، وهو ما أصبح نبوءة تحققت ذاتيًا بممارسة "تأثير أكبر على الفكر مقارنة بثورة كوبرنيكوس فى القرن السادس عشر" (World Commission 1987: 1) فعندما ترى الأرض من الفضاء للمرة الأولى، فإن "نظمها الإيكولوجية الطبيعية" و"قاعدة مواردها البيئية" يمكن دراستها ورؤيتها فى المسعى الجيوبوليتيكى لتعظيم العمليات الاقتصادية للحياة والصراع. وتعكس مقدمة أجندة القرن الحادى والعشرين مغزى هذه الأفكار للمؤرخين لتقرير برونتلاند مستقبلاً كما يلى :

"إن الإنسانية تقف عند لحظة فاصلة فى تاريخها. فنحن نواجه ظلما مستمراً داخل الأمم وبين بعضها البعض، وتزايداً فى الفقر والجوع والمرض والأمية، واستمرار تدهور النظم الإيكولوجية التى تعتمد عليها حياتنا. ومع ذلك، فإن تكامل الاهتمامات البيئية والتنموية، وزيادة الاهتمام بها، سوف يؤدى إلى إشباع الحاجات الأساسية. وتحسين مستويات المعيشة للجميع، وتحسين حماية وإدارة النظم الإيكولوجية، وتحقيق مستقبل أكثر أمنًا ورفاهية. ولا تستطيع أية أمة تحقيق ذلك بمفردها، ولكننا جميعًا

نستطيع تحقيق ذلك من خلال شراكة عالمية من أجل التنمية المستدامة" .Grubb et al) (1993: 83

ويمكن اعتبار مقدمة أجندة القرن الحادى والعشرين بمثابة دستور جديد للجيوبوليتيكا الخضراء طالما أن فحواها الأساسى يصور الأوامر الإدارية "للإنسانية" فى الإدارة الجيوبوليتيكة للأرض، ويدمج نظمها البيئية والتنموية فى "شراكة عالمية" لزيادة حماية كل النظم الإيكولوجية وتحسين مستويات المعيشة للجميع من خلال التحول العلمى التقنى.

وبمجرد أن تصبح الإيكولوجيا علمًا للإدارة الدولية، فإن اتجاهاتها الإحصائية ستنتشر خلال المراقبة الرقمية للطبيعة أو الأرض وكائناتها غير البشرية، بالإضافة إلى دراسة الثقافة، أو المجتمع وأعضائه من البشر، مما يقدم لنا جيوبوليتيكيا مكتوبة فى القواعد السياسية الخضراء لمراقبى العالم. وتركز الحكومات الآن، وكذلك إيكولوجيا المؤسسات والدول، اهتمامها على "إدارة الإدارة"، خاصة فى التوجه الاستهلاكى "شراء الشراء". والموطن هو الموطن، على نحو ما يعرف أى متخصص فى الدلالات اللغوية لهذه المفردات، أو على نحو ما يقدر عالم سكان أو باحث فى علم النفس يعمل لصالح مؤسسات كبرى. وربما كانت الاهتمامات الأخلاقية للأسرة والمجتمع والأمة توجه سابقًا كيفية إدارة الإدارة، ومع ذلك، نجد أن البيئة فى هذه المرحلة تمثل الأساس الحاسم لتطبيع سلوك كل فرد (Ocum 1975)

وتصبح الإيكولوجيا فى عمل المعهد نمطا رسميا لتوجيه "الاهتمام المنظم لعمليات الحياة... واستثمار الحياة بصورة مستمرة" (Foucault 1980:139) وبالتالى تحويل كل الكائنات الحية إلى مستودعات حيوية لتطوير التجارة العابرة للقوميات. فما كان الانفجار الهائل فى الرفاهية الاقتصادية العالمية – بالرغم من توزيعاتها المكانية غير العادلة – بعد أزمات الطاقة فى السبعينات، ليتحقق بدون إيكولوجية المعهد لتوجيه "الدمج المنظم للأجهزة فى آلية الإنتاج، وتكييف ظاهرة السكان مع العمليات

الاقتصادية (Foucault 1980: 141) وتظهر السياسة العامة لكل نباتات وحيوانات الأرض من داخل الجيوبوليتيكا الخضراء كخطط إستراتيجية لنوع جديد من الإدارة العالمية التى يكتسب فيها إداريو الموارد البيئية أساليب السلطة القادرة على تعظيم القوى والتطلعات والحياة بصفة عامة، بدون أن يؤدى ذلك إلى صعوبة التحكم فيها فى نفس الوقت" (Foucault 1980: 141)

وفى النهاية ,فإننا لا نستطيع أن نفهم جيداً حشد الخطابات الخضراء لسياسات جيوبوليتيكية فى الأنظمة السياسية المعاصرة– مثل الولايات المتحدة الأمريكية – بدون أن نرى كيف تعتنق خططها ومؤسساتها هذه الأنماط العملية البيئية كجزء لا يتجزأ من ممارسات الإدارة العادية. ويعتبر إقرار المراقبة العالمية المستمرة للأرض إجراءً عملياً معيارياً الآن، بالرغم من توجيهات نائب الرئيس جور الحديثة لناسا ببناء أقمار صناعية. وتتجمع الأخلاقيات المحافظة وإدارة الموارد، ونبرات الخطاب الإيكولوجى فى الجيوبوليتيكا الخضراء كقوة ضخمة تعتمد على المعرفة، حيث يصبح خطابها البيئى عن الكفاءة النسبية فى منظمات السياسات عابرة القوميات – مثل المعهد – عنصراً مكملاً لهذا النظام الجيوبوليتيكى الجديد.

قائمة المراجع

Baudrillard, J. (1981) *For A Critique of the Political Economy of the Sign*, St. Louis: Telos Press

——— (1996) *The System of Objects*, New York: Verso.

Berry, T. (1988) *The Dream of Nature*, San Francisco: Sierra Club Books.

Bourdieu, P. (1984) *Distinction: A Social Critique of the Judgement of Taste*, Cambridge, Mass.: Harvard University Press.

Brown, L. (1981) *Building a Sustainable Society*, New York: Norton.

Brown, L. *et al.* (1995) *State of the World*, New York: Norton.

Brown, L., Flavin, C. and. Postel, S (1991) *Saving the Planet*, New York: Norton.

——— (1996) *State of the World*, New York: Norton.

——— (1997) *State of the World*, New York: Norton:

——— (1998) *State of the World*, New York: Norton.

——— (1999) *State of the World*, New York: Norton.

Christopher, W. (1996) 'Leadership for the next American century', *US Department of State Dispatch* 7, no. 4 22 January 1996: 12.

Clinton, B. (1995) 'Address at Freedom House, 6 October 1995', *Foreign Policy Bulletin* (November/December).

Commoner, B. (1990) *Making Peace with the Planet*, New York: Pantheon.

Cosgrove, D. E. (1994) 'Contested global visions: one-world, whole-earth, and the Apollo Space photographs', *Annals of the Association of American Geographers* 84 (2): 270–94.

Foucault, M. (1980) *The History of Sexuality*, vol. I: *An Introduction*, New York: Vintage.

Fukuyama, F. (1992) *The End of History and the Last Man*, New York: Free Press.

Gore, A. (1992) *Earth in the Balance: Ecology and the Human Spirit*, Boston: Houghton Mifflin.

Grubb, M. *et al.* (1993) *The Earth Summit Agreements: A Guide and Assessment*, London: EarthScan Publications.

Haraway, D. J. (1991) *Simians, Cyborgs, and Women: The Reinvention of Nature*, New York: Routledge.

Jameson, F. (1991) *Postmodernism, or the Cultural Logic of Late Capitalism*, Durham: Duke University Press.

Kaplan, R. (1996) *The Ends of the Earth*, New York: Random House.

Kearns G. (1993) '*Fin de siècle* geopolitics: Mackinder, Hobson and theories of global closure', 9–30 in P. J. Taylor (ed.) *The Political Geography of the Twentieth Century: A Global Analysis*, London: Belhaven.

Knickerbocker, B. (1997) 'Jane Lubchenco', *Christian Science Monitor*, 15 August: 1.

Luke T. W. (1993) 'Green consumerism: ecology and the ruse of recycling', 90–117 in J. Bennett and W. Chaloupka (eds) *In the Nature of Things: Language, Politics and the Environment*, Minneapolis: University of Minnesota Press.

——— (1995) 'On environmentality: geo-power and eco-knowledge in the discourses of

contemporary environmentalism', *Cultural Critique* 31 (Fall 1995): 57–81.
—— (1996) 'Liberal society and cyborg subjectivity: the politics of environments, bodies and nature', *Alternatives* 21: 1–30.
—— (1997) *Ecocritique: Contesting the Politics of Nature, Economy and Culture*, Minneapolis University of Minnesota Press.
McKibben, B. (1989) *The End of Nature*, New York: Random House.
Mackinder, H. (1904) 'The geographical pivot of history', *Geographical Journal*, 23: 422.
Ó Tuathail, G. (1992) 'Putting Mackinder in his place: material transformation and myth', *Political Geography* 11(1): 100–18.
—— (1996) *Critical Geopolitics: The Politics of Writing Global Space*, Minneapolis: University of Minnesota Press.
Odum, E. (1975) *Ecology: The Link Between the Natural and Social Sciences*, second ed. New York: Holt, Rinehart and Winston.
Ryan, J. (1994) 'Visualizing imperialism: Halford Mackinder and the Colonial Office Visu Instruction Committee', *Ecumene* 1: 157–76.
Sale, K. (1985) *Dwellers in the Land: A Bioregional Vision*, San Francisco: Sierra Club Book.
Sawyer, K. (1998) 'The world turning in a click', *The Washington Post*, 13 March: A1, A1
Simons, J. (1998) 'How a Vice President fills a cyber-cabinet: with Gore-Techs', *The Wa Street Journal*, 13 March: A1, A6.
Spykman, N. (1938) 'Geography and Foreign Policy II', *American Political Science Revie* XXVII (April): 237.
World Commission on Environment and Development (1987) *Our Common Futur* Oxford: Oxford University Press.
WorldWatch Institute (1999) '*Mission Statement*': (http://www.worldwatch.org/).

الفصل الخامس عشر

الجيوبوليتيكا والجغرافيا السياسية والعلم الاجتماعى

بيتر تيلور

دعون أبدأ بمحاولة وضع الجيوبوليتيكا ف منظور مؤسس معن. فه كعلم فرعى تعتبر محدودة المجال للغاة، بالرغم من تغر حجمها فما بن الدول وعبر الزمن. وعلى سبل المثال، تعتبر الجوبولتيكا ف الحقيقة مجالاً ضعفًا جداً، بالمقارنة بعلم "العلاقات الدولة" المشابه لها، من حث الأقسام الجامعة والدورات العددة. وفى الحققة تقع الجيوبوليتيكا على هامش الهامش، إذ لم تكن علاقتها مع الجغرافا الساسة سهلة دائمًا، والت كانت بدورها تقع على هامش الجغرافا البشرة، والت ه بدورها أضا لم تؤسس نفسها ف قلب العلم الاجتماع. ولا شك ف أن هذه المقارنة بسطة ومبدئة، ولكن لا بدو أن باحث الجيوبوليتيكا خشون هذا الموقع الفكر. بل إنهم اكتشفوا الجيوبوليتيكا فى كل شئ، من السياسات العلا إلى الثقافة الشعبة، بحث أن حجم موضوعهم لم عد قارن بحجم علمهم الفرع. وقد كون هذا بمثابة الوضع المدهش وغير العادى وربما الفرد للمشروع الثقاف الذ ساهم فه هذا الكتاب.

وهناك سببان متصلان لعدم استقرار الجيوبوليتيكا بسهولة داخل العلم الاجتماع. فأولاً، نجد أن العلوم الاجتماعة ككل قد تطورت ف القرن العشرين من خلال ما يمكن تسميه الدولانية المتضمنة Embedded Statism (Taylor 1996b) وأنا أعنى بذلك أن الدول قدمت الظروف اللازمة للتحلل، سواءً كمجتمع أو كاقتصاد أو كنظام سياسى. ومع ذلك كانت هذه الظروف تعتبر من المسلمات. وهكذا كان الاهتمام النظر بفهم الدولة قللاً، قبل أن لقى انتعاشا مع الانتقاد الماركس بعد ١٩٦٨ . وثانيًا، كان منظور الدولة هذا مل بشدة إلى التركز على دولة واحدة مختارة لكل دراسة، مما أهمل العلاقات والصلات بن الدول. وأنا أقصد بذلك أن تعدد الدول الذى نعكس ف العلاقات فما بنها لم حظ بالبحث العلم الكاف (Taylor 1995) وتعتبر هذه النتجة متناقضة ف القرن العشرن الذ شهد حروبا عالمة وكثرا من العنف بن الدول، ولا عجب ف أن ميشل مان Michael Mann (1988: Viii) قد أدان العلم الاجتماعى لأنه "هادئ بسخافة". وحتى فى العلوم الساسة، كانت العلاقات الدولة "سندرلا" هذا العلم الفرع. وفى ظل هذه الظرف المزدوج، فإنه حتى إذا كانت أصول العلم الاجتماع للعلاقات الدولة موضع شك، فإن العلم الاجتماع لم كن أرضًا خصبة لنمو البحث الجيوبوليتيكى.

ولكن يجب أن نكون حرصن من التعمم بشأن العلم الاجتماع. فقد كان النمو الكبر لهذا القسم من المعرفة ف القرن العشرن ظاهرة تقودها أمركا بمساعدة برطانة كبرة. وبالرغم من الاعتماد على التراث الأوروب للقرن التاسع عشر، إلا أن التشاؤم الاجتماع لهؤلاء "الآباء المؤسسن" للنظرة الاجتماعة قد تحول إلى تفاؤل أمرك بحلول منتصف القرن (Taylor 1996a)، وكان من نتائج ذلك ضعف الاهتمام بالدولة كإطار مرجع مجرد. ومع ذلك، كان لهذا الفراغ الفكر جذور تارخة طولة ف التقلد الساس الانجلز أولاً ثم الأمرك لاحقًا (Dyson 1980)، والذ كان بدوره بمثابة عنصر هام ف طبعة الممارسة الأنجلوأمركة السائدة ف العلم الاجتماع. وعلى العكس، فإن التقالد الأوروبة المختلفة لدراسة التغر الاجتماع لم تترك الدولة للإهمال الفكر، حتى عندما انتشرت سطرة العلم الاجتماع خارج مركزها. وقد عكست الجوبولتكا هذا التوتر الجغراف والفكر ف إنتاج المعرفة. حث جاء "أبواها المؤسسان" من كل من هذن التراثن- إذ ساهم الانجلز ماكندر بصفة خاصة ف "الأرض" Geo الت فسرت على أنها "عالمة"، بنما ساهم الألمان راتزل بصفة خاصة ف "الساسة" Politic الت فسرت على أنها ساسات قوة الدول. وهكذا فإنه بالرغم من أن هذه التولفة لم تزدهر ف فضاء العلم الاجتماع، إلا أنها وجدت مساحة للتطور حث ظلت الدولة موضع اهتمام قوى خارج النطاق الأنجلوأمركى، على نحو ما أوضحت بعض الفصول السابقة من الكتاب الذ بن أدنا.

لقد كان هذا هو الساق الثقاف الذ ظلت فه الجوبولتكا ضئلة ومهمشة، ولكنها كانت تمل إلى الظهور غر متجاوزة لمكانة شخص سئ السمعة مروج للحرب ف الوقت الذ زداد فها الطلب على علم الاجتماع "الهادئ" الرزن. وعلى سبل المثال كانت الجوبولتكا الألمانة تقود الحرب العالمة الثانة، وبدرجة أقل كانت الجوبولتكا الأمركة تقود الحرب الباردة الثانة (Dalby 1990) ومن هنا جب أن تكون توقعاتنا متواضعة عندما ننظر إلى إسهامات الجوبولتكا ف فهم التغر الاجتماع. إذ قال إن الجوبولتكا انطلقت من مخاوف "نهاة القرن التاسع عشر" مع الوصف العنف الضمن لهذا العلم الفرع بأنه

ناتج عن هذا الخوف (انظر الفصل الثان) ومع إدراك حقائق الأمور مؤخراً، نعرف الآن أن المشاكل والاهتمامات الت واجهت المجتمع العالم ف القرن التاسع عشر، قد حلت، جزئيًا،

فى القرن العشرن بظهور الأمركة وحركات المد الشوع. ومع ذلك سنبحث دون جدوى عن جهود بحثة متسقة ومستمرة ف الجوبولتكا، خاصة ف التقلد الأنجلوأمركى، ولن نجد أ مما نبحث عنه سواء ف العملات والعلاقات الأساسة لهذه "الحلول الفكرة", حث أهملت موضوعات مثل تطور الاستهلاكة العالمة، وانتشار دول الرفاهة، والحرب الباردة، أو حتى صعود وانهار الشوعة. وكان الموضوع الوحد الذ حظ بجهد مستمر تمثل ف مجال الجواستراتجا الضق، بل حتى هنا نجد أن الموضوع العالم الحرج الذ تمثل ف التهدد النوو للإنسانة لم حظ باهتمام لائق (وكان الاستثناء المشرف تمثل ف أعمال William Bung 1973, 1982, 1989 وفى ظل هذا السجل التارخ نتساءل هل ستحق الأمر تناول "مستقبل واحتمالات" التراث الجوبولتك ف مطلع القرن الحاد والعشرن ، الذ مثل التلخص الذ أقدمه هنا؟

والإجابة هنا بنعم، لثلاثة أسباب متصلة. فأولاً، تظل الجيوبوليتيكا محدودة نسبًا، ولكن ف ظل النمو الكبر ف بحوث العلم الاجتماع ف العقود الأخرة أصبحت الجوبولتكا أكبر من حث الحجم المطلق لدرجة أنها وصلت إلى ما مكن اعتباره كتلة حرجة لإعادة إنتاجها أ أن هناك عدداً كافًا من الدارسن الذن عملون الآن على هذا المصطلح لضمان أن ظل موضوع اهتمام فكرى جاد ف المستقبل المنظور. وثانًا، تتحرك الجوبوليتيكا الآن إلى مركز اهتمامات العلم الاجتماع المعاصر. وتجسد هذا من خلال منشورن على وجه الخصوص، الأول لجون أجنو وستوارت كوبردج وعنوانه "السطرة على الفضاء"، والثان لجرالد أوتواتل وعنوانه

"الجيوبوليتيكا النقدة"، مع تركز الأول على الاقتصاد الساس، والثان على ما بعد الحداثة / ما بعد البنوة. حث وضح كل منهما الطرق الت تستطع بها الأسالب

والتحللات الجويولتكة دراسة الهاكل العالمة المعاصرة، وفتح كل منهما آفاقًا جددة للبحث. وثالثًا، تقدم الأشكال المعاصرة للتغر الاجتماع فرصة مشجعة جداً للجيوبوليتيكا للتحرك بعداً عن الهامش الفكر. ومن هنا جاءت حققة أن الكتابات الحدثة الت تتناول قضاا العلوم الاجتماعة الأساسة لست مجرد مسألة نمو علم فرع. بل إن الدول أصبحت جوهرة ف إعادة التشكل العالم، من حث أدوارها الساسة والاقتصادة، وهذه حققة أزالت الطبعة الغامضة لوجودها ف العلم الاجتماع. فمع عودة العلوم الاجتماعة مرة أخرى إلى دراسة ظاهرة الدولة، تستطع الجويولتكا المساهمة بشئ جوهر غر إثارة الحروب الخطرة.

وعتمد تقم مستقبل واحتمالات الجيوبوليتيكا أساسًا على كفة تفسر التغر الاجتماع المعاصر. حث قول أحد تفسرات ما بعد الحرب الباردة إنه مع حسم الصراع الساس الكبر، أصبح "اقتصاد الأرض" Geo-Economic حل محل الجويولتكا ذات النمط القدم (Luttwak 1990) وأنا أعتقد أن هذه نظرة غر تارخة للتغر الاجتماع. وبالطبع فإن المنافسة الاقتصادة بن الدول لست جددة ولا حدثة من حث موقعها ف قلب العلاقات بن الدول. ومكن اعتبار موجة الحمائة ف أواخر القرن التاسع عشر بمثابة "اقتصاد الأرض" فغالبًا ما شار إلها على أنها "المذهب التجار الجدد" بما وضح وجود "حقبة اقتصاد أرض" سابقة، وهى المذهب التجار الأصل ف القرنن التاسع عشر والثامن عشر. ومن هذا المنظور، فإن المنافسة الاقتصادة الحادة الحالة والت توازها همنة ساسة لـ "قوة عظمى وحدة" (الولاات المتحدة) تشبه المذهب التجار الجدد منذ قرن مضى، والت توافقت مع إمبراطورة عالمة مسطرة ساسًا (المملكة المتحدة). ولا زال العملاقان الساسان (الولاات المتحدة والمملكة المتحدة) قودان القوى الاقتصادة، ولكن كلاً منهما فقد هوامش السطرة السابقة. وبالتال فإنه لس "اقتصاد الأرض" الذ مز الأوضاع الحالة للتغر الاجتماع، بل ه متمزة بطرق أخرى.

فبحسب دراسة والرستون Wallerstein (1996) فإن هناك ثلاثة تغرات جوهرة معاصرة لا مكن تفسرها بمصطلحات ذات دورة زمنة، سواء كانت هذه الدورات مهمنة

أو دورات كوندراتفة، إما مسطرة أو خاضعة. أولا، بعد عدة عقود من زادة قوة الدولة والمركزة، واجهت الدولة ف العقود الأخرة تحدات غر مسبوقة، داخلاً – مثل سطرة المن الجدد على الدولة، وخارجًا – مثل العملات العابرة للدول ف خضم العولمة. وهذا هو ما وضع الدولة صراحة ف مرحلة مركزة ف التغر الاجتماع، وترتب على ذلك أن الجوبولتكا أصبحت أقل هامشة عما كانت عله. وبدلاً من قبول الدول كأمر مسلم به صارت تعد جزءً من مكونات السلطة الت عمل من خلالها التغر الاجتماع. وبعد أن أصبحت الدول لا تمثل الموقع الوحد الضمن للسلطة، تحولت إلى كان هام للسلطات الرسمة الت تتفاعل مع فضاءات التدفق مثل شبكة المدن العالمة. ولس هناك شئ جدد عن اجتاز فضاءات الأقالم بفضاءات التدفقات الانسابة (Arrighi1994) ومع التسلم بأنه مكن النظر إلى الدولة بهذه الطرقة (Castells1996 تبدو الدولة فعلا راسخة ف نظرتنا للعالم. ولكن بعد تحرر الجوبولتكا من هذا القناع، وكذلك الجغرافا الساسة بدرجة أكبر، أصبح لدها إمكانات للمساهمة ف فهم علاقات القوة المكانة الصاعدة على كل المستوات الجغرافة.

وتمثل التغر المتمز المعاصر الثان ف تراجع العلمانة. حث كان ظهور أصولات دنة جددة مفاجأة من الدرجة الأولى للحداثن الذن أرسلوا الدن إلى التارخ باعتباره أحد خرافات ما قبل الحداثة، ورتبط هذا بالدور المتغر للدول، حث ظهرت العلمانة جزئًا بسبب صراعات الدولة والكنسة. ولس هناك حاجة إلى متابعة هنتنجتون Huntington (1993) لتقدر أهمة هذا الاتجاه. فهذه لست مسألة حدود بسطة بن "الحضارات"، لأن مزج الشعوب ورفاهتها أصبح أكثر تقدمًا من ذلك. ولكن وجد لدنا وضع آخر لاجتاز الفضاءات، وتدفق المعلومات والصور الت تؤثر على التركبة الثقافة عند مختلف المستوات الجغرافة. وهذا لس جددًا، فقد أشارت إلى ذلك بعض الفصول السابقة. ومع ذلك، نجد أن مسائل العولمة الت جمعت بن التقالد المختلفة، بما ف ذلك الحداثة، ومزجتها ف اتصال وصراع مباشر أدى جزئًا إلى ظهور أصولات عنفة تولدت عما كان نُظر إله سلفا كتراث منفصل ومتبان (Giddens 1994: 100) وبعبارة أخرى، فإن عملة

الخلط، ولس صدام الكتل الحضارة، ه الت تمثل الوضع الجدد. وهكذا تبدو احتمالات اختلاف الجوبولتكا والجغرافا الساسة لا نهائة ف هذا المجال.

ورتبط بهذن التغرن المتمزن مفاجأة تراجع قوة إماننا بالعلم. فطوال أكثر من قرنن كانت الحداثة تقوم على معتقدات التقدم الذ عتمد على التقنات القائمة على العلم الحدث. ولكن القلق المعاصر على المصر الذ سؤدى هذا إله، اكولوجًا ووراثًا على وجه الخصوص، كان عنى أن العلماء تحولوا من أبطال التقنات الحاسوبة المعاصرة إلى أشباح فرانكشتان الخطرة. ومن الواضح أن العلم لن ختف، ولكن ف أسوأ الظروف قد بدو أن الجوبولتكا لها تقلد انتقائ ستطع التلاعب بهذا الحقل من الألغام الفكرة المخادعة. فعادة ما كان التراث الجوبولتك ربك المواقف الفكرة، فعلى سبل المثال، كان ماكندر وراتزل مجدان المادة العلمة كوسلة لتحقق الغاات القومة الحالمة. ومن الطرف أن الممارسن ف مجال اقتصاد الأرض بدو أنهم عاكسون هذا الاتجاه الذرائع، وذلك باستخدام القومة الحالمة لتحقق ما كف من أرباح مادة. ومع ذلك، فإن المشكلة الأساسة تكمن ف أنَ التغر الاجتماع ف القرن الحاد والعشرن لم درس جداً من خلال المواقف الفلسفة الأصولة من القرن التاسع عشر. وهكذا فإن الانتقائة البدائة للجوبولتكا الت كانت تتعرض للسخرة ف الماض، مكن أن تصبح تراثا فكرا حظى بالتقدر ف المستقبل.

قائمة المراجع

Agnew, J. and Corbridge, S. (1995) *Mastering Space. Hegemony, Territory and International Political Economy*, London and New York: Routledge.

Arrighi, G. (1994) *The Long Twentieth Century*, London: Verso.

Bunge, W. (1973) 'The geography of human survival', *Annals, Association of American Geographers* 63: 275–95.

—— (1982) *The Nuclear War Atlas*, Victoriaville, Quebec: Society for Human Exploration.

——. (1989) 'Epilogue: our planet is big enough for peace but too small for war', 355–7 in R. J. Johnston and P. J. Taylor (eds) *World in Crisis*, Oxford: Blackwell.

Castells, M. (1996) *The Rise of the Network Society*, Oxford: Blackwell.

Dalby, S. (1990) *Creating the Second Cold War*, London: Pinter.

Dyson, K. H. F. (1980) *The State Tradition in Western Europe*, Oxford: Robertson.

Giddens, A. (1994) 'Living in a post-traditional society', in U. Beck, A. Giddens and S. Lash *Reflexive Modernization*, London: Polity.

Huntington, S. (1993) 'The clash of civilizations', *Foreign Affairs* 72: 22–49.

Luttwak, E. (1990) 'From geopolitics to geo-economics', *National Interest* 20: 17–24.

Mann, M. (1988) *States, War and Capitalism*, Oxford: Blackwell.

Ó Tuathail, G. (1996) *Critical Geopolitics*, Minneapolis: University of Minnesota Press.

Taylor, P. J. (1995) 'Beyond containers: internationally, interstateness, interterritoriality', *Progress in Human Geography* 19: 1–15.

——. (1996a) *The Way the Modern World Works: World Hegemony to World Impasse*, Chichester: Wiley.

—— (1996b) 'Embedded statism and the social sciences: opening up to new spaces', *Environment and Planning* a 28: 1917–28.

Wallerstein, I. (1996) 'The global picture, 1945–2025', 209–25 in T. K. Hopkins and I. Wallerstein (eds) *The Age of Transition. The Trajectory of the World-System, 1945–2025*, London: Zed.

الفصل السادس عشر

أهميـة الأشياء الصغيـرة

نيـجل تـرفت

تميل الجيوبوليتيكا حاليًا إلى أن تأخذ شكل خطاب يمكن فهمه بصورة استطرادية، وهكذا فإنه "بالرغم من أن الجيوبوليتيكا من مفاهيم القرن العشرين. إلا أنه يمكن فهمها كمجال جديد للخطاب داخل مجال القوة الأرضية المستقر منذ زمن، والذى يعرف بأنه التطور التاريخى المتشابك للمعرفة الجغرافية مع قوة الدولة ومضامينها بالنسبة لطرق الحكم " (óTuathail1997:39) وأنا أريد أن أقول فى هذه الكلمة الختامية إن العاملين فى الجيوبوليتيكا قد التزموا بهذا التعريف حرفيًا، مما جعل العالم بمثابة بناء استطرادى بطريقة لها نتائج مثيرة للمشاكل بالنسبة لفهم كيف (ثم لماذا) تمارس القوة الأرضية فى الواقع. وبالتحديد فإننى أريد أن أقول إن هذا التدريب على الوصف الحرفى يترك الكثير من "الأشياء الصغيرة" - أشياء "دنيوية" مثل الملفات، وأناس هامشيون مثل الموظفين، وكلمات صغيرة مثل أل التعريف - التى تعتبر جوهرية بالنسبة لترجمة ما هو جيوبوليتيكى إلى حقيقة واقعة.

لقد أصبح مصطلح "الخطاب" مخادعًا سيئ السمعة، وليس لدى المجال للدخول هنا فى كل تفاصيل الحوار. ولكن هناك شيئًا مؤكدًا، وهو أن الخطاب يشكل أو يحدد موضوعه، وأنه لا يوجد شئ خارج عن اللغة، وهذا أمر شائع الآن. ومن المدهش أن أعدادًا كبيرة من منظرى الخطاب لا يزالون يعملون صراحة أو ضمنًا، بنموذج لغوى للإشارة والدلالة (أو التعبير والمضمون)، وبالتالى يميلون إلى القول بأنه لا يمكن اعتبار العالم بناءً استطراديًا. وعلى سبيل المثال، يقول كورنيل Derridean, Drucilla Cornell (1992:1) إن الحقيقة ليست تفسيرًا متصلاً ببساطة". وحتى جيوديث باتلر Judith Butler (1993:68)، العميد الحالى لمنظرى الخطاب، تقول "ليس كل ما يشتمل على عناصر مادية قابل للتعبير عنها لغويا ". (وبالرغم من أن موقف باتلر أكثر دقة مما توضحه العبارة. وفى هذا الصدد يقول كيربى Kirby (1997:126) إن باتلر لا تزال تعمل بنموذج الفصل بين الإشارة والدلالة، ومن ثم فهى لا تتدخل سوى فى قشرة القشرة، ذلك لأنها تفترض أن التمييز بين الأشياء لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال تميز الشىء ذاته").

وبعبارة أخرى، نجد فى أعمال كثيرة عن الخطاب أن "العرض" يتراجع باستمرار فى كل أنواع الأشباح المزاحة، ولذلك تسيطر الأشباح على هذا العمل وربما حان الوقت الآن للعودة إلى دريدا الذى حاول خلط الإشارة والدلالة من خلال فكرة الكتابة التى تخطت النطاق اللغوى بحيث "تنقش الطبيعة الكلمات أو يقرأ الجسد Nature scribbles or flesh reads

يشعر البعض أن الكلمة والجسد متضمنان تماماً، ليس لأن "الجسد" عبارة عن كلمة توصل حقيقة ما يشار إليها، ولكن لأن كيان الكلمة وهوية الإشارة، ونظام اللغة، ومجال الثقافة، ليس منها ما هو منغلق على ذاته بصفة مستقلة. بل إنها تظهر داخل مجال قوة للتمايز ليس له أى شئ خارجى بأى معنى" (Kirby 1997: 126-7)

وبالرغم من أنها تختلف عن بعضها، إلا أنها عندما توضع بهذه الطريقة فإن المرء يرى معنى نفاد الصبر مع التمييز بين الإشارة والدلالة والإخلاص لقيم الظهور فى أعمال ديلوز، ونفس التطلع إلى معنى إعادة التوزيع المستمر، للمسارات والتحولات فى عملية لا تنتهى.(١)

ولكن يبدو لى أن الكثير من الجيوبوليتيكا النقدية أقرب إلى المعنى الأول للخطاب من المعنى الثانى. فالخطاب عبارة عن قوة تنقش حروفا فى هذا العالم، مهما كانت بساطة هذا النقش وعلاقته بالعالم. وأنا أريد أن أقول إن هذه العلاقة التمثيلية هى التى تتجسد فى صميم الغياب الذى أريد إظهاره فى الجيوبوليتيكا النقدية التى تمارس حالياً، وهى العلاقة التى تجعل من الصعب أن نأخذ بجدية كل الأشياء الصغيرة التى تساهم فى القوة الجيوبوليتيكية، أو المدى الكامل للتقسيمات الإقليمية القائمة فى أى وقت.

كما أنى أعتقد أن هذا العرض هو الذى يفسر مثلاً الاهتمام الواضح بالنصوص والصور فى الجيوبوليتيكا النقدية، والجغرافيا النقدية بصفة عامة، وذلك على حساب الأشياء المتحركة الأخرى. وأعتقد أيضاً أن هذا العرض هو الذى يفسر بعض

الانجذاب الواضح إلى منظرين مثل فيريليو، بإنسانيته المفرطة وحتميته التقنية[٢]. وأعتقد كذلك أن هذا العرض يفسر بعض الميل إلى الألفية السعيدة أو المبالغات فى النمط المسرحى المفرط لكتاب مثل باومان (Osborne 1998)

والآن دعونى أجرب واقترح بعض طرق توليد هذا النموذج التراكمى للصعوبات فى فهم كيفية انتشار القوة الأرضية. وسوف أتناول ثلاثة مجالات مختلفة. حيث يتمثل أولها فى العالم الموضوعى. إذ يتضمن إنتاج القوة الأرضية بناء وتوزيع أغراض على مسافات، أغراض يجب أن تظل مستقرة إذا أردنا التنبؤ بها (Wise 1997) وعلى المستوى البسيط قد يتطلب هذا بناء وتوزيع الأشخاص والمواد والأسلحة فى مكان معين فى زمان معين. وعلى مستوى أكثر تعقيداً، لابد أن يتطلب هذا بناء العديد من الممارسات البيروقراطية / اللوجستية (التى تخلط الأوراق أساساً) فى مقابل نظريات البيروقراطية.

وقد حصل هذا النوع من العمل على دفعة مؤخراً بسبب تدخلات لاتور وغيره فى عالم الإجراءات البيروقراطية. حيث يقول لاتور Latour (1993:28) إن إنتاج "الحقائق - الصامتة التى تكون محملة أو مليئة بالمعانى" من خلال أدوات مثل النصوص والرسوم والأرقام والرموز من مختلف الأنواع المرتبطة بخصائص معينة، والتى توضح وتقرب ما كان بعيداً ومبهماً - هو الأمر الحاسم هنا. ويطلق لاتور على هذه الأعمال تعبير "المتحركات الثابتة". فهى قادرة على الارتباط بمكونات أخرى مشابهة من خلال أدوات مثل القوائم والجداول والرسوم والخرائط والإحصاءات وكتابة التقارير، وذلك لإنتاج نماذج لأمثلة على الأزمنة والأمكنة فى أزمنة وأمكنة أخرى (Poovey1998)

ففى تلك الأماكن الأخرى، يمكن تلخيص المعلومات المتراكمة من خلال تطبيق وسائل أخرى (ملفات، مؤشرات، أدلة، قوائم مراجع، الخ) ثم تخزينها أو استخدامها. ويؤدى نمو السجلات فى "مراكز الحساب" هذه إلى إنتاج مجموعة من التصورات البيروقراطية ذات الشهية القوية لمزيد من المعلومات، وهذا نوع من الخيال الواسع الذى

له آثار "حقيقية" بلا شك. ففى حالة الإمبراطورية البريطانية مثلاً، يوضح ريتشاردز Richards (1993) أن هذه الأنواع من الآثار كانت مستمرة بسبب التصور الامبريالى الذى اعتبر السجلات كوسيط بين المعرفة والدولة. ويقول ريتشاردز(١٩٩٣:١٤) إن "السجلات لم تكن مؤسسة محددة مقارنة بالمركب المعرفى لعرض المعرفة الشاملة فى إطار الإمبراطورية". تنتج بدورها تصوراتها الخاصة المليئة:

"بالهلوسة الناتجة عن السجلات ذاتها، وهذا نوع من تكرار الذات الذى ينتج عند الحد الفاصل بين المعرفة والدولة. وبهذا المعنى فإن أشباح السجلات التى أشار إليها ريتشاردز ليست سوى ناتج عن هوس الدولة بالسجلات من أجل المعرفة الكاملة– مما ساعد على إعادة تشكيل العلاقة بين حقائق الإمبراطورية وخيالات الإدارة العالمية، وعلى دفعها ودفع نزاعاتها الحدودية طوال القرن العشرين[٣] (Hevia 1998: 256)

إننى آمل أن تكون أصداء دراسة جيوبوليتيكا القرن العشرين واضحة هنا[٤]. فما نراه ليس أداة خارقة سحرية للعرض، ولكنه مجموعة من الممارسات العادية المترددة المليئة بالشكوك والخيالات، ولذلك انتقل الاهتمام من التطابق بين العروض والأشياء الحقيقية ومن التضارب الأخلاقى للمواجهات الاستعمارية إلى الممارسات المادية– إجراء التعدادات، صنع الخرائط، الوصف الإثنوجرافى والتاريخى الطبيعى، وجمع وتخزين هذه الوسائط المسجلة المختلفة" (Hevia 1998: 239-40) فالممارسات تصنع المراسلات، ولكن المراسلات لا تكون كاملة أبداً.

ويتمثل المجال الثانى فى جسم الإنسان. فقد قلت فى مكان آخر إن الجسم يتخلص من الشكل الاستطرادى من خلال خصائص تجسيد معينة تصنع الأشكال الخارجية (Thrift1996) ومع ذلك كانت هذه الخصائص مفقودة فى دراسة الجيوبوليتيكا النقدية بصفة عامة. هذا بالرغم من أن أهمية أشكال التجسيد بالنسبة للجيوبوليتيكا النقدية، ليس كمتجهات للقوة فحسب، بل كمواقع للأداء فى حد ذاتها[٥]. وربما يفسر نقص الاهتمام بالتجسيد– باستثناء العرض المكتوب– لماذا قدمت الجيوبوليتيكا النقدية

أعمالاً قليلة ذات منحنى إثنوجرافى. وهذا يفسر أيضاً لماذا تواجه الجيوبوليتيكا النقدية صعوبات فى الكتابة عن بعض جوانب النوع الاجتماعى. وعلى سبيل المثال، تستبعد النساء من كتابات الجيوبوليتيكا النقدية بالرغم من وجودهن باستمرار (كما فى حالة قوة عمل الموظفات اللائى يقمن بإجراء الاتصالات المعقدة، والتحويلات النقدية، وشحن السلاح" (Enloe 1989: 9) وذلك لأنهن لا يظهرن فى الوثائق والنصوص. وتتضح هذه النقطة جيداً فى ورقة هامة حديثة قدمتها كريستين سيليفستر Christine Sylvester (1998) بعنوان "روايات الوصيفات لسلطة واشنطون". حيث توضح أن النساء لهن أهمية فى نشر القوة الجيوبوليتيكة، ولكنهن نادراً ما يظهرن مع ذلك، لذلك "لأنه لابد من وجود تحليل لسلطة الجسد/ النوع فى الأنماط الجيوبوليتيكية لصنع القرار"(Sylvester 52) وعلى سبيل المثال، نجد فى البيت الأبيض خلال أزمة الصواريخ الكوبية أنه:

"عندما يصادف المرء الفراغات البيضاء على حافة الأوراق المطبوعة فى طرد كنيدى عمداً "للنساء" اللاتى تناول معهن طعام العشاء فى"السويس Alsops"، فإن المرء يدرك مدى عمق البرمجة المسبقة للجسد الذى يحملق فيه. وعندما يرى المرء وصيفة يشار إليها على أنها رئيسة "رجلها" فى أحداث واشنطون، فإنه يدرك أنه قد يكون الكثير من الذكريات المضادة لأحداث وقرارات تغوص فى إشارات إلى "الرجال" فى منظماتهم المحدودة والجامدة نوعاً ما ... أفلا تستحق الوصيفات فى أزمة الصواريخ الكوبية البحث على أساس أنهن يؤثرن بطرق عديدة فى التنظيم التاريخى للسلطة والخطاب والمؤسسات؟ فكيف يمكن تحديد نماذج صنع القرار بدونهن؟ (Sylvester 1998: 59)

وبعبارة أخرى فإن مجموعات النساء لها قوة استشهادية حتى إذا لم يكن هناك ذكر لهن، ويترتب على ذلك أن الجغرافيا النقدية يجب أن "تهتم" بالنساء اللائى يقمن بإدارة أجزاء كبيرة من أدواتها.

ونصل الآن إلى مجال آخر: مجال الكلمات. فهنا يمكن أن نكون قد وصلنا إلى أوضح مثال لعرض الأعمال، أى "الكلمة". ومع ذلك، فإن ما لم نحصل عليه من

الجغرافيا النقدية يتمثل فى الإحساس الواضح بكيفية عمل الكلمات لتحقيق التغير الجيوبوليتيكى، ويستحيل أن يتحقق ذلك طالما أن القوى الجيوبوليتيكية لا تزال توضع فى إطار أنها "كبيرة" و "مسيطرة" (مع كل النغمات الذكورية). وأنا أشك فى أن بعض أهم القوى الجيوبوليتيكية تكمن فى "التفاصيل الصغيرة" لحياة الناس، وما يحدث فى التغيرات الدقيقة لأنشطتهم (Shotter and Billig 1998: 23) وفى سياق طريقة كلامهم. وهذه التغيرات لها نتائج مباشرة. ولهذا فإنه :

"كما يقول باختن، وكما تأكد من أعمال تحليل الحوارات النقاشية، فإننا نلتقط بيقظة كبيرة أدق التغيرات التى تحدث فى صوت المتحدث، وأدق تغير فى أصوات أى شئ له أهمية بالنسبة لنا فى الخطاب اليومى العملى لأى شخص آخر. فكل تلك التلميحات الجانبية اللفظية، والتحفظات، والإشارات، والكنايات، والضربات التى لا تخطئ آذاننا، ليست غريبة على شفاهنا أو آذاننا" (Bakhtin 1984:201) ونحن بدورنا نظهر موقفنا مما يحدث أو يقال بصورة أفعال جسدية ظاهرة، وتعبيرات الوجه، وأصوات الموافقة أو الرفض، الخ. وحتى فى إظهار الاستجابات المتواصلة فى الأنشطة غير اللغوية بيننا وبين الآخرين– فى الرقص والمصافحة، أو حتى مجرد التصادم العابر فى الشارع– فإننا نكون مدركين لما إذا كانت دوافع الآخرين "تتوافق" أو"تتعارض" مع دوافعنا. ومن خلال إحساسنا بتوافقهم أو عدم توافقهم، يمكننا أن نشعر بمواقفهم تجاهنا وما إذا كانت حميمة أو بعيدة، ودية أو عدائية، متآلفة أو متعالية، الخ"[٦] (Shotter and Billig 1998: 23)

وهكذا نجد أنه تم إجراء أعمال فعالة جداً فى علوم مثل الأنثروبولوجيا وعلم النفس (Billig 1995, 1997) التى تحاول أن توضح الإحساس بكيفية ظهور الهوية القومية والموقف الجيوبوليتيكى المرتبط بها من خلال أبسط التفاصيل. وهكذا فإن الهوية القومية لا تتحقق فى الاستعراضات الكبيرة التى تدفع المواطن إلى التلويح بالعلم بأسلوب بطولى. ولكنها تظهر فى إشارات أكثر دقة:

"إنها تحدث على هوامش وعى الضمير من خلال كلمات بسيطة مثل "أل التعريف" و"نحن". ففى كل يوم نقرأ أو نسمع عبارات مثل "رئيس الوزراء"، "الأمة"، أو "الطقس". ويفترض أن أداة التعريف تشير إلى الحدود القومية. فهى تشير إلى الوطن، ولكن بينما يفهم القراء أو المستمعون هذه الإشارة، فإننا لا نتبعها بوعينا، فهى ملمح "متطور ولكنه غير ملحوظ" فى خطابنا اليومى". (Shotter and Billig 1998: 20)

و توجه هذه الأعمال نحو فهم الاعتداءات العميقة، غير الواعية غالباً، التى تكمن وراء الكثير من "التفسير" الجيوبوليتيكى، والذى يبنى الإحساس "بنحن" المختلفين "عنهم" من خلال تفاصيل صغيرة، والتى من خلالها تنساب البرامج السياسية، إلى أن تحدث مخالفة ويتم تحديدها وتوضيحها(٧).

إننى آمل من خلال هذه التعليقات المختصرة الفعلية أن أكون قد قدمت أجندة موازية للجيوبوليتيكا النقدية، والتى لا تزال تعتمد على الخطاب، وعلى الخطاب المفهوم بصورة أوسع، والذى لا يقتصر على العرض، بل يميل إلى الممارسة العملية. وهذه الأجندة تقودنا بدورها بعيداً عن تفسير الخطابات البلاغية المكتوبة والمرسومة المبالغ فيها (والتى أشك فى أن الذين يقرؤونها قليلون (وأن الذين يصدقونها أقل) وتدفعنا نحو أعمال الخطابة (التى أتردد فى وصفها بالحقيقية) والرطانة المستمرة بشأن الممارسات وانعكاساتها الإقليمية التى تثور فيها القوة الأرضية. بل وتغلى فيها أحياناً.

الهوامش

(١) يختلف مشروعا دريدا Derrida وديلوز Deleuze عن بعضهما فى كثير من الجوانب. فكما يقول Deleuze (١٩٧٣)، مقتبساً من سميث : (Smith1997: xv-xvi) :

بالنسبة لأسلوب تحليل النصوص، فإننى أراه بوضوح، وأنا أعجب به كثيراً، ولكن لا صلة له بأسلوبى. وأنا لا أقدم نفسى كمعلق على النصوص. فالنص بالنسبة لى مجرد شئ ثانوى صغير فى ممارسة خارج النص. فالأمر ليس مسألة تعليق على النص بأسلوب التحليل، أو بأسلوب الممارسة النصية، أو بأساليب أخرى، إذ إنها مسألة رؤية "استخدامها" فى الممارسة غير النصية التى تنتمى إلى النص".

ويعتبر هذا الموقف قريباً من موقف فوكو، فى ضوء التشابه بين المؤلفين:

"يوجد فى "علم آثار المعرفة" إشارات متكررة إلى طباعة الحروف AZERT على قطعة من الورق كتوضيح لعبارة- الوحدة الأساسية لوظيفة استطرادية- أصبحت فى نفس الوقت على علاقة بشئ آخر. وتقابل هذه الحروف المفاتيح الموجودة على طابعة فرنسية معمارية، ولكنها بالنسبة إلى فوكو لم تصبح "نشطة" بمعنى استطرادى لمجرد تكرارها. ولا العلاقة ذاتها لها أهمية، حيث تقابل الحروف المطبوعة مؤشرات مادية على دلالة سلسلة طباعة فرنسية. ولكنها توجد فى طريقة تكوين المتفرقات الوثائقية من خلال القائمة المطبوعة الموجودة فى تقاطع مجال ثانوى لعناصر تكونها مفاتيح الطابعة وأصابع الطابع. ويؤدى ترتيب هذا المجال غير الاستطرادى إلى مساندة وتمكين المجال الاستطرادى، الذى يمارس بدوره نوعاً من السلطة على العناصر.

ويوضح مثال النقطة على الرسم البيانى هذا الأمر: فالرسم البيانى الخاص بمستوى الذكاء لا يشير إلى شىء فى حد ذاته. ولكنه يوضح تنظيم مجال المعرفة الذى يقيس أى مجتمع خاص بصناعة ما حسب مجموعة من المبادئ. ويقيس أيضاً تقاطع تقنية الاختبار النفسى المطبق على مجموعة معينة من الناس فى مكان محدد (مدرسة، مكان عمل، إجراءات مقابلة). وفى عمل لاحق يوضح فوكو كيف أن ترتيب صندوق ملفات ,بالنسبة الملفات التى تجمع معلومات عن حالات فردية ,يشمل الأوضاع غير الاستطرادية التى تنظم إستراتيجية "نظام الاتصال" المرتبطة بنوع خاص جداً من المعرفة القانونية بعلم الإجرام والمنحرفين (Brown 1997: 71) وانظر أيضاً التعليقات على لاتور فيما يلى من هوامش.

(٢) خاض فيريليو هذه التجربة محملا بأفكار حداثية حابسة أنفاسها عن الجديد فى تلك الأفكار التى تتجاهل حقيقة أنه لا يمكن أن يكون الشىء طريقة حياة جديدة وفريدة فى ذات الوقت.

(٣) قدم كل من ستيفنسون Stephenson (1996) وستيرلنج وجيبسون Sterling and Gibson (1995) أفضل تحليل لتلك التصورات وسعيها نحو المعرفة الكاملة.

(٤) وهكذا فإن الكثير من التصورات عبارة عن زعزعة دنيوية، ولا يبدو أن حالة الإمبراطورية البريطانية فى القرن التاسع عشر تختلف كثيراً عن معظم الأشكال الحالية، وفى ذلك يقول هيفيا:

" وجدت أداة صنع سياسات الإمبراطورية أنه من الصعب متابعة أنشطة أجزائها الخاضعة لها : فعملية تلخيص وتنظيم المعلومات كانت تتأخر عن إنتاج المعرفة الجديدة بواسطة العملاء الميدانيين. بينما كانت مراكز حساب فرعية تستخدم أساليبها الخاصة لتنظيم وتخزين المعلومات بصورة مستقلة عن الأجزاء الأخرى. ونتيجة لذلك، كانت المعلومات الجديدة غالبًا ما تتعرض لوضعها فى غير موضعها أو النسيان فى مواقع التجميع الكهفية وتسهيلات التخزين المرتبطة بها. وكان هذا التأخير الزمنى وعدم اتساق التنظيم والحفظ يعنى أن المركز يجد نفسه أحيانًا يعمل على أهداف تتعارض مع عملائه على أطراف الإمبراطورية. وأدت هذه الفوضى فى بعض المرات إلى لحظات من التنصل من المسئولية أو التناقض المؤلم بين العملاء الميدانيين وصانعى السياسات فى لندن.

وكانت حالة الأرشيف أيضاً تتأثر بتناقض جوهرى فى جهودها لصنع إمبراطورية فكرية. ومع انتشار شبكات فك الرموز وإعادة الترميز، أدت التغيرات التقنية إلى الإسرا ع بعمليات جمع وتداول المعلومات. وهكذا فإنه حتى مع الكفاح لإنتاج المعرفة الكاملة، وحتى مع اختصار المزيد من "الواقع" الذى تصوره شبكات الترميز إلى سطوح ذات بعدين، فإن هذه المعرفة ذاتها تبدو انتقالية...

ولم يقتصر تأثير ذلك على إثارة شبح العلاقات الفكرية، بل يشير إلى نوع من التأجيل المستمر للهدف النهائى للمشروع، مما يجعل منتجى ومنظمى المعلومات يعملون كخلية نحل فى عملية لانهائية من جمع وتنظيم المعلومات (Hevia1998:248)

(٥) تعتبر الإشارة إلى باتلر مناسبة هنا، ولكن ترقب أيضا عملا لترفت تحت الطبع (Thrift, in press)

(٦) وفى عبارات بسيطة صغيرة مثل " الإمبراطورية البريطانية التى لا تغيب عنها الشمس".

(٧) وبعبارة أخرى فإننى أريد أن تصبح الجيوبوليتيكا النقدية أقرب إلى نوع تحليل النظام العالمى الجديد الذى قدمه وايز (١٩٩٧) Wise أو حتى ليند لورسن .Linde-Laursen (1995)

قائمة المراجع

Bakhtin, M. M. (1984) *Problems of Dostoevsky's Poetics*, Minneapolis: University of Minnesota Press.

Billig, M. (1995) *Banal Nationalism*, London: Sage.

—— (1997) 'Keeping the white queen in play', 149–57 in M. Fine *et al.* (eds) *Off-White*, London: Routledge.

Brown, S. D. (1997) 'In the wake of disaster: stress, hysteria and the event', 64–90 in K. Hetherington and R. Munro (eds) *Ideas of Difference*, Oxford: Blackwell.

Butler, J. (1993) *Bodies that Matter. On the Discursive Limits of 'Sex'*, New York: Routledge.

Cornell, D. (1992) *The Philosophy of the Limit*, New York: Routledge.

Enloe, C. (1989) *Bananas, Beaches and Babes: Making Feminist Sense of International Politics*, Berkeley: University of California Press.

Hevia, J. L. (1998) 'The archive state and the fear of pollution: from the Opium Wars to Fu Manchu', *Cultural Studies* 12, 234–69.

Kirby, V. (1997) *Telling Flesh: The Substance of the Corporeal*, London: Routledge.

Latour, B (1993) *We Have Never Been Modern*, Hassocks: Harvester.

Linde-Laursen, A. (1995) 'SMall differences, large issues. The making and re-making of a national border', *South Atlantic Quarterly* 94: 1123–43.

Ó Tuathail, G. (1997) 'At the end of geopolitics? Reflections on a plural problematic at the century's end', *Alternatives* 22: 35–55.

Osborne, T. (1998) *Aspects of Enlightenment. Social Theory and the Ethics of Truth*, London: UCL Press.

Poovey, M. (1998) *A History of the Modern Fact. Problems of Knowledge in the Sciences of Wealth and Society*, Chicago: Chicago University Press.

Richards, T. (1993) *The Imperial Archive*, London: Verso.

Shotter, J. and Billig, M. (1998) 'A Bakhtinian psychology: from out of the heads of individuals and into the dialogues between them', 13–29 in M. M. Bell and M. Gardiner (eds) *Bahktin and the Human Sciences. No Last Words*, London: Sage.

Smith, D. W. (1997) 'A life of pure immanence: Deleuze's critique et clinique project', xi–ivi in *Gilles Deleuze. Essays, Critical and Clinical*, Minneapolis: University of Minnesota Press.

Stephenson, N. (1996) *The Diamond Age*, Harmondsworth, Penguin.

Sterling, B. and Gibson, W. (1995) *The Difference Engine*, London: Orion.

Sylvester, C. (1998) 'Handmaids tales of Washington power: the abject and the real Kennedy White House', *Body and Society* 4: 39–66.

Thrift, N. J. (1996) *Spatial Formations*, London: Sage.

—— (in press) 'Afterwords', *Environment and Planning D. Society and Space* 18, in press.

Wise, J. M. (1997) *Exploring Technology and Social Space*, London: Sage.

المساهمون فى الكتاب

– **ديفيد أتكنسون** : David Atkinson يدرس الجغرافيا بجامعة هول. بالمملكة المتحدة، وتدور اهتماماته البحثية حول تواريخ المعرفة الجغرافية والجغرافيات التاريخية والثقافية والسياسية لإيطاليا الحديثة وإفريقيا الإيطالية.

– **سانجيا تشاتورفيدى**: Sanjay Chaturvedi باحث فى العلوم السياسية بمركز دراسات الجيوبوليتيكا بجامعة البنجاب ,شانديجاره. وهو مؤلف "بزوغ فجر القارة القطبية الجنوبية" لناشره (Segmen Books 1990) وكذلك "المناطق القطبية: دراسة فى الجغرافيا السياسية" لناشره (John Wiley 1996) وكان زميلا باحثا بمعهد بحوث سكوت بولار ,جامعة كامبردج، فيما بين ١٩٩٢ و ١٩٩٥

– **بول كلافال**: Paul Claval عمل أستاذا للجغرافيا بجامعة السوربون، وانشغل بتدريس الجغرافيا طوال السنوات الخمس والعشرين السابقة، وكان متخصصا فى تاريخ الفكر الجغرافى، الذى قاده إلى استكشاف المعالم المختلفة للجغرافيا البشرية: الاجتماعية، والاقتصادية، والحضرية، والإقليمية والثقافية والسياسية. وقامت دار (Nathan 1998) بنشر أحدث كتبه "الجغرافيا الفرنسية منذ ١٨٧٠ ".

– **كلاوس دودز**: Klaus Dodds محاضر فى الجغرافيا، كلية رويال هولواى، جامعة لندن. وهو مؤلف "الجيوبوليتيكا فى القارة القطبية الجنوبية: نظرات من الهامش المحيطى" لناشره (John Wiley 1997) و"الجيوبوليتيكا فى عالم متغير" لناشره (Longman 2000). وتشمل اهتماماته البحثية الجيوبوليتيكا النقدية والسياسة الدولية للقطب الجنوبى وجزر فوكلاند/مالفيناس. وهو منهمك حاليا فى مشروع يموله صندوق ليفرهولم عن "جزر فوكلاند/مالفيناس فى عالم متغير".

– **ميشيل هيفرنان**: Michael Heffernan أستاذ الجغرافيا بجامعة نوتنجهام. وقام بالتدريس بجامعات كامبردج ,لوبورو ,بالمملكة المتحدة وجامعة كاليفورنيا بمدينة لوس أنجلوس، بالولايات المتحدة. وفى ١٩٩٩–. ٢٠٠٠ كان زميلا باحثا بشعبة "ألكسندر فون همبولت" بمعهد الجغرافيا بجامعة روبريشت–كارلس بهايدلبرج (ألمانيا). وتتناول بحوثه سياسة المعرفة الجغرافية، دور الجغرافيا فى تكوين الهويات السياسية، والعلاقة بين الجغرافيا والذاكرة. وظهر أحدث كتاب له بعنوان" معنى أوروبا: الجغرافيا والجيوبوليتيكا" لناشره (Arnold 1998) ويعمل حاليا فى مجلد بعنوان "سياسات الجغرافيا".

– **ليسلى هيبل**: Leslie W. Hepple محاضر فى الجغرافيا (و مدير برنامج ماجستير "المجتمع ووقت الفراغ") بجامعة بريستول (المملكة المتحدة). وتشمل اهتماماته البحثية الجيوبوليتيكا والتاريخ الثقافى لمشهد الأرض والاقتصاد القياسى المكانى. ومن أهم أوراقه البحثية "إحياء الجيوبوليتيكا" التى ظهرت فى "فصلية الجغرافيا السياسية" فى ١٩٨٦ .

– **أندرو كيربى**: Andrew Kirby أستاذ ورئيس قسم العلوم الاجتماعية والسلوكية بجامعة ولاية أريزونا الغربية بمدينة فوينكس (الولايات المتحدة). وقام بالتدريس فى جامعات أريزونا وكلورادو وريدنج وكان باحثا زائرا فى جامعتى ستانفورد وبيركلى (ولاية كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية). عمل محررا لمراجعات فصلية الجغرافيا السياسية بين ١٩٨٢ و١٩٩٢ ويعمل حاليا محررا للمجلة الدولية "المدن". وتشمل أحدث كتبه المجموعة المحررة "البنتاجون والمدن Pentagon and the Cities" لناشره (Sage 1992) و"السلطة/المقاومة Power/Resistance" لناشره (Indiana University Press 1993)

– **تيموتى و. لوك**: Timothy W. Luke أستاذ العلوم السياسية فى جامعة فرجينيا للعلوم التقنية ,ومؤلف العديد من الكتب والمقالات. وتتناول أعماله إشكالية المعلوماتية وكيف أنها حولت الهياكل الاجتماعية والمؤسسات السياسية والسياسات البيئية وأفكار

الفن وممارسات التعليم وطبيعة الجيوبوليتيكا. واحدث كتبه "النقد الإيكولوجى" لناشره (University of Minnesota 1997) و"الرأسمالية والديمقراطية والإيكولوجيا: ماركس نقطة الانطلاق" لناشره (University of Illinois Press 1998).

– **ديفيد نيومان**: David Newman أستاذ ورئيس قسم السياسة والسلطة بجامعة بن جوريون بالنقب. وهو محرر مجلة "الجيوبوليتيكا" وعضو "لجنة الخريطة السياسية للعالم التابعة للاتحاد الجغرافى الدولى". ونشر الكثير عن الجوانب الجغرافية والإقليمية للصراع العربى الإسرائيلى. وأحدث كتبه بعنوان "ديناميكيات التغير الإقليمى: الجغرافيا السياسية للصراع العربى الإسرائيلى" لناشره (Westview 1999).

– **جيرويد أو تواتيل (جيرارد توال)**: Tuathail Gerard Toa Gearód ó أستاذ الجغرافيا المشارك بجامعة فرجينيا التقنية، بالولايات المتحدة. وتتراوح اهتماماته البحثية من تاريخ الجيوبوليتيكا إلى الاقتصاد السياسى الدولى ,السياسة الخارجية الأمريكية، علاقة الإعلام الجماهيرى بتقنية المعلومات والتعليم. وهو مؤلف "الجيوبوليتيكا النقدية" ,لناشره (University of Minnesota Press 1996)، والمحرر المشارك لكتاب "الجيوبوليتيكا النقدية"، بالإضافة إلى "عالم غير حقيقى؟ العولمة والحكم والجغرافيا " لناشره (Routledge 1998) وكذلك "مختارات جيوبوليتيكية " لناشره (Routledge 1998)

– **جوانى شارب**: Joanne Sharp محاضر فى الجغرافيا بجامعة جلاسجو بالمملكة المتحدة، وتشمل اهتماماتها البحثية الجيوبوليتيكا الشعبية والهوية القومية, خاصة فى سياق السياسات الثقافية الأمريكية فى القرن العشرين. وقد شاركت مؤخرا فى تحرير المجموعة الجغرافية النسائية "المكان/ النوع/ المعرفة " مع لندا مكدويل. وستقوم مطبعة جامعة مينيسوتا بنشر كتابها القادم بعنوان "تكثيف الشيوعية: ذا ريدرز دايجست والهوية الأمريكية ١٩٢٢- ١٩٩٤".

– **جيمس ديريك سيداواى**: James Derrick Sidaway محاضر فى الجغرافيا بجامعة برمنجهام. تتمثل اهتماماته البحثية فى العلاقات بين الشرق والغرب والشمال

والجنوب، وتركز بحوثه الحالية على التحولات فى أفريقيا الجنوبية، والخطابات الجيوبوليتيكية البرتغالية والإسبانية وعلم اجتماع المعرفة الجغرافية. وقد أكمل مؤخرا مشروعا يموله الاتحاد الأوروبى عن الأراضى الحدودية بين اسبانيا والبرتغال.

- **تاييشى تاكيوشى:** Keiichi Takeuchi أستاذ فخرى بجامعة هيتوتسوباشى، وأستاذ الجغرافيا بجامعة كومازاوا، طوكيو. وكتب عددا من الكتب عن تاريخ ومنهجية الجغرافيا ,وعن المشاكل الإقليمية لدول البحر الأبيض المتوسط ,خاصة إيطاليا. وهو حاليا رئيس "الجمعية اليابانية للجغرافيين الاقتصاديين".

- **بيتر ج. تيلور:** Peter J. Taylor أستاذ الجغرافيا وعميد مشارك للبحث بكلية العلوم الاجتماعية والإنسانيات بجامعة لوبورو بالمملكة المتحدة. وكان محررا لمجلة "الجغرافيا السياسية" فى الفترة ١٩٨٢- ١٩٩٨ومحررا لدورية "الاقتصاد السياسى العالمى" فى الفترة ١٩٩٢- ١٩٩٧ وتشمل كتبه السابقة "طريقة عمل العالم الحديث: من السيطرة العالمية إلى المأزق العالمى" لناشره (John Wiley 1996) و"الأشياء العصرية: منظور جغرافى تاريخى " لناشره (Polity 1999)

- **نيجل تريفت:** Nigel Thrift أستاذ الجغرافيا بجامعة بريستول. وتشمل اهتماماته البحثية النظرية الاجتماعية والنظام المالى الدولى، واشتراكية العالم الثالث والزمن. وأهم مؤلفاته "كتابة الريف" ,لناشره (Paul Chapman 1994) و"التكوينات المكانية" Spatial Formations لناشره (Sage 1996) و"النقود/المكان"Money/Space لناشره (Routledge 1996) وهو محرر مشارك لكتاب "رسم خريطة الموضوع " Mapping the Subject الذى يتناول جغرافية التحولات الثقافية، لناشره (Routledge 1995)

المترجمان فى سطور

- د. عاطف معتمد عبد الحميد

- ولد فى القاهرة عام ١٩٦٩
- دكتوراه الجغرافيا من جامعة سان بترسبرج، روسيا، عام ٢٠٠١
- أستاذ الجغرافيا المساعد، كلية الآداب جامعة القاهرة.
- حائز على جائزة الدولة، التشجيعية فى العلوم الاجتماعية لعام ٢٠٠٩

- د. عزت صالح زيان

- ولد فى القاهرة عام ١٩٥٨

- أستاذ مساعد بمعهد التخطيط القومى.

- باحث ومترجم فى قضايا السكان والتنمية.

الإشـراف اللغـوى : حسام عبد العزيز
الإشــراف الفنـى : حـــسن كـــامل

يذهب الكتاب الذى بين أيدينا إلى أن الجيوبوليتيكا يجب أن تتحمل المسئولية عن الماضى، مع إعادة صياغة مفاهيم الجيوبوليتيكا بأسلوب يفسر التغيرات الجوهرية التى حدثت فى أواخر القرن العشرين، فى الوقت نفسه. وينقسم هذا الكتاب إلى ثلاثة أجزاء: أولاً، يركز جزء "إعادة التفكير فى التواريخ الجغرافية" على ما أثمرته الحوارات الجيوبوليتيكية بين الدارسين الأوروبيين والعالم الأوسع. ثانيًا، يتناول جزء "الجيوبوليتيكا، الأمة والروحانية" كيف تأثرت الكتابات الجيوبوليتيكية كثيراً بالتوجهات والرموز الدينية، مع تقديم أمثلة مستمدة من الكاثوليكية واليهودية والهندوسية، وثالثًا، يتأمل الجزء الأخير "إصلاح وتركيز الجيوبوليتيكا" فى كيفية إعادة صياغة الجيوبوليتيكا فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، مع أمثلة من فرنسا والولايات المتحدة.

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح